لورين ووك

حفرة الذئاب

ترجمة أحمد سمير درويش

حفرة الذئاب

تأليف
لورين ووك

ترجمة
أحمد سمير درويش

مراجعة
الزهراء سامي

هنـــداوي

حفرة الذئاب

لورين ووك

Wolf Hollow

Lauren Wolk

الناشر مؤسسة هنداوي
المشهرة برقم ١٠٥٨٥٩٧٠ بتاريخ ٢٦ / ١ / ٢٠١٧

يورك هاوس، شييت ستريت، ويندسور، SL4 1DD، المملكة المتحدة
تليفون: ٨٣٢٥٢٢ ١٧٥٣ (٠) ٤٤ +
البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org
الموقع الإلكتروني: https://www.hindawi.org

إنَّ مؤسسة هنداوي غير مسئولة عن آراء المؤلف وأفكاره، وإنما يعبِّر الكتاب عن آراء مؤلفه.

تصميم الغلاف: ولاء الشاهد

الترقيم الدولي: ٣ ٣٢٥٥ ٥٢٧٣ ١ ٩٧٨

صدر الكتاب الأصلي باللغة الإنجليزية عام ٢٠١٦.
صدرت هذه الترجمة عن مؤسسة هنداوي عام ٢٠٢٣.

جميع حقوق النشر الخاصة بتصميم هذا الكتاب وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بالترجمة العربية لنص هذا الكتاب محفوظة لمؤسسة هنداوي.
جميع حقوق النشر الخاصة بنص العمل الأصلي محفوظة للورين ووك هال عناية رايترز هاوس، إل إل سي.

Copyright © 2016 by Lauren Wolk. This book is translated and printed in collaboration with the Arabic Book Program of the American Embassy in Cairo.

المحتويات

شكر وتقدير	٧
تمهيد	١١
الفصل الأول	١٣
الفصل الثاني	١٩
الفصل الثالث	٢٥
الفصل الرابع	٣١
الفصل الخامس	٣٧
الفصل السادس	٤٣
الفصل السابع	٥٣
الفصل الثامن	٥٩
الفصل التاسع	٦٧
الفصل العاشر	٧٧
الفصل الحادي عشر	٨٣
الفصل الثاني عشر	٩٣
الفصل الثالث عشر	٩٩
الفصل الرابع عشر	١٠٥
الفصل الخامس عشر	١١١
الفصل السادس عشر	١١٩
الفصل السابع عشر	١٢٧
الفصل الثامن عشر	١٣٧

الفصل التاسع عشر ١٤٥
الفصل العشرون ١٥٥
الفصل الحادي والعشرون ١٦٣
الفصل الثاني والعشرون ١٧١
الفصل الثالث والعشرون ١٧٩
الفصل الرابع والعشرون ١٨٧
الفصل الخامس والعشرون ١٩٥
الفصل السادس والعشرون ٢٠٥
الفصل السابع والعشرون ٢١١

شكر وتقدير

أدينُ بالامتنان للكثيرين على مساعدتهم لي في كتابة قصة «حفرة الذئاب». أولهم أمي، ميمي مَكونيل، التي استلهمتُ هذا الكتاب من قصصها الرائعة عن الحياة في مزرعة في غرب بنسلفانيا. فعائلتها كلها، والمزرعة نفسها، قد أسهمتا إسهامًا بارزًا في حياتي الخاصة على مرِّ عقود، وساعدتاني لأضع القصة في سياق أصيلٍ جدير بالتصديق. وأتوجَّه بالشكر أيضًا إلى والدي، رونالد ووك، وأختي سوزان ووك، اللذين كانا من بين أول مَن قرءوا الكتاب وأفطنهم. ذلك أنهما قدَّما لي رؤًى ثاقبة نفيسة وتشجيعًا لا يُقدَّر بثمن. وكذلك كانت أختي كالي بجانبي طَوال الوقت، مع زوجي، ريتشارد، وابنينا، رايلاند وكاميرون، الذين جعلوني كاتبة أفضل، برُؤاهم الثاقبة، وبدعمهم المستمر عندما كان الأمر يستلزم قدرًا هائلًا من وقتي وجهدي.

أمَّا أعضاء مجموعة الكُتَّاب الرائعة «باس ريفر ريفيجنيستس» التي أنتمي إليها، فكانوا معي في السرَّاء والضرَّاء، وسأظل ممتنَّة لهم دومًا على أذهانهم الوقَّادة وقلوبهم الدافئة، خصوصًا جولي لاريفيير ومورين لِفروني اللتين كانتا أوَّل مَن دعاني إلى الانضمام إلى مجموعتهم، وديردري كالانان على تكريسها الكثير من الوقت والاهتمام لصنعتها وصنعتي. كما أنني محظوظة بزميلي العظيم، روبرت ناش، الذي دائمًا ما كان متفهِّمًا أنَّ كتابتي أيضًا تستحق الوقت والاهتمام، حتى وإنْ كنتُ أحب العمل الذي نؤدِّيه معًا. لقد كان، وما زال، صديقًا حقيقيًّا.

وكذلك فأنا مَدينة لوكيلي السابق دان جرين، الذي اقتنع عند تحوُّله إلى المؤلَّفات الواقعية بأنني سأكون أفضل إذا عملتُ مع وكيلٍ آخَر غيره. إنه شخص راقٍ، مثله مثل جودي ريمر، وكيلتي الرائعة في وكالة رايترز هاوس، وجولي شتراوس-جابل، محرِّرتي الممتازة. في الحقيقة، أظهرت عائلة دار بنجوين يانج ريدرز كلها التزامًا استثنائيًّا

— شغوفًا ومهنيًّا في آنٍ واحد — تجاه هذا الكتاب. لم أكُن أتمنَّى فريقًا أفضل من هذا. وأخيرًا، فأنا ممتنة لأنابل على أنها أخذتني إلى «حفرة الذئاب» وأرشدتني إلى طريق الخروج منها مرَّة أخرى. وأنا أودُّ أن أكون شجاعة مثلها.

إلى أمي.

تمهيد

في السنة التي أتممتُ فيها الثانية عشرة من عمري، تعلَّمتُ الكذب.

ولست أقصد الأكاذيب المُختلَقة التي يكذبها الأطفال. وإنما هي أكاذيب حقيقية دفعَتني إليها مخاوف حقيقية؛ أشياء قُلتها وفعلتُها أخرجتني من الحياة التي اعتدتُها ورمَتني بعُنفٍ في حياة جديدة.

كان ذلك في خريف عام ١٩٤٣، حين بدأت حياتي تنقلب رأسًا على عقب، ولم يكُن سبب ذلك قاصرًا على الحرب التي جرَّت العالَم كله إلى قتال يعجُّ بالويلات والصرخات، بل امتد أيضًا إلى الفتاة السوداء القلب التي جاءت إلى تلالنا وغيَّرَت كلَّ شيء.

اشتدَّ اضطرابي في بعض الأحيان حتى شعرتُ بأنني كساقِ مروحة ورقية محاطة بالأزيز والخشخشة، لكنَّ تلك الفترة المُربِكة جعلَتني أُدرك أنه لا يصحُّ لي أن أختبئ في الحظيرة مع كتاب وتفاحة، وأترك الأحداث تمضي بسرعةٍ دون أن أشارك فيها. لا يصح أن أُتمَّ الثانية عشرة من عمري دون أن أفعل شيئًا مفيدًا أستحق به ما أنا عليه من حالٍ هنا، وكنت أعني بذلك مكانتي، سُلطتي الصغيرة، احتمالية تحقيق قيمةٍ ذاتية.

لكن المسألة كانت أعظم من ذلك.

في السنة التي أتممتُ فيها الثانية عشرة، تعلَّمتُ أنَّ أقوالي وأفعالي لها أهميتها.

الحق أنها كانت مهمة للغاية في بعض الأحيان، حتى إنني كنت أرغب في إزاحة هذا العبء عن كاهلي.

ومع ذلك، فقد حملتُه على أي حال، وبأفضل ما يسعني.

الفصل الأول

بدأ الأمر بالحصَّالة الخزفية التي تتخذ شكل خنزير، والتي كانت أهدَتْني إياها عمتي ليلي بمناسبة خامس «عيد ميلاد مجيد» أشهده في حياتي.

أمي هي مَن لاحظَت اختفاء الحصَّالة.

كانت تنظِّف جدران غرفة نومي بينما كنتُ أجمع ثيابي الصيفية لتخزينها للصيف القادم، وفجأةً قالت لي: «هل تخبِّئين حصَّالتكِ يا أنابل؟» لا بد أنها لاحظت اختفاء الحصَّالة؛ لأنَّ غرفتي الصغيرة لم تكُن تحتوي على أشياء كثيرة، باستثناء الأثاث نفسه والنوافذ، ومشط وفرشاة، وكتاب بجوار سريري. وأضافت: «ما من أحد سيأخذ أشياءكِ. فلا داعي إلى أن تخبِّئيها.» كانت جاثية على يدَيها وركبتَيها، وكان جسدها كله يهتز وهي تفرك الإزار، واتجه نعلا حذاء العمل الخاص بها إلى الأعلى على غير العادة.

سرَّني أنها لم تكُن تستطيع رؤية وجهي. كنتُ أطوي ثوبًا ورديًّا فاقع اللون من الثياب التي أذهبُ بها إلى الكنيسة؛ ثوبًا كنت آمل أن يصبح أصغر بما لا يناسبني بحلول الربيع القادم، وتخيَّلتُ أنَّ وجهي في تلك اللحظة كان يكتسي بهذا اللون الفظيع نفسه.

حين عُدت من المدرسة إلى البيت في نهار ذلك اليوم، هززتُ الحصَّالة الخزفية لأُخرج منها بِنسًا، فسقطت مني على الأرض بالخطأ، فتهشَّمَت إلى قِطَع صغيرة، وفرَّت منها العملات المعدنية التي عكفتُ على ادخارها طوال سنوات، والتي لا بد أنها كانت قد وصلت آنذاك إلى نحو عشرة دولارات. دفنتُ قِطَع الخزف المكسور على الجانب الآخَر من حديقة المطبخ، وجمعتُ العملات في منديل قديم وربطتُ زواياه معًا، وخبَّأتُ الصرة في حذاء شتوي أسفل سريري، مع الدولار الفضي الذي كان جدي قد أعطانيه من مجموعة عملاته التذكارية في عيد ميلادي الأخير.

لم أضَع ذاك الدولار الفضي في حصَّالتي قَط؛ لأنني لم أعتبره مالًا. كان أشبه بقلادةٍ تخيَّلتُ أنني سأرتديها يومًا ما، ولكَمْ بدَت المرأة المرسومة عليه جميلة جدًّا ورائعة جدًّا ورصينة جدًّا في تاجها ذي الأشواك!

وقرَّرتُ أنني سأتخلَّى عن بِنس لتلك الفتاة البشعة التي كانت تنتظرني على المشى المؤدي إلى مُنخَفَض «حفرة الذئاب»، بل ربما أكثر، لكن لن يحدث أبدًا أن أترك لها ذاك الدولار الفضي.

للذهاب إلى المدرسة، كنت أمشي كلَّ يومٍ مع شقيقيَّ — هنري، الذي كان في التاسعة من العمر، وجيمس، الذي كان في السابعة — إلى «حفرة الذئاب»، ثم أخرجُ منها مرَّة أخرى للعودة إلى المنزل. و«حفرة الذئاب» هي المكان الذي قالت فيه فتاة ضخمة وقوية أكبر منا سنًّا، تُدعى بيتي، إنها ستنتظرني فيه بعد المدرسة.

كانت قد جاءت من المدينة للبقاء مع جدها وجدتها، جلينجاري وزوجته، اللذين كانا يعيشان فوق ضفة نُهير «راكون كريك»، بعد نهاية الزقاق المؤدي إلى مزرعتنا مباشرة. وكنت أخاف منها منذ اليوم الذي ظهرت فيه في المدرسة، قبل ذلك بثلاثة أسابيع.

كان يُقال همسًا إنَّ بيتي أُرسِلَت إلى الريف لأنَّها «حَرون» (أي غير قابلة للتقويم)، وهي كلمة كنت أجهلها واضطُررتُ إلى البحث عن معناها في القاموس الكبير في المدرسة. لم أكُن أعرف ما إنْ كان الهدف من عيشها في الريف مع جدها وجدتها هو العقاب أم العلاج؛ وسواء أكان الأمر هذا أم ذاك، لم أرَ أنه من العدل أن نُبتلى بها ونحن لم نرتكب أيَّ جرم فظيع.

وصَلَت إلى مدرستنا صباح أحد الأيام دون سابق تنويه ولا أي شيء من قبيل التفسير. كان عددنا قرابة الأربعين بالفعل، وكان هذا أكثر مما يُفترض أن تستوعبه المدرسة الصغيرة؛ ولهذا اضطُر البعض إلى أن يجلسوا أزواجًا في مكاتب الدراسة؛ اثنان في مقعد مُخصَّص لفرد واحد، اثنان يكتبان ويُجريان العمليات الحسابية على سطح المكتب المائل المليء بالندوب العميقة، ومجموعتان من الكتب في الصندوق المُلحَق أسفل غطاء المكتب.

لم أمانع ذلك بشدة؛ لأنني تشاركتُ المقعد مع صديقتي روث، وهي فتاة شاحبة البشرة، حمراء الشفتَين، داكنة الشعر، صوتها هادئ، وثيابها مكوية بإتقان مثالي. كانت روث تحب القراءة بقدر ما كنتُ أحبها أنا أيضًا، وبذلك كانت هذه الهواية المهمة مشتركةً بيننا. وكلتانا فتاتان نحيفتان تواظبان على الاستحمام (لم يكُن ذلك ينطبق على كل الطلاب في مدرسة «حفرة الذئاب») ولذا لم يكُن جلوسنا متلاصقتَين بالأمر السيئ.

وصلَتْ بيتي في ذلك اليوم، ووقفَتْ في مؤخرة حجرة الدراسة، وحينها قالت مُعلمتنا السيدة تايلور: «صباح الخير.» لم تقُل بيتي أيَّ شيء. كانت ذراعاها معقودتَين على صدرها. أضافت المعلمة: «يا أطفال، هذه بيتي جلينجاري.» بدا لي اسمها وكأنه اسمٌ من أغنية.

كان من المنتظر أن نردَّ التحية الصباحية، فقُلنا صباح الخير. لكنَّ بيتي اكتفَت بالنظر إلينا دون أي كلمة.

«الحجرة مكتظة قليلًا يا بيتي، لكننا سنجد مقعدًا لكِ. علِّقي معطفكِ وعُلبة غدائكِ.»

راقبنا كلنا في صمتٍ لنرَى المكان الذي ستختاره السيدة تايلور لبيتي، لكن قبل أن تتسنَّى لها الفرصة لتُخصِّص لها مقعدًا، تطوَّعَت فتاةٌ نحيفة اسمها لورا، تستطيع قراءة الطالع السيئ على ما يبدو، ولملمت كُتبها من تلقاء نفسها، وانحشرت بجوار صديقتها إميلي، تاركة المكتبَ فارغًا.

أصبح هذا مكتب بيتي. كان أمام المكتب الذي أتشارَكُه مع روث، وكان قريبًا منه جدًّا لدرجة أنني، في غضون يومَين، بدأتُ أجِد كرات من الورق المضوغ تلتصق بشعري، وتقرُّحات حمراء صغيرة على ساقي؛ حيث كانت بيتي تمد يدها إلى الوراء وتَخِزُني بقلمها الرصاص. لم أكُن سعيدة بهذا الوضع، لكني كنت مسرورة لأن بيتي اختارت أن تضايقني أنا، وليس روث التي كانت أصغر مني حجمًا، وأكثر رقة. ثم إنَّ شقيقيَّ كانا يُلحقان بي مضايقاتٍ أشدَّ بكثير، أما روث فلم يكُن لديها أي أشقاء. قرَّرت أن أصمد أمام اعتداءات بيتي البسيطة طَوال الأسبوع الأول من قدومها، على أمل أن تتضاءل بمرور الوقت.

لو أنَّ مثل هذه الأشياء قد حدثت في مدرسة من نوعٍ مختلف لَلاحظَتْها المعلمة، لكن السيدة تايلور كانت مضطرة إلى التسليم بأنَّ ما يحدث خلف ظهرها لا يستحق اهتمامها.

ولأنها كانت تُدرِّس لنا جميعًا، فدائمًا ما كانت المقاعد المُكدَّسة في مقدمة الحجرة عند السبورة مشغولةً بطلاب المرحلة التعليمية الذين تُلقِّنهم درسهم، أمَّا بقيتنا، فكنا نجلس في مكاتبنا ونؤدي واجباتِنا إلى أن يحين دورنا لتلقِّي الشرح في المقدمة.

كان بعض الصبيان الأكبر سنًّا ينامون قسطًا طويلًا من النهار. وعندما يستيقظون لتلقِّي دروسهم عند السبورة، كانوا يعاملون السيدة تايلور بوقاحة صريحة جدًّا، حتى إنني أعتقد أنَّ الدروس التي كانت تُدرِّسها لهم كانت أقصر ممَّا ينبغي. كانوا كلهم صبيانًا ضخام البنية ونافعين في مزارعهم، ولم يَرَوْا فائدةً من الذهاب إلى مدرسةٍ لا تعلِّمهم أن يزرعوا أو يحصدوا أو يرعوا أيَّ شيء. وكانوا يعرفون أيضًا تمام المعرفة أنَّ المدرسة لن تساعدَهم في قتال الألمان إذا استمرَّت الحرب إلى أن يُصبحوا كبارًا بما يكفي لخوض

غمارها. إنَّ اشتغالهم بالزراعة وتربية المواشي سيجعلهم يوفِّرون الغذاء اللازم للجنود؛ ومن ثَمَّ فربما يُنقذهم من ويلات الحرب، أو يجعلهم أقوياءَ بما يكفي للقتال، لكن المدرسة لن تجعلهم كذلك أبدًا.

بالرغم من ذلك، في الأشهُر الأشد برودة، كان العمل الذي قد يُكلَّفون به في المنزل شاقًّا وصعبًا؛ كإصلاح الأسوار وأسطح الحظائر وعجلات العربات. ولهذا؛ ففي ظل وجود خيار مُتاح لديهم لقضاء النهار في قيلولة، أو اللعب العنيف مع الصبيان الآخَرين في فترة الاستراحة بدلًا من العمل في الرياح القارسة البرودة، كان معظم الصبيان يختارون المدرسة في تلك الأشهر. هذا إذا سمح لهم آباؤهم بذلك.

لكن عندما وصَلَت بِيتي في شهر أكتوبر ذاك، كان الجو ما يزال دافئًا، ولم يكُن هؤلاء الصبيان المشاكسون قد واظبوا على الحضور بعد. ولولاها، لكانت المدرسة مكانًا آمنًا هادئًا، أو كانت ستظل كذلك على الأقل إلى أن يتحطم كل شيء في نوفمبر الفظيع ذاك، حين دُعيتُ إلى سرد قائمة أكاذيبي.

في ذلك الحين، لم أكُن أعرف الكلمة التي يُمكن أن تصف بيتي وصفًا صحيحًا، أو اسم السمة التي تميِّزها عن الأطفال الآخَرين في تلك المدرسة. ففي أقل من أسبوع من التحاقها بالمدرسة، كانت قد علمتنا دزينة من الكلمات التي لم يكن يصِحُّ أن نعرفها، وسكبت قِنِّينةً من الحبر على سترة إميلي، وأخبرت الأطفال الصغار بكيفية حدوث الحَمل والولادة؛ وتلك معلومة لم أعرفها أنا نفسي إلا في الربيع الماضي عند ولادة العجول الصغار. وصحيحٌ أنَّ تجربتي مع تعلُّم كيفية حدوث الحمل والولادة كانت لطيفةً بفضل جدتي التي تناولت المسألة بكياسة وظَرفٍ؛ لأنها هي نفسها قد ولدت العديد من الأطفال، وكان ذلك يحدث في كل مرة على السرير الذي كانت لم تزَل تنام عليه مع جدي. لكنَّ تجربة أصغر الأطفال في المدرسة مع تلك المسألة لم تكُن لطيفة. ذلك أنَّ بيتي تناولتها بفظاظة. لقد أفزعتهم منها للغاية. والأسوأ من ذلك أنها هددتهم من أنهم إذا وشوا بها إلى آبائهم وأمهاتهم، فستلاحقهم عبر الأحراج بعد المدرسة وتضربهم، كما ضربتني لاحقًا. وربما تقتلهم. وقد صدَّقوها، كما صدقتُها.

كان يمكن أن أهدِّد شقيقيَّ بالموت وتقطيع أوصالهما عشرات المرات في اليوم، وكانا يضحكان عليَّ ويُخرجان لي لسانَيْهما، لكن نظرة واحدة من بيتي كانت كفيلةً بأن تجعلهما يلزمان الصمت والهدوء فورًا. الأرجح أنهما ما كانا ليقدِّما لي مساعدةً تُذكَر لو كانا معي ذلك اليوم في مُنخفَض «حفرة الذئاب» عندما خرجَت بيتي من خلف شجرةٍ وقطعَت الطريق عليَّ.

عندما كنت أصغر سنًّا، سألتُ جدي عن سبب تسمية «حفرة الذئاب» بهذا الاسم.

وقد قال: «لأنهم كانوا يحفرون حُفرًا عميقة هناك لصيد الذئاب.»

كان واحدًا منَّا نحن الثمانية الذين كنا نعيش معًا في البيت الريفي ذي المزرعة الذي كانت عائلتنا تسكنه منذ مائة سنة، وهكذا كنا أفرادًا من ثلاثة أجيال مُكدَّسين معًا تحت سقفٍ واحد، بعدما فرضت فترة «الكساد» التقشُّف على البلد كلِّه، وجعلت مزرعتنا أنسَب الأماكن للمعيشة. ومع دوران رحى حرب عالمية ثانية، لجأ الكثيرون إلى زراعة حدائق النصر للمساعدة في إطعام أنفسهم، لكنَّ مزرعتنا كلها كانت بمثابة حديقة نصر عملاقة أمضى جدِّي حياته كلها في الاعتناء بها.

كان رجلًا جادًّا يخبرني دومًا بالحقائق الصادقة، صحيحٌ أنني لم أكُن أريدها في كل الأحيان، لكني في بعض الأحيان كنت أسأله عنها على أي حال. فعلى سبيل المثال، حين سألتُه عن سبب تسمية «حفرة الذئاب» بهذا الاسم، أخبرني بالحقيقة مع أن عمري حينها كان ثمانية أعوام فقط.

كان جالسًا في كرسيٍّ بالمطبخ قريب من الموقد واضعًا مرفقَيه على ركبتَيه، ويداه تتدليان من رسغَيه الضخمَين، وقدماه الشاحبتان جاهزتان لانتعال حذائه. كان يبدو، في أوقات أخرى من السنة، رجلًا متيقظًا أصغر سنًّا. أما في صباح ذلك اليوم، فقد بدا منهكًا رغم أننا لم نزَل في يونيو. كان أعلى جبينه أبيض كقدَميه، لكنَّ أنفه وخدَّيه كانت بُنِّية، كيدَيه وذراعَيه، إلى حيث كان يطوي كُمَّي قميصه. كنت أعرف مدى إنهاكه الشديد، مع أنه كان يقضي قسطًا كبيرًا من كل نهار جالسًا في الظل يؤدِّي بعض الأعمال البسيطة.

سألتُه قائلة: «لماذا أرادوا أن يصطادوا الذئاب؟» فالمرءُ لا يستطيع أن يحلب ذئبة. ولا يستطيع أن يربطها بمحراث. ولا يستطيع أيضًا أن يتناولها على العشاء، على ما أظن.

ردَّ قائلًا: «كي لا يظل الكثير منها في الأنحاء.»

لم يكُن ينظر إليَّ. كان ينظر إلى يدَيه. ومع أنهما كانتا خشنتَين بالفعل كجلد الحيوانات، فقد كان لديه بثرة متقيِّحة عند الجزء السفلي من كل إبهام، من مساعَدة أبي في الزراعة.

سألتُه: «هل هي تأكل الدجاج؟» فأحيانًا ما كنت أستيقظ صباحًا على صراخ أمي في أحد الثعالب التي كانت تشق طريقها إلى خُنِّ الدجاج. لكني لا أعتقد أنَّ حتى أمي كانت ستلاحق ذئبًا بهذه الطريقة.

قعد منتصبًا وفرك عينَيه. وقال: «توجد أسباب كثيرة. من بينها أنَّ عدد الأشخاص الذين كانوا يصطادون الذئاب لم يعُد كافيًا. فأصبحتْ أشدَّ جرأة وأكثر عددًا من الحدِّ المعقول.»

خَطَر ببالي حينئذٍ حفرة مليئة بالذئاب.

«هل كانوا يقتلونها بعدما يوقعون بها في الحفرة؟»

تنهَّد جدي. وقال: «كانوا يُطلقون الرصاص عليها. ويُسلِّمون آذانها للسلطات من أجل المكافأة. ثلاثة دولارات عن كل زوج.»

«يُسلِّمون آذانها؟ ماذا إذا كانت جراء، هل كانوا يتخذونها حيواناتٍ أليفة؟»

ضحكَ جدي، ولم يكُن يُصدر صخبًا كبيرًا عندما يضحك. كان يكتفي بهزِّ كتفَيه بضع مرَّات. وقال: «أتظنين أنَّ الذئبَ يُمكن أن يتعايش مع الكلب؟»

دائمًا ما كانت المزرعة تضم عددًا وفيرًا من الكلاب. لم أكُن أستطيع تخيُّل المكان دون وجود ستة كلاب أو سبعة تركض في أنحائه.

قلت: «ولكن كان بإمكانهم أن يربوا الجراء تربية سليمة. ويجعلوا منها كلابًا.»

رفعَ جدي حمالتَي بنطاله فوق كتفَيه وبدأ يرتدي جواربه. ثم قال: «الذئبُ ليس كلبًا، ولن يكون كذلك أبدًا، مهما كانت الطريقة التي تُربينه بها.»

وعندما انتعلَ حذاءه وربطه، وقفَ ووضعَ إحدى يدَيه الضخمتَين على رأسي. وقال: «كانوا يقتلون الجراء أيضًا يا أنابل. ما كانوا يفكِّرون في ذلك كثيرًا على الأرجح. لا تنسي أنكِ لم تنزعجي إطلاقًا عندما هرستُ تلك الأفعى الصغيرة في الربيع الماضي.»

كان حذاؤه قد ترك بصمة ثابتة على الأفعى، وكأنها كانت مخلوقة من طين.

قلتُ: «الأفاعي النحاسية الرأس سامة. هذه مسألة مختلفة.»

فقال: «هي ليست هكذا للأفعى. ولا للرب الذي خلقها.»

الفصل الثاني

تذكَّرتُ تلك الأفعى وأنا واقفة على المشى المؤدِّي إلى الخروج من مُنخفَض «حفرة الذئاب»، بينما كانت بيتي منتظرةً أمامي. انتابتني قشعريرة وشعرتُ بصِلةِ قرابة بعيدة تجمعني بالذئاب التي ماتت هنا. كانت بيتي ترتدي فستانًا مصنوعًا من نسيج قُطني منقوش بالمربعات، وسترة زرقاء بلون عينَيها، وحذاءً جلديًّا أسود. وكان شَعرها الأصفر مربوطًا من الخلف على شكل ذيل حصان. كانت تبدو غير مؤذية في المجمل، باستثناء تلك النظرة التي ارتسمت على وجهها.

توقفتُ وأنا لم أزَل على بُعد عشر أقدام عنها.

قلتُ: «مرحبًا يا بيتي.» وتشبَّثتُ جيدًا بالكتاب الذي كنت أحتضنه في ذراعي اليُمنى. كان كتابَ تاريخ قديمًا جدًّا لدرجة أنه لم يكُن يعتبر أريزونا ولاية، ولكن وزنه كان ثقيلًا بعضَ الشيء، وارتأيتُ أنني يُمكن أن أرميه عليها إذا اقتربَت مني أكثر مما ينبغي. وصحيحٌ أنَّ دلوًا غدائيًّا لم يكُن ثقيلًا بما يكفي ليُجدي نفعًا في هذا الموقف، لكني أرجحته قليلًا بيدي اليُسرى لترَى أنني لست عزلاء تمامًا.

سألتني: «إلى أيِّ نوع من الأسماء ينتمي اسم «أنابل»؟» كان صوتُها أجش ويكاد يكون صبيانيًّا. كانت تحدِّق إليَّ خافضةً رأسها ككلبٍ يُفكِّر فيما إذا كان سيعض فريسته أم لا. افترَّت شفتاها عن شيءٍ من الابتسامة، وأرخَت ذراعَيها عند جانبَيها. وأمالت رأسَها جانبًا.

هززتُ كتفي. فأنا لم أكُن أعرف نوع اسمي.

قالت: «أنتِ الفتاة الغنية. هذا اسم فتاة غنية.»

نظرتُ خلفي لأرَى ما إنْ كان يوجد على المشى فتاة غيري. أو شخص غني.

«تظنين أنني غنية؟» لم يخطُر ببالي قط أنَّ أي أحد قد يعتبرني غنية، مع أنَّ عائلتي كانت عائلةً عريقةً تبرَّعَت بأرضٍ للكنيسة والمدرسة، وظلَّ لديها أرضٌ كافيةٌ لإقامة مزرعة فسيحة. كان أجدادي راقدين تحت أرقى شواهد القبور في المقبرة، وكان منزلنا، في الحقيقة، فسيحًا بما يكفي لإيواء أفراد الأجيال الثلاثة الذين كانوا يعيشون فيه الآن، وإن كان مزدحمًا بهم. كان لدينا مياهٌ جارية. وقبل ذلك بعامَين، أوصل السيد روزفلت الكهرباء إلى المنطقة، وكان لدينا المالُ اللازم لإمداد المنزل بالأسلاك والوصلات الكهربائية. كان لدينا في المنزل هاتفٌ مُثبَّت بحائط غرفة الجلوس، وكنا ما نزال نعتبره أشبه بمعجزة. وفوق ذلك، كنا نأكل في مطعم «لانكاستر» في سيويكلي حوالَي مرتَين في السنة. لكننا لم نكُن أغنياء. الأروع من ذلك كله هو المرحاض الداخلي الذي ركَّبه والداي مؤخرًا لإراحة جدي وجدتي؛ لأنهما صارا كبيرَين بما يكفي لأن يستحقَّا الراحة.

قالت بيتي: «لديكِ نافذة أرجوانية.»

لم أكُن أعرف عمَّ تتحدث حتى تذكَّرتُ الزجاج الأرجواني الفاتح في نافذة الصالة الأمامية لمنزلنا، الذي كان من أحَبِّ الأشياء إليَّ فيه. كنت أحبه للغاية هو والجملونات والسقف الأردوازي الذي كان أشبه بريشٍ فضي. والمدافئ الكبيرة في كل غرفة. والنوافذ الطويلة كالأبواب.

قالت بيتي: «لقد أخبرَتني جدتي بشأنِ نافذتكم الأرجوانية. لم أسمع من قبلُ عن وجود نوافذ أرجوانية، إلَّا في كنيسةٍ أو مملكة. لا أحدَ لديه نافذة أرجوانية إلَّا إذا كان غنيًّا.»

لم أكُن أعرف بما ينبغي أن أرد على ذلك؛ ولذا لم أقُل أي شيء.

التقطَتْ بيتي عصًا من جانب المشى. كانت غُصنًا يابسًا، لكني أدركتُ من طريقة إمساكها بها أنها ما تزال ثقيلة.

«غدًا، ستجلبين إليَّ شيئًا ما وإلَّا فسأضربك بهذه العصا.»

قالت ذلك بهدوءٍ شديد لدرجة أنني ظننتها تمزح، ولكن حين تقدَّمَت خطوةً تجاهي، صار جسدي ساخنًا وشعرتُ بأنَّ قلبي يخفق بعُنف.

قلتُ لها: «شيئًا مثل ماذا؟» وتخيَّلتُ نفسي أجرُّ النافذة الأرجوانية عبر الأحراج.

«أي شيءٍ تملكينه.»

لم أكُن أملك الكثير. لم يكُن لديَّ سوى حصَّالتي وما تحويه من عملاتٍ معدنية، وكتبي. وكُمٍّ منفصل مصنوعٍ من فرو القُنْدُس كان جدي قد صنعه لجدتي التي أعطتني إياه حين صار رثًّا. وياقة من الدانتيل كنت أخيطها بفساتيني التي أرتديها للكنيسة.

وقفاز قطني أبيض صار أصغر من أن يناسب حجم يدي آنذاكَ. وإبزيم سُترةٍ على شكل ضفدعة كنتُ قد استعرتُه من عمتي ليلي، ولم تسأل عنه منذ ذلك الحين.

أحصيتُ هذه المقتنيات سريعًا في رأسي، لكني لم أكُن مقتنعةً بأن أعطيَ بيتي أيَّ شيء، حتى قالت: «سأتربَّص بشقيقَيكِ إذا لم تأتي.»

وصحيحٌ أنَّ شقيقيَّ كانا صبيَّين صغيرَين مشاكسَين وعنيفَين، لكنهما كانا أصغر حجمًا منِّي، وكنتُ أنا المسئولة عن الاعتناء بهما.

لم أقُل أيَّ شيء بينما سَنَدَت بيتي العصا على شجرةٍ، وواصلت السير على الممشى مبتعدةً عنِّي. وقالت: «ولا تُخبري أي أحدٍ بذلك وإلَّا فسأضرب الصغير بحجر.» جيمس. كانت تقصد جيمس. الصغير.

انتظرتُ حتى غابت عن الأنظار، ثم استعدتُ أنفاسي وفكَّرتُ فيما قد يشعر به المرءُ إذا ضُرِب بعصًا.

قبل ذلك بعامٍ، كان هنري قد رماني بفطرٍ من عيش الغراب بحجم الطَّبَق، فتراجعتُ وانحرفتُ عن الطريق، وعندها تعثَّرتُ بكلبٍ وسقطتُ فانكسرَت ذراعي. وكنتُ قد لسعتُ نفسي بالنار بضع مراتٍ من قبل، ووقفتُ ذات مرة على نصل مجرفة فارتدَّ مقبضها ليصطدم بجبيني، ولويتُ كاحلي في إحدى حُفر جرذان الأرض. لم يتأذَّ جسدي بإصاباتٍ كثيرةٍ غير هذه في السنوات الإحدى عشرة التي عشتُها في الدنيا، لكن الألم الذي تعرضتُ له كان كافيًا لأعرف أنَّ ضربةً عنيفةً بغُصن شجرةٍ لن تقتلني.

مع ذلك، عندما مررتُ بتلك العصا التي اختارَتها بالذات لتُهدِّدني بها، قذفتُها بعيدًا وسط الأحراج قدر استطاعتي. صحيحٌ أنَّ المكان كان به الكثير من العصيِّ الأخرى، لكني شعرتُ بقليلٍ من التحسُّن عندما رميتُ تلك العصا بالذات بعيدًا عن متناولها.

ارتأيتُ وأنا أتمشَّى ببطءٍ على الممشى أنَّ بيتي لن تلاحق هنري أو جيمس إلَّا بعدما تجرِّبني؛ ومن ثمَّ عزمتُ على أن أنتظر لأرى ما إنْ كان كلامُها مجردَ نباحٍ فارغ، أم أنها ستعض بالفعل قبل أن أحكيَ لوالديَّ أي شيء قد يجعل بيتي أشدَّ غضبًا بكثير مما كانت عليه بالفعل. لكني اعترفتُ لنفسي بأنني شعرتُ بخوفٍ لم أعهده من قبل.

لم أشعر قبل ذلك بخوفٍ حقيقي مرارًا في حياتي، سوى الخوف من الحرب … الخوف من أن تظلَّ رحاها دائرةً إلى أن يكبر شقيقاي بما يكفي لمحاربة النازيين … رغم أنَّ الصِّبية العاملين بالمزارع كانوا يُعفَون من ذلك في أحيانٍ كثيرة. ولا بد أنَّها ستكون قد حُسِمَت

بالتأكيد لصالح أحد الطرفَين بحلول ذلك الوقت. وقد كنتُ خائفةً من ذلك أيضًا؛ ممَّن سينتصر ومَن سيُهزَم.

كنت قد صنعتُ مع بقية الفتيات في نادي «فور-إتش» رايةً لنعلِّقها في الكنيسة، وكنا نضيف نجمة زرقاء كلما رحل أحدٌ من البلدة ليقاتل في الحرب. وعندما كان أحدُهم يموت، كنا نغيِّر النجمة الزرقاء إلى نجمةٍ ذهبية. وصحيحٌ أنَّنا لم نغيِّر حتى الآن سوى نجمتَين فقط، لكني حضرتُ جنازتَيهما، وعرفتُ أنَّ حقيقة الأمر ليست هيِّنةً إطلاقًا مهما صَغُرَ العدد.

أحيانًا كنت أقعدُ مع الكبار، وأستمع إلى الراديو في المساء بعد الانتهاء من تناول العشاء. لم يكُن أيُّ أحدٍ يقول أيَّ شيء عند ورود الأخبار. كانت أمي تستمع برأسٍ محنيٍّ ويدَين متشابكتَين منهمكتَين في رتق الثياب الممزَّقة. كانوا يتكلَّمون عن معسكرات الاعتقال التي كنت أظنُّ في البداية أنها تعني الأماكن التي يذهب إليها الناس لإعمال «عقولهم» بتركيز.

قال أبي: «ليتها كانت كذلك. لكنها ليست كذلك يا أنابِل. إنها سجون للناس الذين لا يحبهم هتلر.»

واجهتُ صعوبةً شديدة وأنا أتخيَّل السبب في كره هتلر لهذا الكَمِّ الهائل من الناس.

سألتُه قائلة: «ومَن يحب؟»

فكَّر أبي في الإجابة. وقال: «ذوو الشَّعر الأشقر والعيون الزرقاء.»

حينها سُررتُ بأنَّ لون شَعري بُنِّي. عيناي أيضًا لونهما بُنِّي.

كنا نستمع إلى أخبار القنابل والغواصات، وابتسمنا عندما أُعلِنَ أنَّ قوات الحلفاء قريبةٌ من استعادة إيطاليا، لكننا ظللنا قَلِقين حيال كلِّ شيءٍ آخَر.

قالت أمي وهي تُملِّس على ظهري: «لا داعي إلى الخوف يا أنابل.»

لكنني كنت خائفة.

لم أكُن خائفة من أمي، بالرغم من قسوتها الشديدة في بعض الأحيان. كانت قد نسيت شعور ركوب أرجوحة في الهواء، والتوقف عن استعمال المجرفة عند ظهور أولى بوادر البثور، وتوقُّع أن يكون أي شيء أبسط من حقيقته الفعلية. كانت في السابعة عشرة من عمرها عندما أنجبتني، وكانت في الثامنة والعشرين من عمرها في السنة التي تعلَّمتُ فيها الكذب، أي إنها هي نفسها لم تكُن أكبر من فتاةٍ صغيرةٍ إلا قليلًا، لكنها كانت مسئولةً

عن أجيال ثلاثة وقَدرٍ كبير من أعمال المزرعة أيضًا. ومع ذلك، فحتى عندما كان صبرها عليَّ ينفد تمامًا، لم أكُن أخاف منها.

ولم أكُن أيضًا أخاف من عمتي ليلي في الحقيقة، مع أنها يمكن أن تكون مخيفةً بالفعل. كانت امرأة طويلة نحيفة قبيحة، ربما كانت ستُوصَف ملامحها بالوسامة لو كانت لرجل، وكانت تقضي نهارها في العمل مديرةً لمكتب بريد، وليلها في الصلاة وقراءة إنجيلها والتدرُّب على بعض خطوات الرقص، في الرقعة الصغيرة عند الطرف السفلي من سريرها. أحيانًا كانت تدعوني إلى غرفة نومها للاستماع إلى حكاية «بيتر والذئب» على الفونوغراف، وكانت بين الحين والآخَر تضع بنسًا في الحصَّالة الخزفية التي أهدَتني إياها، لكن أسنانها الكبيرة المربَّعة وتعبُّدها التقي المتحمِّس جدًّا للرب كانا يُرعباني.

وكنت أخاف في بعض الأحيان من قلب جدتي السقيم الذي كان يُجبرها على صعود الدَّرَج بظهرها وهي جالسة … كانت تصبح ضعيفة جدًّا وعجوزًا جدًّا في بعض الأحيان، ولم تعُد المرأة القوية القادرة التي كانَت عليها في الماضي. وعندما كانت حالتها الصحية تسمح لها، كنا نجلس معًا على أرجوحة الشرفة ونلعب بعض ألعاب التخمين، ونعلِّق على الفراشات الموجودة في الحديقة الأمامية، ونأمل أن يأتي أحد طيور الدُّرَّاج متقافزًا من وسط الأحراج ليسرق البذور التي نثرَتْها للطيور المغردة. كانت تحب تلك الطيور. كانت تحبها حقًّا. حتى الرمادية الصغيرة منها. خصوصًا الرمادية الصغيرة منها. لم يكُن في جدتي شيءٌ يخيفني، سوى فكرة أنها ستموت قريبًا.

غير أنَّ كلَّ مَن في المنزل كانوا يُشاركوني هذا الخوف.

كانت بيتي تخيفني أنا، وقررتُ أن أتولى أنا مسئولية ترويضها. إن استطعتُ. وحدي.

لكني في هذه اللحظة كنت سعيدةً لأنها رحلت، وواصلتُ السير ببطء شديد لدرجة أنني لم أعُد أرى بيتي إطلاقًا بحلول الوقت الذي خرجتُ فيه من بين الأشجار، وواصلتُ السير إلى الحقل الذي كان خاويًا تمامًا إلَّا من آثار قدمَيها، التي كانت عميقة وحادة، وتوحي بأنها كانَت منفعلةً للغاية.

الفصل الثالث

كان الكثيرون يعبُرون مزرعتنا للانتقال من مُنخفَض «حفرة الذئاب» إلى المنازل الواقعة على الجانب الآخَر من حقولنا، بدلًا من أن يمشوا كل الطريق الممتد من المدرسة حول التل. لم أمانع ذلك قط؛ لأننا كنا نعرف جميع مَن يعيشون في نطاق أميالٍ من حولنا؛ لكني أحيانًا ما كنت أنتفض مفزوعةً من المتشردين الذين كانوا يمرُّون بالمزرعة من وقتٍ إلى آخَر.

فبعد «الكساد الكبير» بفترةٍ غير طويلة، كان يوجد أناسٌ اعتادوا التجوُّل هائمين على وجوههم، ولم يعرفوا سبيلًا إلى التوقف؛ إذ انفصلوا عن جذورهم وأهاليهم، وكانوا يظلون هائمين هكذا طويلًا جدًّا دون التوقُّف في أي مكان. وكان يوجد أيضًا مَن عادوا إلى ديارهم من الحرب العظمى الأولى مصدومين جدًّا وصامتين جدًّا، لدرجة أنهم بدوا لا يعرفون هُويتهم ولا موطنهم الذي ينتمون إليه.

كان أحدُهم قد مكثَ في البلدة، وكان رجلًا يُدعَى توبي.

لم يكُن كالآخَرين.

فهو لم يكُن يطلب طعامًا ولا مالًا. لم يكُن يطلب أيَّ شيءٍ إطلاقًا. ولكن بدلًا من أن يتجوَّل هائمًا عبر حقولنا في طريقه إلى مكانٍ ما، كان يطوف التلال دون توقُّف، وأعترفُ بأنني كنتُ قَلِقةً منه في البداية.

لكن ذلك كان قبل أن أعرفه.

بحثتُ عنه وأنا سائرة إلى المنزل في ذلك اليوم، إذ ألقيتُ نظرةً فاحصةً على الحقل الملتف حول التل المنخفض الطويل كشالٍ محبَّبٍ صغير. فكثيرًا ما كنت أراه على مسافةٍ بعيدةٍ في طريق ذهابي إلى المدرسة وعودتي منها أيضًا. كان يحبُّ الوقوف عند حافة الأحراج، جامدًا كشجرة. أو على أعلى قمة التل، جليًّا على خلفية السماء.

لم نكُن نعرف من أين أتى توبي، ولم نكُن نعرف الكثير عنه، باستثناء أنه كان فردًا من جنود المشاة الذين حاربوا الألمان في فرنسا. قبل ذلك بعقود. هذا ما سمعناه عنه عرضًا في الكنيسة، وفي السوق، واعتبرناه صحيحًا.

كانت يده اليسرى مليئةً بندوب رهيبة، وبدا أنها تؤكِّد هذه القصة. ومع ذلك، ما من أحدٍ كان يعلم يقينًا من أين أتى، باستثناء أنه ربما قد توقَّف في هذه التلال لأنها تُذكِّره بدياره. أو ربما لأنها تُشبه مكانًا لطالما أراد أن يعيش فيه فحسب.

كان الكثيرون يتوجَّسون خيفةً من توبي، وهو يمشي عبر الأحراج والوديان بمعطفه الأسود الطويل المصنوع من القماش المشمَّع، وحذائه الأسود الطويل الرقبة، وشَعره الأسود الطويل ولحيته السوداء الطويلة، وبنادقه الثلاث الطوال المُعلَّقة على ظهره دائمًا. كانوا لا يفهمون هذا الرجل الذي يخيم عليه الصمت في معظم الأحيان والذي يبدو أنه لا يتوقف أبدًا عن المشي، من الصباح إلى الليل، حاني الرأس متمهِّل الخطوات يسير بالوتيرة نفسها التي سار بها في اليوم السابق، لا أسرع منها ولا أبطأ.

كنت في بعض الأحيان أتصوَّره جاثمًا في خندق، بينما يركض من فوقِه ألفُ ألماني بحرابهم المثبتة في بنادقهم، والأشواك المُدبَّبة فوق خوذاتهم، والتعطش إلى الدماء في عيونهم. وصحيحٌ أنَّ عمري آنذاك لم يكُن يتجاوَز أحد عشر عامًا، لكني كنت أعرف عن الخوف ما يكفي لأن أستنتج أنَّ سيطرة الخوف التام على المرء، بجسده وروحه، كافيةٌ على الأرجح لتجعله غريبًا إلى الأبد فيما بعد. وهذا هو ما كان عليه توبي. غريب.

قالت لي جدتي يومًا ما بعد مدةٍ قصيرةٍ من قدوم توبي إلى تلالنا لأول مرَّة: «من الصعب أن نعرف، ولكن أحيانًا يكون شيءٌ أشد من الخوف أو صدمة القصف هو ما يجعل الرجال في حالٍ كحاله. لا بد أنه لم يكُن أكبر كثيرًا من مجرد صبيٍّ حين خاض غمار تلك الحرب البشعة. لكنَّ المؤكَّد أنه رأى من الأشياء وفعل منها ما قد يفقِد الرجال الأقوياء وعيهم، ويطرحهم أرضًا من شدة هولها.»

كنا قد سمعنا أنَّ توبي يمكث دون وجه حقٍّ في كوخٍ قديمٍ لتدخين اللحم في مُنخفَض «كوب هولو» على مسافةٍ أسفل مسكن آل جلينجاري، بالقرب من الحقل الذي نزرع فيه البطاطس والذرة. لم يعُد أحدٌ يملك ذلك الكوخ، منذ أن مات سيلاس كوب واحترق بيته القديم بسبب صاعقة برق. كان الكوخ منصوبًا بعيدًا عن أساسات البيت المحترقة، وكان شبه مختبئ وسط الأشجار والشجيرات التي نَمَت من حوله. كان مكانًا صغيرًا دافئًا مُشيَّدًا من الحجارة والخشب وله سقف معدني. وقد مررت به يومًا ما عندما اختفت إحدى أبقارنا، ورحنا كلنا نبحث عبر الأحراج لإعادتها إلى مزرعتنا.

وصحيحٌ أنني كنتُ أكثر حكمةً من أن أدخل الأكواخ القديمة الواقعة خارج حدود مزرعتنا، التي كان بعضها مبنيًّا حول مضخات آبار النفط، وبعضها مخصصًا لتجفيف اللحوم، والبعض الآخَر للدجاج، وكلها بؤر غالبًا ما تجتذب الثعابين. لكني كنت قد استكشفت الكوخ القديم قبل أن يأخذه توبي لنفسه. وباستثناء رائحة اللحم والدخان التي كانت ما تزال قوية بداخله، كان يبدو مكانًا لطيفًا بما يكفي لرجلٍ مثل توبي ليعيش فيه. وكانت البئر القديمة الواقعة بالقرب من مسكن كوب — مع أنها صارت الآن مجرد حفرة صغيرة في الأرض، كبيتِ كوب نفسه — ما تزال تُنتج ماءً صالحًا للشرب عند تجمُّد النهير القريب.

كنت أستطيع تخيُّل توبي دافئًا داخل الكوخ، كأنه جذوة من النار حيث كانت النيران تُوقَد باستمرار فيما مضى. ربما كان يستخدم خطَّافات اللحم المتدلية من العوارض الخشبية في السقف لتعليق معطفِه عندما لا يكون مرتديًا إياه، وبنادِقه عندما لا يكون معلِّقًا إياها على ظهره. وربما كان يُعلِّق قبعته السوداء على أحدها. وكاميرته على آخر.

كُنا كلنا قد فوجئنا عندما طلب توبي استعارة كاميرتنا، التي أصبحت الآن ملكه، تقريبًا. كان من المذهل أنه تكلَّم أصلًا، وأنه اقترب من أيٍّ منا بما يكفي لأن يتقدَّم بمثل هذا الطلب، وأنه بدا فجأةً متحمسًا تجاه شيء ما، وخصوصًا شيئًا مثل الصور الفوتوغرافية. لكنَّه فعل ذلك حقًّا، وكان الموقف كلُّه حادثًا عَرَضيًّا.

عندما كنتُ في السابعة وهنري في الخامسة وجيمس في الثالثة، اصطحبَتنا أمُّنا إلى متجر «هورنز» الكبير المتعدد الأقسام في مدينة بيتسبرج؛ لالتقاط صورة فوتوغرافية لنا. كانت أمي لديها صورة لنفسها التُقِطَت لها مع أسرتها كلها قُبيل وفاة أمها. وكانت تلك الصورة موضوعةً وسط صفحات إنجيل الأسرة، وبُنِّية كغبار الصيف. وكان أبي لديه صور عديدة لأسلافه، الذين كانوا حفنةً غاضبةً من اسكتلنديين ذوي حواجب كثَّة وأفواه ذات أسنان متناثرة غير منتظمة وعيون شبيهة بعيون الماعز. ومع ذلك، لم تكن توجد في منزلنا أيُّ صورة بسيطة لنا ونحن مبتسمون متشابكو الأذرُع. وكانت أمي تريد صورةً كهذه لأبنائها؛ ومن ثمَّ اصطحبتنا نحن الثلاثة إلى متجر «هورنز» وجعلتنا نقف معًا لالتقاط صورة لنا. قال لها المصوِّر إنَّ كل الصور المُلتقطة في ذلك الشهر ستدخل مسابقةً على الفوز بكاميرا من طراز «كوداك»، وكميةٍ تكفي العمر كله من أفلام التصوير الفوتوغرافي مع حق تحميض الصور مجانًا طوال العمر.

قالت أمي مُبتسمةً وهي تعطي المصوِّر ثمن الصورة: «ومتى سأجد متسعًا من الوقت لتصوير أي شيء؟»

وبعدها بثلاثة أسابيع، عندما وصل طردٌ بريدي إلى أمي، ذهلنا حين وجدنا أنه يحوي صورتنا، التي بدونا جميعنا فيها أحلى ممَّا كنا عليه في الحقيقة، وخَبر فوزنا بالكاميرا. كانت الكاميرا أيضًا مُرفَقةً بالطرد، إضافةً إلى العشرات من بكرات أفلام التصوير لتحفيزنا على البدء، وبعض الأظرف الخاصة لإرسال تلك الأفلام من أجل تحميضها.

كانت هذه الهدية مذهلةً جدًّا لدرجة أننا شعرنا بأننا تلقَّينا مركبةً فضائيةً صغيرة، أو آلة زمن.

سرعان ما انتشر الخبر، وسرعان ما أصبح جيراننا يزوروننا بعد ظُهر أيام الأحد، وهم ما يزالون يرتدون ثياب الكنسية، ويتحايلون لكي نلتقط صورًا لهم. كانت أمي أشدَّ انشغالًا من أن تستطيع إسداء هذا الصنيع إليهم. وصحيحٌ أنَّ العمة ليلي كانت مستعدَّةً لالتقاط الصور، لكنها كانت متسلطةً جدًّا وكانت تنتقد مَن تصوِّرهم انتقادًا شديدًا، لدرجة أنهم دائمًا ما كانوا يظهرون في الصور كأنهم مصابون بالأنفلونزا. وعندما كانوا يرَوْن النتائج، كانوا يطلبون محاولةً أخرى مع مصوِّر آخَر، وكان هذا يُهدِر أفلام التصوير والوقت أيضًا. جرَّبتُ نفسي في التصوير، لكني غالبًا ما كنتُ أقتطع رءوسهم من إطار الصور.

ولهذا توقَّفَ الناس عن المجيء بعد فترة، وظلَّ الغبار يتراكم على الكاميرا حتى قررتُ بعد ظهيرة يومٍ ما — حين كانت أشجار الخوخ يانعةً في فترة إزهارها القصيرة، وكانت أشعة الشمس من خلفها تجعل البستان كدخانٍ وردي متصاعد من مستنقع — أن أخرج بالكاميرا وأحاول تسجيل المشهد.

وقفتُ عند أعلى البستان، والتقطتُ صورة تلو الأخرى، وكنت أخفض الكاميرا بين التقاط الصورة والأخرى لأتنهَّد، وأستنشق الهواء الوردي البارد.

وعند لحظةٍ ما، لاحظتُ توبي واقفًا جانبًا بالقرب من أبعد الأشجار إلى الخارج يراقبني.

لم أكُن قد تحدَّثتُ إليه قبل ذلك قَط، ودائمًا ما كنت أجد نفسي قبل ذلك اليوم على بُعد حقلٍ كامل عنه على الأقل. ولم أعهده قَط يراقب شخصًا كما كان يراقبني في هذه اللحظة. لم أعهده واقفًا بلا حَراكٍ وقتًا طويلًا جدًّا في مكان واحد.

سلَّطتُ الكاميرا نحوه ببطءٍ، متوقعةً أن يتجنبها بخجلٍ كأنها بندقية، لكنه لم يفعل. التقطتُ صورته، مع أنه كان يبدو خلال العدسة — من هذه المسافة البعيدة — لطخةً من الظلام تعتمر قبعة.

وعندما بدأ يمشي نحوي، انتظرت. كنا في وضح النهار، وكنت واقفةً في مزرعتي. ومن ثمَّ لم يكُن هناك ما يدعو إلى القلق. هذا ما قلتُه لنفسي. لكن عمري آنذاك كان تسع سنواتٍ فقط، أي أصغر من أن أتحلَّى بجرأةٍ شديدة. كان توبي رجلًا طويلًا لا يبتسم أبدًا. ونادرًا ما كان يتحدث. وكانت لديه تلك الندوب البشعة على يده. وتلك البنادق.

كنت أسمع شخصًا ما يطرق شيئًا بالمطرقة من بعيد، والأرجح أنه كان أبي يُصلح الألواح الواقية لجدران الحظيرة. جعلني هذا الصوت أبقى مكاني بينما كان توبي يمشي نحوي. وعندما صار على بُعد حوالَي عشر أقدام، شعرتُ برائحة الدخان واللحم تفوح منه، ممزوجة برائحته. لم تكُن كريهةً تمامًا، لكنها كانت مغلَّفةً برائحة الكيروسين النتنة المنبعثة من مشكاته. الحق أنَّ الكلاب كانت تهزُّ رءوسها وتعطس كلما دنت منه.

نظر إلى الكاميرا ثم إليَّ. وقال: «هل هي ملكك؟»

فكَّرتُ في الأمر. وقلت: «ملك أمي. وملكي.» ففي النهاية، كانت صورتي هي مَن فازت بالكاميرا. كانت ملكي أنا وجيمس وهنري.

رفعَ توبي حزام بنادقه أعلى قليلًا على كتفه. كنتُ قد حملتُ بندقيةً من قبل. ولذا كنت متيقنةً من أنَّ ثلاث بنادق حِملٌ ثقيلٌ جدًّا. كان معطفه الأسود طويلًا وجامدًا، وله ياقة عالية تحيط برقبته وتجعله يبدو أضخم من حجمه الحقيقي. كان كبعض الحيوانات التي تنفش فروها حول رقبتها عند التقاتُل مع الحيوانات الأخرى.

«هل تلتقطين صورًا للزهور؟»

أومأتُ بالإيجاب. «وصورة لك. صورة واحدة فقط لك. هل تريدها عند صدورها؟»

هزَّ توبي رأسه بالنفي. وقال: «أعرفُ شكلي.»

تساءلتُ في نفسي عن عدد السنين التي مرَّت منذ أن رأى نفسه في مرآة.

كان يحدِّق إلى الكاميرا. خلعتُ حزامها من حول رقبتي. ومددتُها نحوه قائلة: «هل تريد أن تجرِّب؟»

رمقني توبي بنظرة خاطفة. ثم نظر بعيدًا. ثم إليَّ مجددًا. ثم بعيدًا. إلى الزهور، ثم التفت إلى الوراء نحو الحقول التي كانت محروثةً للتو من أجل زراعتها. ونظر إلى صفٍّ من أشجار التَّنُّوب الزرقاء التي كانت أعلى من أي شيءٍ آخَر لمسافة ميلٍ كامل. سار مقتربًا مني، وأخذ الكاميرا، ثم تراجَع.

«سأعيدُها غدًا، إنْ كان هذا مقبولًا.»

شعرتُ بقليلٍ من الفزع. فقد كان تبدُّل سلوكه من عدم قول أي شيء لي إطلاقًا، إلى الجرأة إلى هذا الحد مفاجئًا. لكني لم أكُن أعرف كيف يمكنني أن أرفض، خصوصًا وأنه

شخصٌ كبير، ولم أظن أيضًا أنَّ أمي ستمانع. فهي غالبًا ما كانت تخبز رغيفًا إضافيًّا لتوبي أو تُعِد له برطمانًا إضافيًّا من المربى. لم تكُن تخاف منه. ولم أظن أنها ستمانع إذا استخدم الكاميرا يومًا واحدًا.

وكانت تلك بداية تغيير في حياتنا. فلو لم نفُز بكاميرا «كوداك»، لو كانت أزهار الخوخ أقل جمالًا في ذلك العام، لو كان توبي في مكان آخَر في أثناء مسيره في ذلك اليوم، لو أنني قد هربت من نطاق رؤيته، لو أنني رفضت طلبه، لَمَا تعلَّم توبي التقاط الصور التي التقطَها، ولَمَا صارت الكاميرا له، في النهاية. ولَمَا آلت الأمور إلى أن أعرفه كما عرفته، وأن يعرفني هو.

كنا سنتجنَّب بعض العناء لو أننا لم نلتقِ في ذلك اليوم. لكن من المهم أن نتأمل النهاية التي أفضى إليها كلُّ هذا، وليس ما حدث في أثناء تلك الفترة فحسب.

الفصل الرابع

في صباح اليوم التالي، رمقَتني أمي بنظرةٍ غريبةٍ وأنا واقفةٌ عند الباب الخلفي، حيث كنت أتجهَّز قبل الذهاب إلى المدرسة. وقالت: «هل توجد مشكلةٌ يا أنابِل؟» كنتُ على وَشْك إخبارها بشأن بيتي. كنتُ سأستريح تمامًا بإلقاء المسألة كلِّها على عاتقها.

ولكن بالرغم من عدم تَبقِّي مهام كثيرة لديها آنذاك، باستثناء إحضار بعض التفاح والبطاطس والبنجر، وبضعِ ثمارٍ من البنجر الشتوي، ورغم أنها من بين كل نساء الدنيا كانت قادرةً وقوية، فإني قررتُ أن أجنِّبها هذه المعركة بالذات. لقد فكَّرتُ مليًّا في الأمر: إن قلت لها، فستذهب إلى أصدقائها، آل جلينجاري، وتُخبرهم بأنَّ حفيدتهم مشاغبة، ومن المؤكَّد أنهم كانوا يعرفون ذلك، لكنهم لن يريدوا سماعه من أحد جيرانهم.

ورغم أنَّ أمي كانت تستطيع إصلاح كل شيء فاسد في حياتنا تقريبًا، فلم يكُن بإمكانها أن تضمن لي أنَّ بِيتي لن تعاود مضايقتي مجددًا وهي أشد غضبًا من ذي قبل إذا وشيتُ بها — أو أنها لن تلاحق شقيقيَّ، وهذا أسوأ.

كنتُ قد تعلَّمتُ معنى «حرونة الطبع». لن يُغيِّر التوبيخُ أيَّ شيء، وبيتي إلى تلك اللحظة لم تفعل شيئًا يستدعي عقابًا أشد من التوبيخ.

ولهذا قُلت: «لا شيءَ يا أمي»، وخرجتُ من الباب قاصدةً المدرسة، وحاملة البِنس الذي أخذتُه من حصَّالتي كسندان في جيبي.

كان هنري وجيمس ينتظراني في الفناء، ولم يكُن لهذا أيُّ معنًى إطلاقًا لأنهما رحلا راكضَين حالما رأياني آتية. وقبل أن نبتعد عن المنزل حتى، كانا قد ركضا شوطًا طويلًا نحو آخِر الزقاق، وهما يتقاذفان كتلًا من التراب، وكانا يُثيران وراءهما ذيلًا من الغبار كما لو كانا جِنيَّين صغيرَين تحرَّرا من زجاجة.

سرتُ وحدي نحو آخِر الزقاق وعَبْر الحقل المحروث عند أعلى التل، حيث كل المحاصيل هنا مدفونة أسفل التربة، بينما رحتُ أبحث عن رءوس الأسهم على قمم الأخاديد.

كنت أتفاجأ بين الحين والآخَر بغزالةٍ من قمة التل هذه. كانت الحقول تحتي تبدو خاوية تمامًا في لحظة. وفي اللحظة التالية، أجد غزالة تكاد تكون غير ظاهرة وسط خلفية التراب المحروث.

وهذا أيضًا ما حدث مع توبي في صباح ذلك اليوم. ففي لحظة، كنت أرى قمة التل على يميني خاوية. وفي اللحظة التالية، كنت أراه هناك، يقف على البُعد ساكنًا مُحدِّقًا نحوي.

جفلتُ عند رؤيته.

لوَّحتُ له بتحية الصباح.

لم أتضايق عندما لم يرد التحية. فلم يكُن ذلك يعني شيئًا إطلاقًا عدا أنه كان مختلفًا عن الآخَرين. لم يكُن توبي ودودًا، لكنه كان يعاملني معاملةً طيبة، بينما لم يكُن مضطرًّا إلى ذلك.

ذات مرَّة على سبيل المثال، كنت أمشي على حافة حقل مزروع حديثًا ووَطِئتُ بقدمي بالخطأ إحدى حفر جرذان الأرض، فالتوى كاحلي التواءً شديدًا جدًّا لدرجة أنني لم أستطع المشي عليه. كنت وحدي آنذاك. ولم يكُن في الأنحاء أحدٌ سواه. ناديتُ بصوتٍ عالٍ بضع مرات، بينما أحاول المشي عرجاء. وقد أتى إليَّ توبي.

كنت أصغر سنًّا عندئذٍ ولم يكُن وزني ثقيلًا جدًّا، لكن لم يكُن من السهل حملي كالطفلة الرضيعة إلى أعلى التل وبطول الزقاق وصولًا إلى أمي.

ومع قُربي الشديد منه على هذا النحو، اشتممت رائحته الشخصية وميَّزتُها، ولست أعني بذلك رائحة الكوخ الذي كان يسكنه. كانت رائحته شبيهة جدًّا بالأحراج عند ذوبان الجليد الذي يكسوها، أو بكلبٍ كان طليقًا في العراء في أثناء المطر. كانت قوية لكنها لم تكُن قذرة في الحقيقة.

قُلت عدة أشياء طَوال الطريق؛ مثل: «شكرًا لك.» «أنا آسفة.» «لُطف منك أن تساعدني.» وعندما أوصلني إلى مدخل بيتنا، قلت: «هلا تفضَّلت بالدخول لشرب بعض الماء؟»

لم يردَّ على أيٍّ من كلماتي، لكني لم أشعر بأنَّ في صمته قسوة.

لم يدخل لشرب الماء. تركني على العتبة وغادر بخُطًى مسرعة، عائدًا أدراجه بطول الزقاق، وقد رحل قبل أن تأتي أمي إلى الباب لتجد أنني كنتُ الطارقة.

وفي مرَّة أخرى، عندما أصيب أبي بجرح في ظهره، ولازمَ فراشه بضعة أيام في منتصف موسم حصاد اليقطين، وصلنا أنا وأمي وجدي وشقيقاي الصغيران إلى رقعة اليقطين في الحقل، لنجد أنَّ العربة التي تركناها فارغةً في الليلة الماضية صارت مُحمَّلةً باليقطين، وجاهزةً للذهاب إلى السوق.

لم ينسب أحدٌ لنفسه الفضلَ في تلك البادرة الطيبة، وكنتُ أعرف أنَّ توبي هو مَن قام بذلك.

تصوَّرتُه وهو يعمل في الظلام على ضوء القمر والرؤية الليلية، عاكفًا على جرِّ ثمار اليقطين إلى العربة، مع أنَّ بعضها كان كبيرًا جدًّا لدرجة أنه لم يكن لرجل واحد أن يستطيع حمله. لا بد أن تلك المهمة قد استغرقت منه الليل كله.

في ذلك اليوم نفسه، خبزت له أمي فطيرة يقطين وأعطتني إياها لآخذها إلى أعلى الزقاق، على أمل أن أراه قريبًا من هناك. كانت الفطيرة ما تزال دافئة في يدي. لكني انتظرتُ طويلًا حتى صارت باردةً، قبل أن أتركها في صندوقٍ حيث كنا نضع الطعام والملابس المستعملة التي لم نعُد نحتاج إليها، كي يجدَها توبي عندما لا يكون موجودًا في الجوار.

وبعد ذلك بيومَيْن، وجدتُ أنه تركَ طبق الفطيرة نظيفًا في الصندوق مع باقة من الزهور النجمية البرية، وبعض الزهور الأخرى مربوطة بورقةٍ من حشيشة القمح الزاحفة.

اتجهتُ إلى أسفل المنحدر وسلكتُ الممشى إلى داخل الأحراج، دونما انتباه كبير لما حولي. فمن المؤكَّد أنَّ صوت ركض الولدَين قد أخافَ كلَّ الدببة التي كانت قريبة بما يكفي لسماعه، وجعَلها تبتعد، فيما كانت الأفاعي قابعة في مكانٍ ما مشمس ودافئ، ولم أكُن أتوقع أن أرى بيتي إلا بعد انتهاء اليوم الدراسي. لكنها ظهرت أمامي فجأة، واقفةً في الممشى أمامي، كالمرَّة السابقة بالضبط.

كانت العصا التي تحملها في يدها هذه المرة أصغر من الأولى، وهذا أقلقني. فقد كان غرضها بالأمس أن تتركَ انطباعًا معينًا. أمَّا مقاس العصا التي اختارتها اليوم، فهو أنسب لأرجحتها. وكانت خضراء أيضًا، ممَّا يعني أنَّ ضربتها ستكون شديدة. وأعترفُ بأنني كنت خائفة.

قلتُ وأنا أهمُّ بمواصلة السير مباشرةً وتخطِّيها: «مرحبًا بيتي.»

لكنها وقفت أمامي ومَدَّت يدها لتعترضَ طريقي. ثم قالت: «سنمشي إلى المدرسة معًا. أعطيني ما أحضرتِه أولًا.»

شعرتُ برغبةٍ في تصحيح لَكْنتها الرديئة، لكني لم أفعل. وشعرت برغبةٍ في أن أحاول دَفْعها بعيدًا ومواصلة طريقي عنوة، لكني كنت متيقنةً تمامًا من أنَّ ذلك لن يُجديَ نفعًا.

قلتُ لها: «لسنا أغنياء»، وكأنني أردتُ تصحيح ذلك على الأقل. وأضفتُ بلَكْنةٍ عاميةٍ سوقية: «ليس عندي أيُّ شيءٍ لأعطيَه لك.» فاجأتني لهجتي العامية وآلمتني وأنا أتفوَّه بها؛ فقد افترض جزءٌ من عقلي أنَّ إبداء قليلٍ من الانحطاط قد يجعلني أقوى بالفعل، لكني رأيتُ في اللحظة التالية أنه لم يجعلني كذلك.

فقبل أن يتسنَّى لي وقتٌ للتفكير في التحرك، أرجحَتْ بيتي العصا أرجحةً بسيطةً وضربتني بها. اختارَت فخذي، ربما لأنَّ الكدمة التي ستحدث هناك من أثر الضربة لن تظهر. حاولتُ جاهدةً ألَّا أتركها ترى مدى إيلام هذه الضربة.

قالت: «أعطيني ما أحضرتِه.»

لم أكُن أرغب في أن أعطيَها أيَّ شيءٍ على الإطلاق. حتى البِنس الذي كنت أحمله في جيبي.

قلتُ وأنا أمدُّ البِنس إليها في راحة يدي المنقبضة، بالطريقة التي تعلَّمت إطعام الكلاب بها: «لن أعطيَكِ إلا هذا. لا تطلبي مني أيَّ شيءٍ آخَر. ليس عندي أيُّ شيء آخَر.»

نظرَتْ بيتي إلى البِنس، والتقطَتْه بأطراف أصابعها، وحدَّقت إلى وجهي. ثم قالت: «بِنس؟»

قلتُ: «يُمكن أن تشتريَ به قطعتَين من الحلوى.»

فقالت: «لا أريد قطعتَين من الحلوى.» رمَتْه وسط الشجيرات المتشابكة. وقالت: «فَلْتُحضري إليَّ غدًا شيئًا أفضل من بِنس.»

«ليس لديَّ أيُّ شيء آخَر لأعطيكِ إياه يا بيتي. وأرى أنَّكِ تتصرفين معي بفظاظة.» ثم أضفتُ مُدركةً تمامًا أنني أبدو غير صادقةٍ إطلاقًا وأنا أقول ذلك: «يُمكننا أن نصبح صديقتَين. إذا توقَّفتِ عن التصرُّف بهذه الفظاظة الشديدة.»

رَدَّت بيتي بأرجحة العصا مجددًا. ثم ضربَتني ضربةً أشدَّ هذه المرة في نفس الموضع الذي كان يؤلمني بالفعل، ووجدتُ نفسي جاثيةً على ركبتَي في الحال. وعندما نظرتُ إلى الأعلى، كانت بيتي تحدِّق إليَّ، بوجهٍ جامد، وفمها متدلٍّ ومفتوح قليلًا.

ذكَّرني شكلها بالكلاب الضالة التي كانت تتجوَّل في المزرعة بين الحين والآخَر، ولا يقبلها قطيع كلابنا.

رأيتُها تُحْكِم أصابعها على العصا وأدركتُ أنها ستضربني مجددًا، وانهمرَتْ دموعي.

أرخَت قبضتها على العصا. وزالت من عينَيها النظرةُ التي كانت فيهما. وقالت: «لستِ سوى طفلةٍ صغيرةٍ غبية. تذكَّري ما قلتُه من قبل. إذا أخبرتِ أيَّ أحد، فسيدفع ذاك الصبي الصغير الثمن. والآن اذهبي.»

لملمتُ نفسي ونهضت، ثم تركتُ التل يأخذني إلى الأسفل نحو المدرسة.

وعند منحنًى في الممشى، نظرتُ إلى الوراء. رأيتُ بيتي منحنيةً إلى الأسفل في المكان الذي رمت فيه بِنسي، تُبعد الشجيرات بيدَيها العاريتَين بحثًا عنه.

عندما دخلتُ إلى غرفة عمتي ليلي في مساء ذلك اليوم، كانت تمشِّط شعرها. كانت تفعل ذلك كثيرًا. ووضعت أحمر الشفاه ثم مسحته.

قالت لي وهي تنظر إليَّ في مرآتها: «ماذا تريدين يا أنابِل؟»

قلتُ: «حسنًا.» ووضعتُ يديَّ وراء ظهري. أضفتُ: «أتساءل عمَّا إن كان يُمكنني استعارة إبزيم سترتك المزيَّن على شكل ضفدعة مجددًا»، رغم أنني كنت أعرف أنه ما يزال موجودًا في غرفتي. «ذاك الإبزيم الذي يحمل أحجارًا متلألئة.» كان أحد الأحجار مفقودًا، ومن المرجَّح أنَّ هذا هو السبب الذي جعل عمتي ليلي تُعيرني إياه أصلًا. كان قديمًا ومنحنيًا قليلًا أيضًا. لم تكُن له أيُّ قيمة مالية.

«الإبزيم المزيَّن على شكل ضفدعة؟» قلَّبت بطرفِ إصبعها في محتويات طبق الأزرار والخيوط والمقتنيات الصغيرة الذي كانت تحتفظ به على خزانتها. وأضافت: «لكنه عندكِ بالفعل يا أنابِل. لم أرَه منذ أن أعرتُكِ إياه، أم إنني رأيتُه؟»

مَنَحني هذا السؤال الأخير الذي ألحقَتْه بنهاية كلامها بصيصًا من الأمل.

قلتُ لها: «ألم تريه؟» ولم تكُن تلك بكذبة. فكيف يُمكن أن يكون السؤال كذبة؟

«كلا. لا أعتقد أنني رأيتُه. ولا أتذكَّر أنكِ أعدتِه إليَّ.» استدارَت عمتي ليلي في كرسيها الذي كان بلا ظهرٍ ولا ذراعَيْن، ونظرت إليَّ عبر الغرفة. وأضافت: «لكن إذا لم يكُن عندي، فلن أستطيع إعارتكِ إياه مجددًا بالطبع، أليس كذلك؟ اذهبي وانظري إنْ كان ما يزال في مكانٍ ما في غرفتك.» ثم استدارت للنظر في المرآة مجددًا، حاملة مِلقطًا في يدَيها.

وبينما استدرتُ لأغادر الغرفة، قالت لي: «كلُّ ستراتك لها أزرار يا أنابِل. لا داعي لأن تشغلي بالك بإبزيمٍ على شكل ضفدعة.»

هززتُ كتفي. فكلُّ ستراتها أيضًا كانت بأزرار. وقلت: «إنه جميلٌ فحسب.»

«جميل؟ الجمال أقل الأشياء أهميةً في عين الرب يا أنابِل.»

كان العشاء الذي تناولناه في تلك الليلة طيِّبًا؛ لحمًا مقليًّا في دهن لحم الخنزير المقدَّد، وبطاطس مطهوة في الفرن وسلاطة كرنب أعدَّتْها أمي بالقشدة وشرائح البصل الحلو.

وبعد العشاء، عندما كنا نرتِّب المائدة ونُخْليها من الأطباق وبقايا الطعام، وضعَتْ أمي لفافتَي خبز وقطعة لحم وتفاحة في قطعة من المشمع، وربطت زواياها معًا لتُصبح كالصُّرة. وقالت لي: «خذي هذه إلى آخِر الزقاق. إذا لم تجدي توبي، فاتركيها في صندوقه. واحرصي على إغلاق الغطاء بإحكامٍ وإلَّا فستدخله الكلاب.»

أحيانًا ما كانت أمي تقول لتوبي إنه «شديد النحافة» أو إنه «شاحب بعض الشيء»، وكانت ترسلني إليه ببعض الطعام الفائض ليأكله. لم تكُن تجرؤ على إرسال شقيقيَّ؛ لأنهما كانا سيستغلان هذا المبرِّر ويتسكعان خارجًا في الظلام، حتى يفوت وقت أداء فروضهما المنزلية، ولا يتبقَّى سوى وقت الاستحمام فقط.

قالت وهي تعطيني الصُّرة: «لحم السنجاب لا يكفي رجلًا بالغًا.»

فقلتُ: «يوجد كمٌّ وفير من فضلات الخضراوات والفاكهة غير الصالحة للبيع في البستان، والبطاطس والبنجر على مسافة غير بعيدة من كوخه. لا أعرف سبب نحافته الشديدة.»

اكتفت والدتي بالنظر إليَّ. قالت: «هل تظنين أنه سيأخذ أيَّ شيء دون إذننا؟» هزَّت رأسها. وأضافت: «حسنًا، لن يفعل ذلك.»

فكرتُ في إجابتها. وقلتُ: «فلماذا لا نمنحه الإذن؟»

قالت وهي تستدير مجددًا نحو الحوض: «لا تشغلي بالكِ بذلك أبدًا. فقط اذهبي وعودي مجددًا قبل أن يحل الظلام الدامس فلا تستطيعين رؤية موطئ قدمَيكِ.»

ورغم أنَّ إعراض أمي بوجهها عني وإدارة ظهرها لي عادةً ما كان يعني أنها قالت كلَّ ما تريد قوله، سألتُها مجددًا: «ولماذا لا يطلبه وحسب؟»

قالت دون الالتفات نحوي: «كما قلتُ لكِ من قبل. والآن هيا اذهبي قبل أن يتلاشى الضوءُ كله.»

الفصل الخامس

ظهر توبي تدريجيًّا وأنا أمشي نحو أعلى الزقاق المُنحدِر؛ فأولًا ظهر رأسه المُغطى بالقبعة، ثم بقية أجزاء جسده جزءًا تلو الآخَر، نزولًا إلى حذائه الطويل الرقبة، عند وصولي إلى الأرض المستوية عند قمة الزقاق. بدا شديد الشَّبَه بفزَّاعة لولا البنادق المعلَّقة على ظَهره، وذراعَاه المتدليتَان عند جانبَيه.

ولو افترضتُ أنه قد رآني آتية آنذاك، فإنه لم يُبدِ أيَّ علامة على ذلك. لم يكُن توبي يتحرك قَط لملاقاة شخص قادِم نحوه.

قلتُ: «مرحبًا توبي. لقد أرسلَتْني أمي بقليل من الطعام للعَشاء.» وأضفتُ: «كان لدينا أكثر مما يكفي حاجتنا نحن فقط»؛ لم أكُن أعرف أنني سأقول ذلك حتى قلته بالفعل.

كان وجه توبي في ظلِّ حافة قبَّعته هادئًا ووديعًا، كوجه كلب عجوز.

لاحظتُ الكاميرا متدلية من رقبته. فسألته: «هل لديك أي فيلم تصوير تريد إرساله؟»

كنا نرسل أفلام التصوير بالبريد نيابةً عنه عندما يكون لديه أحدها؛ إذ كنا نسلِّمه إلى عمتي ليلي، بما أنها مديرة مكتب البريد، وكانت تذهب إلى المكتب جميع أيام الأسبوع، ما عدا الأحد، وعندما تعود الصور مطبوعةً، فعادة ما كنتُ أحملها إلى أن نتلاقى أنا وتوبي مصادفةً. لم نفتح أيَّ طرد مُرسَل إليه من قبلُ قَط، مع أنني أحيانًا كنتُ أشعر برغبة في ذلك. وعندما كان توبي يريد أن نرى ما صوَّره، كان يعرضه علينا من تلقاء نفسه.

في إحدى المرات، أراني دُفعة من الصور بها صقر أحمر الذيل يحمل في منقاره أرنبًا، وركام رعدي لامع في ضوء المساء، وغزالة غافية في رُقعة من نبات البدفيل. لم أعهد من قبلُ أيَّ شخصٍ هادئ بما يكفي لأن يقترب من غزالة نائمة دون إيقاظها. ولم أعهد أي

رجل جائع يصوِّب كاميرا نحو غزالة ليصوِّرها، بدلًا من أن يصوِّب بندقيةً يصطادها بها ليأكلها.

أخرجَ من جيبه بَكَرة صغيرة وسلَّمَها لي. وأعطيتُه أنا صرَّة الطعام.

سألتُه: «هل ما تزال لديك كمية من أفلام التصوير؟»

أومأ بالإيجاب. فكلما كانت الصور تعود إلينا مطبوعة، كان يوجد معها لفافتان جديدتان من أفلام التصوير في الطرد. فكوداك تفي بوعدها.

أزاحَ البنادق المعلَّقة على ظهره قليلًا. ولم يستدِر ليغادر فورًا كما كان يفعل دائمًا. فانتظرتُ.

مدَّ يده واضعًا إياها في جيبه. ثم قال وهو يُعطيني بنسًا: «هذا ملكِ.» كان دافئًا عندما أخذتُه.

تذكرتُ بيتي وهي تبحث وسط شجيرات العَشَقَة الواقعة بمحاذاة الدرب المؤدي إلى المدرسة. لا بد أنَّ توبي كان يراقب الموقف من بين الأشجار.

وضعتُ البِنس في جيبي.

انتظر توبي مزيدًا من الوقت، بطريقة تكاد توحي بأنه يترقَّب شيئًا ما. ما دام يعرف أنَّ ذلك البِنس ملكي، فقد رأى بيتي وهي تضربني. ربما قد سمعَ تهديداتها. لكنه لم يتدخل.

إذا كان ينتظر مني أن أكلِّمه عن الأمر، أو أن أطلب مساعدته، فأنا لم أستطع ذلك. لم أكُن متيقنةً بشأن ما أشعر به حيال ذلك كله.

أومأ توبي إيماءة طفيفة أخيرة، ثم استدار ومشى بعيدًا، فيما كانت بنادقه وحذاؤه الطويل تُصدر موسيقاها البسيطة. لم أفهم إطلاقًا كيف كان يستطيع إسكات صوتها. فأنا لم أستطع من قبل أن أفاجئ بقرة، ناهيك عن غزالة.

مكثتُ قليلًا وشاهدتُه وهو يشق طريقه عائدًا عبر الأرض المحروثة بين رقعة الفراولة والغابات، فيما كان يهبط ويعلو وهو يقطع أخاديد الأرض المحروثة بسيره، كقارب يعبر بحرًا صغيرًا.

وفي طريق عودتي على الزقاق، توقفتُ عندما أبصرتُ منزلي وسط الظلام المتزايد، مضاءً من الداخل، وتساءلتُ عمَّا إذا كان توبي قد توقَّف من قبل في هذا المكان على الإطلاق، ورأى ما رأيتُه.

خَطر، ببالي بينما كنت أتحسَّس البِنس في جيبي بإصبعي، أنَّه ربما قد فعل هذا.

وجدتُ والدي جالسًا على عتبة الباب الخلفي. دائمًا ما كان يبدو أنه يوجد هناك عند عودتي من توصيل العَشاء إلى توبي. سألني وهو يتبعني إلى داخل المنزل: «وكيف حال توبي الليلة؟»

قلتُ: «كما هو دومًا. صامت.»

فقال والدي: «يعجبني ذلك فيه. ولكن ينبغي أن تخبريني إذا أثار قلقكِ في أي وقتٍ على الإطلاق يا أنابل.»

أفزعني هذا. فقلت له: «كيف؟»

هزَّ والدي كتفَيه. وقال: «بأيِّ طريقةٍ مهما كانت.»

«تقصدُ إذا كان يبدو مريضًا أو جريحًا؟»

أجابَ بوضع يده على رأسي وتبسَّم لي ابتسامةً طفيفة.

وبعدها قال: «هيا اذهبي وأدِّي فروضَكِ المنزلية.»

لكني ذهبتُ أولًا للبحث عن عمتي ليلي؛ لكي تُرسِل فيلم التصوير الذي أعطاني توبي إياه، ولم يكُن أيٌّ منَّا يعلم أنَّ تلك البَكَرة الصغيرة تحوي مشكلةً أخرى تنتظر مَن يجدها.

بينما كنت أستعد للنوم في تلك الليلة، تفحَّصتُ فخذي المتضرِّرة والكدمة التي أحدثتها بها بيتي. بَدَت مثل ثمرة خيار صغيرة، وكان لونها أحمر لم يتحوَّل إلى الأسود بعد، وكانت تؤلمني عند لمسها.

وحينها قررتُ على الفور أنني لن أعطيها إبزيم عمتي ليلي. ارتأيتُ أنَّ حتى فتاة مثلها لا يُمكن أن تُلحِق بشقيقيَّ، أو بي، أيَّ أذًى أشدَّ من الإصابة بكدمةٍ على شكل خيارة. لم تكن مثل هذه الأشياء تحدث. ومعرفة أن توبي ربما يكون في مكانٍ قريبٍ أشعرَتني ببعض الطمأنينة. كنت متيقنةً من أنه لن يدعَ أي مكروهٍ شديدٍ يُصيبني أنا أو شقيقيَّ. إذا كان في مكانٍ قريبٍ آنذاك. إذا رأى مكروهًا يحدث.

وإذا أُصِبتُ بكدمة أخرى في مساومتي معها، فسأخبر أمي. وهي ستعرف ما ستفعله.

عندما ركضَ شقيقاي وسبقاني نحو المدرسة في صباح اليوم التالي، ركضتُ أنا أيضًا ليبقيا قريبَين منِّي — وأبقى قريبة منهما — وهكذا ظللتُ أركض نحو أعلى الزقاق وأسفل الجانب الآخَر من التل، عبر الحقول، صوب «حفرة الذئاب». توقَّفا أكثر من مرَّة لينظرا إليَّ، وفي إحدى المرات، قال هنري: «أنتِ سريعةٌ مُقارنةً ببقية الفتيات»، وطلبَ مني جيمس

في مرَّة أخرى أن أبطئ سرعتي وأغرُب عنهما. صاحَ وهو يركض بأقصى سرعة: «نستطيع المشي إلى المدرسة وحدنا.»

وكان هذا صحيحًا بالطبع، لكن لم تكُن له أية علاقة بالغرض من ركضي خلفهما.

وعندما وصلنا إلى الممشى المؤدِّي إلى «حفرة الذئاب»، لحقتُ بهما وأمسكتُ جيمس من ذراعه. قلتُ: «أريد المشي معكما بقية الطريق.»

أزاحَ جيمس يدي عنه مجيبًا بالرفض، لكن هنري قال: «ما الخطب؟»

فقلتُ: «لا شيء. كل ما في الأمر أنني رأيتُ ثعبانًا كبيرًا على الممشى أمس.»

بدا أنَّ هنري يتقبَّل ذلك. كان يعرف طبيعة شعوري تجاه الثعابين.

نظر جيمس بعينَين محدقتَين من الدهشة وقال: «ثعبان كبير؟»

فأومأت بالإيجاب. وقلت: «أكبر ثعبان رأيتُه في حياتي.»

«سحقًا يا أنابِل. كنت سأعود لأراه لو أنك أخبَرْتِنا أمس.»

قلتُ: «لهذا لم أخبركما أمس. لكن دعونا نمضِ قُدمًا بهدوء، وقد نراه مرَّةً أخرى.»

وبهذا كنا نحن الثلاثة معًا عندما خرجَت بيتي إلى الممشى من خلف شجرة.

توقَّف الولدان على نحوٍ مفاجئ جدًّا لدرجة أنني اصطدمتُ بهما. قال هنري: «مرحبًا يا بيتي.» واكتفى جيمس بالوقوف ساكنًا. أمَّا أنا، فالتففتُ من حول الولدَين إلى الأمام، وواصلتُ المُضيَّ قُدمًا نحو أسفل الممشى.

قلت: «هيا تعالَيا، وإلا فسنتأخر عن المدرسة.»

لم أنظر خلفي. تبعني الولدان عن قُرب. وعند أول منعطفٍ في الممشى، أشرتُ لهما نحو الأمام، فركضا، وركضتُ أنا أيضًا نزولًا من التل وحتى مبنى المدرسة.

قال جيمس ونحن نفك أزرار معاطفنا ونعلِّق قبَّعاتنا: «لا أحب بيتي. إنها مخيفة.»

فيما قال هنري: «إنها فتاة غبية فحسب»، لكنه خفض صوته والتفتَ إلى الوراء وهو يقول ذلك.

وصلت بيتي آنذاك، لكنها لم تكترث بنا إطلاقًا.

ركَّزت بدلًا من ذلك على مكتبها. وكان يشاركها المكتب واحدٌ من أضخم الصبيان، اسمه آندي وودبيري. كنت أحب هذا الاسم — وودبيري — لكني لم أكُن أحب آندي. لم يكُن أحدٌ يحبه. ولا حتى الصبيان الضخام الآخَرون، بالرغم من أنهم كانوا يفعلون كلَّ ما يطلبه منهم أيًّا كان.

لم يكُن آندي طالبًا في المدرسة قبل انضمام بيتي إلينا. كان هو وأبوه وأعمامه يُشغِّلون مزارع متجاورة لا تبعد كثيرًا عن مزارعنا؛ كانت تحتوي على أبقار حلوبة في الغالب، لكنها

كانت تحتوي أيضًا على ذُرة وتبن وبطاطس. وكان بها أيضًا حديقة خضراوات. ونعاج كافية لاستخلاص الصوف وإعداد خروف صغير على العَشاء في أيام الأحد في فصل الربيع. ودجاج. وبعض الماعز. كانت تحتوي تقريبًا على كل الأشياء التي عادةً ما توجد في مزرعةٍ لمنتجات الألبان.

في نهاية أكتوبر، كان آندي يأتي إلى المدرسة من حينٍ إلى آخَر، وأظنه كان يفعل ذلك في الغالب لتغيير أجواء يومه المعتادة ليس إلا. فلم يكُن يكترث بدروسه ولا بالسيدة تايلور.

قالت له بيتي: «أنت في مقعدي.» كان طوله حتى وهو جالس يكاد يضاهي طولها وهي واقفة، لكنها لم تَبدُ متوترة بشأنه إطلاقًا.

كان الأطفال الآخَرون قد التزموا الصمت وهم يشاهدون السيدة تايلور حين كانت تكتب درسًا على السبورة، ويبدو أنها لم تلاحظ ذلك بعدُ.

نظر آندي نحو بيتي من أعلى إلى أسفل. وسألها: «مَن أنتِ؟»

فقالت: «بيتي جلينجاري (أي رمح الوادي). مَن أنتَ؟»

«آندي وودبيري (أي توت الأحراج).»

تفحَّصَته بدقة، واضعة يدَيها على فخذَيها. وسألَتْه: «هل تعيش في الأحراج؟»

«لا.»

«هل أنتَ ثمرة توت؟»

«لا.» صار أكثر انتصابًا في جلسته. وسألها: «هل تعيشين في وادٍ؟»

فقالت: «في الحقيقة، أجل.»

لم يستطع الرد. فبينما كان يسألها قائلًا: «وهل أنتِ ...؟» بدا هنا أنَّ آندي أيضًا قد أدرك عدم وجود طريقة جيدة لإنهاء هذا الحوار. وكانت بيتي تبتسم بالفعل.

قالت: «... رمح؟ لا، لستُ رمحًا. إلَّا إذا كان الرمح فتاة تعتزم الجلوس في ذلك المقعد الذي تجلسُ فيه أنت.»

بدا آندي بحلول تلك اللحظة متحيِّرًا جدًّا لدرجةٍ جعلَتني أستنتج أنَّه لا أنثى على الإطلاق قد كلَّمَته بهذه الطريقة. ولا حتى أمه.

ولو كان أي أحد قد سألني آنذاك عن توقُّعي لما سيحدث، لقلتُ إنَّ بيتي سوف تجد — على الأقل — بعض النباتات الشوكية في شَعرها بحلول نهاية فترة الاستراحة، ولكن كان سيتبيَّن أنني مخطئة.

فها هو آندي قد نهض بلا أي كلمة، وانتظر ريثما جلسَت بيتي في مقعدها. وقف مائلًا ببنيانه الضخم ونظرات متوعِّدة فوق بنجامين، الصبي الصغير القاعد في المكتب المجاور لها، حتى لَمْلَم الصغير أغراضه بتنهيدة متحسِّرة وانحشر بجوار طالب آخَر.

جلس آندي ومدَّ ساقَيه. كانت ثنيتا ساقَي بنطالِه وأربطة حذائه الطويلِ الرقبة مليئةً بكُريَّات عُشبية شوكية لاصقة.

وعندما التفتت السيدة تايلور عن السبورة ورأته قاعدًا هناك، رفعَت كتفَيها وأنزلتهما ببطء، وأرخت الجزء العلوي من جسدها قليلًا.

قالت: «صباح الخير يا سيد وودبيري. هل أحضرتَ كتبك معك؟»

قال وهو ينقر رأسه بإصبعه: «لا أحتاج إلى كتب. فأنا لديَّ كل شيء هنا.»

كنت جالسة خلف بيتي، لكني رأيتها تبتسم حين استدارت نحو آندي. وقالت بيتي: «يمكنه أن يشاركني كتبي يا سيدة تايلور. لا أمانع ذلك.»

فقالت السيدة تايلور: «هذا لُطف كبير منك.»

وقال آندي: «إنه كذلك بالتأكيد.»

ظننتُ من الطريقة التي كانت بيتي تنظر بها إلى آندي أنَّها ربما لن تشغل بالها بي كثيرًا من الآن فصاعدًا.

انقضى باقي الصباح على أحسن ما يُرام، مع أنَّ آندي غفا عند لحظةٍ ما، وقاطعَ الدروس بصوت شخيره. وضعَتْ بيتي يدًا على ذراعه العارية لإيقاظه. وعندما استيقظ، هزَّ جسده وتثاءب بعلو صوته وعقد ذراعَيه كأنه سيد نبيل.

لم يكُن صبيًّا سيِّئ المظهر، وكان أنظف من البعض، لكن بيتي كانت أول فتاة تُعجَب به. تعجَّبتُ من ذلك؛ مدى سرعة نشوء هذا الانجذاب المفاجئ بينهما. لكني رأيت شيئًا مثل هذا من قبلُ، عند ظهور كلب جديد في الحديقة. فأحيانًا ما كان ينشب عراك قبل أن يعرف أيُّ أحد السبب. وأحيانًا أخرى كان يحدث العكس تمامًا.

الفصل السادس

في الأيام القليلة التالية، بدا أن بيتي تتجاهلني. كنت أمشي ذهابًا إلى المدرسة وإيابًا منها دون أن تعترضني، وكنت أقضي فترات الاستراحة في اللعب مع أصدقائي، وأتلقَّى الدروس على السبورة مع السيدة تايلور بهدوء دون أحداثٍ تُذكَر، بينما كان آندي وبيتي يظلَّان قاعدَين في مكتبَيهما متلاصقَين خلف ظهرها، يتهامسان ويبتسمان. كانا يختفيان في فترة الاستراحة، ويعودان إلى الدروس في وقتٍ متأخِّر، وكانا يغادران المدرسة معًا، ويصلان بالطريقة نفسها في الصباح.

الجميع لاحظَ هذا، وقد اعتبرتُ أنه بمثابة مقدمة لخطوبة، رغم أنه كان يبدو غريبًا، بالنظر إلى صِغَر سن بيتي؛ إذ كانت في الرابعة عشرة من عمرها فقط. لكن أمي كانت قد تزوَّجَت في سن السادسة عشرة؛ لذا لم أقضِ الكثير من الوقت في التساؤل عن الشيء الذي جعل بيتي تكفُّ عن استهدافي.

غير أنَّ آندي لم يكُن مواظبًا على الحضور في أفضل الأحوال، وسرعان ما أدركتُ أنَّ حتى بيتي لا تستطيع التفوق على يوم واحد من أيام الصيف الهندي.

كان المشي إلى المدرسة في ذلك الصباح بهجة خالصة. الأرض ليِّنة وعَطِرة، والطيور ثرثارة، والشمس غائمة بعض الشيء، كأنها ترتدي جوربًا حريريًّا. وقبل أن أنزل المنحدر الطويل المؤدي إلى مُنخفَض «حفرة الذئاب»، خلعتُ سترتي وقبعتي وعلَّقتُهما على شجرة خوخٍ تشبَّثَتْ تشبُّثًا عنيدًا ببضع أوراق قليلة جدًّا صارت باللون الذهبي المميز للخريف.

لم أكُن أعرف أين شقيقاي ولم أكُن أكترث بذلك. شعرتُ بأنني أستطيع بجهد بسيط جدًّا أن أحلِّق فوق هذه التلال، حاملةً الشمس على ظهري، بينما تتوهَّج الأحراج من تحتي بروعةٍ وجمال.

أعتقد أنني ربما كنت أصفِّر أو أغنِّي في سرِّي عندما دخلتُ الأحراج في صباح ذلك اليوم.

لا أتذكَّر.

غير أنَّ ما حدث بعد ذلك محا كلَّ شيء، عدا حقيقة وجود بيتي مجددًا.

ربما كانت تنتظر آندي ولم يأتِ، فأغضبَها ذلك، ومنحها بعضًا من وقت الفراغ.

أو ربما أنها ببساطة لم تتحمَّل أن تقضي كلَّ هذا الوقت الطويل دون فرض بعض الهيمنة، مهما كانت بسيطة.

على أي حال، كانت مستعدة لي بينما لم أكُن مستعدة لها.

وقد اختارت سلاحًا أشدَّ وحشية من ذي قبل.

هنا على المشى، رأيتُ أمامي مشهدًا غريبًا.

كانت بيتي قاعدةً على جذع شجرةٍ ساقط، تحمل شيئًا ما في حجرها، بينما كان شقيقاي جالسَين القرفصاء أمامها وهما يتحركان بلطفٍ وبطءٍ على غير العادة.

قلتُ: «هنري.»

ردَّ دون أن يلتفت إليَّ قائلًا: «صه. إنها تحمل طائر سُمَّان.»

وقد كانت تحمل طائر سُمَّان بالفعل. كان أنثى، بُنِّية وليِّنة. وكان يبدو من مظهرها أنها صغيرة السن. كانت عيناها حيويتَين وكان ريشها أملس.

كانت بيتي متأبطة إياها بسهولة تحت ذراعها اليُسرى. وكانت يدها اليمنى كقلادة ضيِّقة؛ إذ أحاطت أصابعها بعُنق الطائر الصغير بإحكام كافٍ لإبقائها ساكنة. كانت السُّمْنة ترمش وتغمغم، بينما كان الولدان يمسِّدان رأسها الليِّن بأنامل أصابعهما الصغيرة.

قال جيمس هامسًا: «إنها لطيفة جدًّا. ليتني كنت أملكها.»

قالت بيتي: «حسنًا، ربما يكون ذلك ممكنًا. ربما يُمكنك أن تُنشئ مزرعة سُمَّان.»

رد هنري قائلًا: «لا، إنها طائر برِّي. ليست دجاجة.» لكنه قال ذلك بنبرة ليِّنة تكاد تكون حزينة، ولم يرفع عينَيه قَط من فوق السُّمْنة البُنِّية الجميلة الراقدة في حِجر بيتي.

وقفتُ وراءهما متسائلة عمَّا إذا كانت بيتي قد تغيَّرَت، لكني كنت موقنة تمامًا أنها لم تتغير.

قلتُ: «هيا الآن يا أولاد. سنتأخر عن المدرسة.»

تجاهلاني تمامًا لدرجة أنني شعرت بأنني غير مرئية.

قالت بيتي: «سأحضرها إلى المدرسة معي. اسبقاني إلى هناك. وسألحق بكما مباشرة.»

بدَت مثلي جدًّا. كانت تمارس دور الأخت الكبرى. لكنهما أطاعاها كما لم يطيعاني قَط.

تراجَعَ الولدان ببطءٍ لئلَّا يفزعَا السُّمْنة، ثم رحلا راكضَين نحو أسفل التل، بينما كان كلٌّ منهما يُهسهس للآخر هَسْهسات ليس لها معنًى وهما يتسابقان.

هَمَمتُ باتباعهما، لكنَّ صوتًا ما أوقفني.

كانت أمي قد لَوَت أعناقَ الكثير من الدجاج وكسرتها من قبل، لكنها دائمًا كانت تفعل ذلك بسرعةٍ شديدةٍ لا تتيح للدجاجة وقتًا لإصدار صوتٍ أو إبداء مقاومة.

كان الصوتُ هذه المرَّة مختلفًا.

التفتُّ عندما سمعت صوتًا مبحوحًا خلفي. كانت بيتي قابضةً على السُّمْنة من رقبتها، فيما كان جسدها الضئيل المكتنز يتأرجح وهي تقاوم أصابع بيتي الملتفة حول رقبتها كالأنشوطة، وكانت مخالبها تتلوى وتتمدَّد، بينما كان جناحاها القصيران يضربان الهواء باهتياج مسعور دون جدوى.

صحتُ قائلة: «بيتي! أفلتيها. إنك تقتلينها!»

مددتُ يدي نحو السُّمْنة، وعندئذٍ اعتصرَت بيتي رقبتها بيدها ورفعتها عاليًا، بعيدًا عن متناولي، وهي تتراجع وتصعد فوق جذع الشجرة الساقط، بينما كانت تعبيرات وجهها جادة، وعيناها محدقتَين إلى وجهي دون أن ترمش.

صحتُ مجددًا: «أفلتيها!»

ولكن بينما مددتُ يدي بسرعةٍ لآخذ السُّمْنة، أحكمت قبضتها أشدَّ إحكامٍ ممكن، وحطَّمَت عنقها. سمعتُ صوت طقطقة العظام الرقيقة.

رَمت الكائنة المسكينة المرتخية عليَّ، فتراجعتُ مبتعدة، وعندئذٍ تعثَّرتُ في جذر شجرة على المشى ووقعت على ظهري بقوة.

لا أعرفُ من أين أتى توبي حينئذٍ. ففي لحظة، كنتُ ممدَّدة على المشى، وأنا أحاول بصعوبة أن أستعيد صوابي من الصدمة، وفي اللحظة التالية، كان واقفًا بيننا معطيًا ظهره لي ومزمجرًا، كأنه واحدٌ من كلاب المزرعة.

لا أعرف ماذا فعل. فأنا لم أستطِع رؤية بيتي إطلاقًا. بل توبي فقط. ولم أستطِع فَهْم كلمةٍ مما قاله لها. فأغلب ما سمعته كان ضجيجًا. ضجيجًا فظيعًا.

استدار وساعدني على النهوض دون أن يتفوَّه بأي صوت آخَر. لَمْلم جثة الطائر النافق. كانت تبدو صغيرة ومثالية في يده المتضررة من كثرة الندوب.

أخذَ نفَسًا وانتصبَ ثم اتجه إلى أعلى المشى، وخرج من مُنخفَض «حفرة الذئاب».

كل ذلك قد حدث، بدءًا من ركض شقيقيَّ بعيدًا إلى أن تركنا توبي، في أقل من دقيقة.

استلقَت بيتي على ظهرها وسط الشجيرات، فاغِرة عينَيها وعلى شفتَيها شيء من الابتسامة.

قلت لها وأنا في أشد حالات الذهول: «لماذا فعلتِ ذلك؟ ما خطبك؟»

قالت وهي تكاد تُحدِّث نفسها: «لقد سرق طائري. وقال إنه سيجعلني أندم لو لمستك مجددًا.»

لم أفهم كيف يُمكن للمرء أن يشعر بالسرور في تلك الظروف، لكني سُررت. قليلًا فقط.

ربما وجدَتْ بيتي في توبي ندًّا قادرًا على مواجهتها.

قالت وهي تنهض على قدمَيها: «يا له من أحمق غبي!» نفضت ثوبها. وقد التصقَت بعض الأوراق بشَعرها.

كان واضحًا أنها لم تكُن تدرك أنها كانت مستلقيةً في حوضٍ من اللبلاب السام، ولم أكُن أعتزم إخبارها.

ولو كان الجحيم هو عقابي على أنني تمنيت آنذاك أن يحلَّ بها السوء، فليكُن ذلك إذَن.

قلتُ لها: «لستِ سوى شريرة. حتى النخاع.»

أضحكها هذا. وقالت: «جدتي علَّمَتني لَوْي عنق دجاجة وكسرها، وقد أكلناها كلها في تلك الليلة، مع بطاطس مهروسة وصلصة اللحم. لا شرَّ في ذلك. وإنْ كان فيه شر، فجدتي شريرة أيضًا، ومعها أمكِ نفسها.»

هززتُ رأسي. وقلت: «يوجد فارق بين هذا وذاك، وأنتِ تعرفين ذلك»، رغم أنني تساءلت في قرارة نفسي عمَّا إذا كانت تعرف حقًّا.

تركتُها غارقة في أفكارها وسط هذه الرقعة السامة، ودعوتُ الرب أن تستيقظ غدًا وهي مصابة بدمامل قرمزية وقشور صلبة. دعوت أن تُصاب بطفح جلدي يغطِّي وجهها ببثور وقشور جلدية. ودعوت أن تُصاب بندوب. أجل فعلتُ ذلك. دعوتُ أن تغطِّي الندوب يدَيها اللتين قتلتا طائرًا بريئًا غير مؤذٍ. ولم أندم على فعل ذلك.

بحلول فترة الاستراحة بعد الظهر، كانت بيتي تحكُّ رقبتها. وعندما آنَ وقت مغادرة المدرسة، كان طفح جلدي قد ظهر على أحد خدَّيها. وعندما عُدت إلى المنزل في ذلك اليوم،

وجدتُ أمي على مقربةٍ من المنزل عند حوضٍ منخفض من أعشاب البلسم التي نَمَت، حيث كان يوجد ينبوع متفجِّر من باطن الأرض.

ناديتُها من الزقاق قائلة: «ماذا تفعلين؟»

لوَّحَت إليَّ لأنضم إليها؛ ومن ثمَّ اتبعت الممشى متجاوزةً حديقة المطبخ وصولًا إلى حيث كان يوجد مجرًى مائيٌّ منحدر صغير قد انبثق من الينبوع.

ولو كانت الأجواء قد شهدت صقيعًا شديدًا بما يكفي لتجميد أعشاب البلسم، لأصبحت المنطقة المحيطة بالينبوع خاويةً من كل شيءٍ سوى الوحل، لكن معظم الأعشاب كانت ما تزال خضراء وحيَّة، وإنْ كانت طويلة السيقان وقليلة الأوراق. كانت الأجربة شبه الشفَّافة الحاملة للبذور التي نَمَت من أزهارها البرتقالية؛ قد تفجَّرت منذ فترة طويلة، ونثرت حمولتها، لكن بقيَتْ كميةٌ كافية من الأوراق.

كانت أمي قد قطفَت عددًا من السيقان المائية، وطوَتْها على نفسها واضعةً إياها في سلةٍ كبيرة، وبدأ تراكُم المزيد بين ذراعيَّ.

قالت: «سنحتاج إلى الكثير من ذلك. فبيتي جلينجاري قد وقعَت بطريقةٍ ما في رقعة من اللبلاب السام، وصار جسدها مغطًّى بالبثور.» هزَّت أمي رأسها. ثم أضافت: «كنت أظن أنَّ الجميع أكثر درايةً من أن يفعل ذلك، ولكن يبدو أنَّ بيتي لم تكُن تعرف اللبلاب السام من قبل. لقد صارت أدرى الآن.»

تمشَّت نملة صغيرة من إحدى الأوراق على يدي. فنفختُها بعيدًا. ثم قلت: «لماذا عليكِ فعل كل ذلك؟ أليس لديهم أيٌّ من أعشاب البلسم عند ينبوعهم؟»

توقفت أمي لترمقني بنظرة. ثم قالت: «السيد جلينجاري ذهب إلى أوهايو لمساعدة أخته للانتقال إلى منزل جديد. والسيدة جلينجاري مُصابة بعرق النسا. لا يمكن أن تتجول في الأحراج لجمع بعض الزهور في حين أن لدينا كمية وفيرة منها هنا بالضبط.» قطفَت كمية أخرى من الأعشاب ملء قبضتها وحشَرَتها بين ذراعيَّ. ثم أضافت: «لقد زارتنا لترى ما إنْ كان لدينا أيٌّ منها ما زال ينمو في هذا الوقت المتأخر من الموسم. وها نحن لدينا بالفعل. لذا سأعدُّ بعضًا من شراب البلسم. وأنتِ ستساعدينني.»

أردتُ إخبارها عن السُّمْنة، لكني لم أكُن أريد الحديث عن ذلك. شعرتُ بالغثيان عندما تذكرت صوت تلك العظام عند كسرها. وكنت أحتاج إلى بعض الوقت للتفكير في بقية ما حدث أيضًا، وما ينبغي فعله بعدئذٍ.

فكرتُ في السُّمْنة. فكرتُ في شقيقيَّ. تذكَّرتُ الصوتَ الذي أصدره توبي في غضبه.

قالت أمي: «حسنًا. من المفترض أن يكون هذا كافيًا وزيادة لفتاة واحدة.»

التقطَت سلَّتها وقادتني نحو أعلى التل في طريق العودة إلى المنزل.

وبدأنا معًا نُعد شرابًا مخمَّرًا لتهدئة الألم الذي دعوتُ أن يصيبها.

غلينا الماء في أكبر قِدر لدينا، ووضعنا فيها أعشاب البلسم، ساقًا واحدة تلو الأخرى. وفي لحظات، ذابت السيقان والأوراق الليِّنة وخضَّرت الماء، فملأت المطبخ برائحةٍ أشبَه برائحة السبانخ أثناء طهوها.

صاحت جدتي من الغرفة الخلفية التي كانت تأخذ فيها قيلولة قصيرة: «مَن الذي أُصيب بسُمِّ اللبلاب؟»

فصاحت أمي مجيبة: «بيتي جلينجاري. أُصيبت به إصابة بشعة.»

قالت جدتي بنبرة غير قاسية: «فتاة المدينة. ستصبح أوعى في المرَّة القادمة.»

ورغم الجزءِ الطيب من ذاتي، تمنيتُ أن تُصاب به مرَّة أخرى، وأن تكون تلك المرَّة بعد صقيع قاسٍ شديد.

عندما انتهينا من غلي كل الأعشاب، سكبنا الشراب المُستخلَص من النقع في أوعية زجاجية، وتركناه يبرد، ثم أغلقناها بأغطيتها، وكدَّسناها في السلة الكبيرة مجددًا.

قالت أمي: «من المفترض أن يفي هذا بالغرض. ارتدي معطفكِ. سنأخذ الشراب إلى هناك ونُحضر بعض ثمار البنجر إلى هنا في طريقنا ونحن عائداتان.»

فسألتُها: «هل من اللازم أن أذهب؟ يُمكنني البدء في إعداد العَشاء ريثما تذهبين وتعودين.»

قالت أمي وهي تجرُّ السلة إلى حجيرة المدخل: «لن نبقى هناك طويلًا. والآن اركضي خارجًا إلى الحظيرة وأحضِري جدَّك. فالمسافة أطول من أن نستطيع مشيها بكلِّ هذا الحمل الثقيل.»

كنتُ عازمةً على أن أظل في الشاحنة مع جدي ريثما تُسلِّم أمي الشراب. غير أننا حين توقَّفنا أمام بيت آل جلينجاري، وضعَتْ وعاءً في كلٍّ من يديَّ، ودفعتني باستعجال لأتقدَّمها نحو الباب. قالت: «لقد ساعدتِني في إعداد الدواء. ينبغي أن تعرف بيتي ذلك. ربما تصبحان صديقتَين.»

لم يكُن يوجد شيءٌ أستطيع الرد به على ذلك؛ لذا لم أقُل شيئًا.

عندما لبَّت السيدة جلينجاري طَرْقَتنا وفتحت الباب، كانت تبدو متضايقةً جدًّا على غير العادة. قالت: «يا إلهي، ادخلي يا سارة. ادخلي يا أنابِل. أنتما مَلاكَان. مَلاكان حقًّا. انتظرا ريثما تريان بيتي. رباه، إنها مريضة للغاية.»

وقد كانت كذلك بالفعل. لم أتفاجأ إطلاقًا عندما رأيتها. فأنا مَن دعوتُ أن تُصاب بالبثور. وقد استُجيبَ لدعائي.

كان جلدُ بيتي أحمرَ ومتورمًا للغاية في كل المواضع التي لمست اللبلاب السام، وكانت بعض البثور ضخمةً جدًّا لدرجة أنني استطعت أن أرى من خلال الجلد مدى عُمق تجمُّع السائل في الداخل. ذكَّرَني شكلها بضفدعة كبيرة تُصدر نقيقًا عميقًا وحلقها منتفخ كفقاعة.

كان من الصعب أن أنظر إليها. وكان من الأصعب ألا أنظر إليها. لم أرَ في حياتي أحدًا مُصابًا بسُمِّ اللبلاب كما كانت بيتي.

قالت أمي وهي تخلع معطفها وتضعه على الحافة السفلية من سرير بيتي: «رباه، حالتكِ حرِجة جدًّا. هلَّا تُحضرين بعض الخِرَق النظيفة يا مارجريت؟»

بينما كانت جدة بيتي تُحضر الخِرَق، مدَّت أمي ذراعَي بيتي وساقَيها برفق، ولَمَّت شَعرها بعيدًا عن وجهها. ثم قالت: «يا لكِ من مسكينة! من المؤكَّد أنكِ تشعرين بحكةٍ رهيبة.»

كانت بيتي تشاهد أمي وهي تفعل ذلك. قالت من بين أسنانها: «لا أهتم.» تنفَّسَت بأزيز. وأضافت: «إنه طفح جلدي غبي فحسب.»

هزَّت أمي رأسها. وقالت: «يا لكِ من فتاة شجاعة يا بيتي!»

قالت السيدة جلينجاري وهي تكوِّم الخِرَق فوق حافة السرير السفلية: «ها هي الخِرَق. ماذا أيضًا؟»

«أحضِري طَستًا. وأنتِ يا أنابل، أحضري إليَّ اثنين من هذه الأوعية.»

شكرًا للرب أنه حبانا بأعشاب البلسم. صحيحٌ أنها لا تتكدس فوق بعضها فتفرقُ البحر، ولا تحوِّل الماء إلى نبيذ على غرار المعجزات الأخرى، لكنها الشيء الوحيد الذي يُمكن أن يشفي بيتي.

سكبت أمي الشراب الدافئ في الطَّست، ونقعَت الخِرَق فيه، واعتصرتها حتى صارت تقطر فقط، ثم وضعَتها على جلد بيتي، فغطَّتها كلها عدا عينَيها، اللتين كانتا تتابعاني وأنا أتأمل أرجاء غرفة نومها.

كانت غرفتها شبيهة جدًّا بغرفتي. كانت تحوي سريرًا. ومنضدة صغيرة تحمل مصباحًا. وكرسيًّا في أحد أركانها. وخزانة ملابس كان بابها مفتوحًا بما يكفي لأرى أنها لم تكُن تحوي الكثير داخلها. كان لون حوائطها أبيض خالصًا. وأرضيتها خشبية عارية.

وكانت صورة يسوع معلَّقة على أحد الحوائط. وكان ثمَّة حائط آخَر يحمل صورة لرجل وامرأة يرتديان ثيابًا جيدة؛ إذ كان الرجل يرتدي ربطة عنق فيما كانت المرأة تعتمر قبعة.

ولأنني كنت واقفة في غرفتها وهي عاجزة ممدَّدة على سريرها، مع وجود شخصَين كبيرَين معنا، أطلقتُ العنان لفضولي قليلًا. سألتُها قائلة: «هل هذان والداكِ يا بيتي؟»

لكن السيدة جلينجاري هي التي أجابتني. قالت: «أجل، هذا ابني، والد بيتي، لكنه ...» سكتَت فجأةً. ونظرَت إلى أمي.

فقالت بيتي: «رحلَ»، قالتها بنفس الطريقة التي قد تقول بها أي كلمة عادية.

لم أكُن أعرف ما المقصود بكلمة «رحل».

قالت أمي: «لا بأس.» وسحبَت بطانيةً على جسد بيتي حتى ذقنها، وقامت من فوق السرير.

أدارت بيتي رأسها قليلًا، ورأتني أنظر إليها، ثم أشاحت بوجهها مجددًا، ولكن بعدما رأيتُ عينَيها. كانتا حمراوَين احمرارًا ينمُّ عن التهابهما. كانت الخِرَق الموضوعة على وجهها تقطر الشراب المستخلَص من نقع أعشاب البلسم داخل شعرها. وربما أشياء أخرى مع ذلك الشراب.

بالرغم من شدة خسة بيتي، شعرتُ بسرور مفاجئ لأنَّ بعض أعشاب البلسم كانت ما تزال موجودة في شهر نوفمبر المعتدل ذاك واستطعنا جمعها.

قالت أمي للسيدة جلينجاري وهي تسلِّمها الطَّست: «افعلي ذلك كل ساعة. لا تُبالغي في اعتصار الخِرَق فتصبح أجف مما ينبغي. يجب أن تكون جيدة ورطبة. ولا تتركي الفتاة تبرد.»

وعند الباب، توقَّفَت أمي وقالت بهدوء: «مارجريت، إذا تفاقم ذلك الأزيز الصادر من أنفاسها، فأعطيها بعض الشراب لتشربه، واستدعي الطبيب بنسون.»

«سأفعل ذلك يا سارة. شكرًا لكِ. شكرًا لكِ. وأنتِ أيضًا يا أنابِل. دائمًا ما تقول بيتي أشياء طيبة عنكِ. ربما يُمكنك أن تأتي وتلعبي معها حين تستعيد عافيتها.»

كان الظلام قد حلَّ عندما وصلنا إلى حقل البنجر، لكننا عملنا على ضوء المصابيح الأمامية للشاحنة، وسرعان ما جمعنا من البنجر كمية كافية للعَشاء.

كنتُ مستعدة بكل سرور للبقاء وقتًا أطول في الحقل، ومواصلة أداء هذا العمل، قانعةً بحبَّات البنجر التي كانت تتدلى كمفاجأة دسمة من كلِّ عنقود أخضر كنت أقتلعه من الأرض.

صحيح أنَّ تلك الحبات لم تكُن تبدو شهية جدًّا. فقشرتها الخارجية كانت تحمل كتلًا من التراب الطيني المتجمِّع، وكانت مغطَّاة بشُعيرات من جذور رقيقة، وصلبة كالحجر. ولكنَّ لُبَّها الداخلي كان بمثابة ياقوت حلو متلهف للتسخين حتى الليونة.

كنت قد اشتقت إلى تلك الحياة.

الفصل السابع

أجدَتْ أعشاب البلسم نفعًا، لكن مفعولها كان بطيئًا بعض الشيء لأنَّ حالة بيتي كانت متدهورة جدًّا؛ لذا كنت سعيدة باليوم التالي. فقد مكثَت بيتي في المنزل تستعيد عافيتها. وكان آندي ما يزال في مكانٍ ما، لا يؤدي اعتبارًا لواجبات الصداقة وقت الشدة. فتحت السيدة تايلور نوافذ المبنى المدرسي لتسمح بدخول النسيم وزقزقة الطيور. وتعلمت شيئًا يُسمى صياغة الكلمات بالأصوات المعبِّرة عنها، لم أكُن قادرةً بعدُ على تهجئة هذا المصطلح، لكني كنت أمارسه في سرِّي خلال وقت ما بعد الظهر.

وفي صباح اليوم التالي، عاد كلٌّ من بيتي وآندي إلى المدرسة.

كان جلد بيتي في وجهها ويدَيها ما يزال يبدو حسَّاسًا ومؤلمًا عند لمسه، ومحترِقًا قليلًا، لكنه تحسَّن جدًّا لدرجة أنني لم أكَد أصدِّق أنها تعرَّضَت للتسمم من اللبلاب منذ وقتٍ قريب جدًّا. بالرغم من ذلك، كانت ترتدي أكمامًا طويلة وبنطالًا طويلًا، وكانت تتحرك بشيء من الحذر وهي آتية إلى أسفل الممشى وداخل فناء المدرسة.

كنت أشاهدها من درج المبنى المدرسي، الذي كنت جالسةً عليه في ضوء الشمس مع روث وبعض الفتيات الأخريات، ريثما تستدعينا السيدة تايلور إلى الداخل.

قالت إحدى الفتيات: «مرحبًا يا بيتي.»

توقفت بيتي، ثم اقتربت حاملة دلو غدائها في يدها اليُسرى. نظرت إليَّ مباشرة، ورفعت يدها اليمنى، وأغلقتها مُحكِمة قبضتها ببطء.

قالت مبتسمة: «مرحبًا يا أنابل.»

لم أكُن أتوقع أي شكرٍ منها على مساعدتي لها في التعافي. لكني أيضًا لم أتوقع ذلك. كم كنت غبية!

سألتها: «لماذا أنتِ وضيعة جدًّا؟» وكنت أشعر بالفضول حقًّا. كنت راغبةً فعلًا في معرفة السبب.

قالت: «أنا أكبر سنًّا منكِ فقط، هذا كل ما في الأمر. ستتعلمين أنتِ أيضًا تدبُّر شئونك بنفسك. إذا لم تكوني غبيةً جدًّا، مع أنكِ كذلك على الأرجح.»

لكني لم أكُن كذلك. لم أكُن غبية ولا أصغر سنًّا من أن أعرف الوضاعة.

نادتنا السيدة تايلور: «هيا ادخلن.»

ظلَّت بيتي منتظرةً في الخارج وحدها، بينما دخلتُ مع بقية الفتيات.

وعندما خرجتُ أخيرًا، بعد ذلك بنحو ساعة، كان آندي معها.

كان يبدو عليه اسمرارٌ حديثٌ من أثر الشمس، وكانت ثيابه نظيفة. وكانت بيتي، بالرغم من بنطالها، تبدو مُفعَمة بالأنوثة وهي بجواره.

قالت السيدة تايلور لآندي: «أنا سعيدة جدًّا لأنك انضممت إلينا أخيرًا.» وقالت لبيتي: «أرجو أن تكون حالتكِ قد تحسنت.»

جلسا في مقعدَيهما، واستُؤنف شرح الدرس على السبورة، وانقضى باقي الصباح في هدوء تام.

نام آندي خلال شوطٍ طويلٍ منه. وبينما كان نائمًا، كانت بيتي تتأمَّله متجاهلةً شرح السيدة تايلور، فيما كان الكتاب الموضوع على مكتبها مقفلًا. وعندما استيقظ، ابتسمَت بيتي وشدَّت كمَّه. فالتفت إليها وابتسم ابتسامةً عريضةً متثائبًا، وانتصب في جلسته.

فكَّرتُ في أن أطلب من السيدة تايلور أن تسمح لي بتبديل المقاعد مع طالب آخَر؛ بحيث لا أكون مضطرة إلى مشاهدة هذا الهراء. لكني لم أكُن أريد التخلي عن روث، وكذلك كنت أبدو غير مرئية لبيتي ما دام آندي قريبًا منها. لذا لم أكُن أريد فعل أي شيء لتغيير ذلك.

لم أكُن أريد المزيد من الكدمات والتهديدات، وطيور السُّمَّان النافقة المسكينة.

لم أكُن أريد أي تعاملٍ مع أي فتاةٍ تستطيع أن تُحكِم قبضتها حول رقبة طائر، وهي تبتسم.

كنت أريد أن تعود بيتي إلى المكان الذي أتَت منه.

كنت أريد أن أعيد عقارب الساعة إلى حيث كانت قبل مجيئها. كنت أريد أن ألغي ما حدث منذ وصولها. أن أنسى. أن أستعيد ذاتي القديمة، حين كنت إنسانةً لا تدعو أبدًا أن يُصاب أحد بالبثور. إنسانة لم تفكِّر حتى في فعل ذلك قط.

ولكن إذا كان كلُّ ما أستطيع الحصول عليه هو استراحة قصيرة من انشغالها بي، فسأغتنم ذلك، وبكل سرور. لقد جذبها آندي إليه، بعيدًا عني، وكان عليَّ أن أقنَع بذلك.

كانت فترة الاستراحة لنا تقتصر على الانتشار خارجًا، في الأرض الخالية حول المدرسة مرتَين يوميًّا، لنلعب نطَّ الحبل أو الحَجْلة، أو لنزرع بعض الشُّوفان إن لم نلعب. لم يكُن مسموحًا لنا أن نقترب من الطريق الذي يؤدي إلى ما بعد مبنى المدرسة، وذلك عَبْر المُنخفَض حيث ينتهي عنده أحد التلال، ويبدأ تلٌّ آخَر. لم نكُن نعبأ في العادة بالسيارات التي كانت تمرُّ بنا من وقتٍ إلى آخَر، لكني كنت كلما سمعت مجموعة من الخيول تمشي متثاقلة وهي تجرُّ عربة قش أو عربة نقل مسطحة، توقفتُ عما أفعله لأتمشى بجوارها قليلًا وأنا أثرثر مع المزارعين أو الخيول، وأحيانًا كنت آخذُ إليهم دلوًا من مياه البئر إذا توقفوا للاستراحة في يوم حارٍّ بعد الظهر.

وفي ذلك اليوم، كان حصانا السيد فاس الرماديان قادمَين نحونا ببطء على الطريق، وهما يجرُّان عربةً مليئةً بالتفاح المكتنز في سلالٍ تتراوح سعتها بين أربعة كيلوجرامات وستة عشر كيلوجرامًا، وكان السيد فاس يقودهما ذاهبًا بهما في طريقه إلى السوق.

كان السيد فاس ودودًا ولطيفًا جدًّا لدرجة أنه دائمًا كان يطلب منا أن نناديه بالسيد أنسل، فكنا نفعل ذلك، لكن أمي صفعت هنري خلف أذنه ذات مرَّة حين ناداه باسم أنسل دون كلمة «سيد».

ناديته من درج المبنى المدرسي؛ حيث كنت ألعب مع روث لعبة تشكيل أشكال مختلفة بالشرائط البلاستيكية المرِنة بين أصابعنا: «مرحبًا يا سيد أنسل.» وعندئذٍ شد لجام حصانَيه فجعلهما أبطأ ممَّا هما بطيئان أصلًا، ولوَّح لنا بردِّ التحية. نطق «صباح الخير» بحروف غير سليمة؛ فقد ظلَّت لَكْنته ألمانية رغم كل السنين الكثيرة التي عاشها في تلك التلال.

«وكيف حالك يا أنابل الصغيرة، وأنتِ يا روث الأصغر، في مثل هذا الصباح الجميل؟» كان يرتدي حلَّة عمل كاملة مكوَّنة من قطعةٍ واحدة، وكانت نظيفة كثياب أيام الأحد ومفرودة بإتقان كأنها سطح صلب أملس، وكان يعتمر قبعة منظَّفة جيدًا بالفرشاة، وينتعل حذاءً طويل الرقبة لامعًا، كتفاحه الذي كان يتلألأ في ضوء الشمس، كما لو كان حاملًا إياه إلى صائغٍ ليُرصِّع به بعض الحُليِّ.

قلتُ: «على ما يُرام.» دبدب حصاناه قليلًا، متلهفَين للذهاب، لكني أسندتُ جبهتي لحظةً إلى أقرب خاصرة وربتُّ عليها براحتَي يدي. وأضفتُ: «ليتني أذهب إلى السوق معك ومع هذين الصغيرين الحلوين. إنهما لطيفان جدًّا.»

أمَّا روث، التي كان شَعرها الداكن مربوطًا في ضفيرة مُحكَمة، وكانت ترتدي تنورةً مستقيمةً أنيقة، فلم تقترب، وظلَّت بعيدةً عن حوافر الحصانَين وأسنانهما الصفراء الكبيرة. كان والدها محاسبًا. وكان الحيوان الوحيد في منزل روث قطة مرقطة.

لاحقًا، سيتساءل الجميع عمَّا فعلَته روث لتستحق ما حدث لها في اللحظة التالية.

فالحَجَرُ الذي أصابَ روث في عينها مباشرةً كان أصغر من أن يصدَّه حاجبُها، وكان كبيرًا لدرجة أنه طرحها أرضًا على ظهرها وألحقَ بعينها جُرحًا بالغًا. كان كلُّ ذلك واضحًا حتى لي وأنا أشاهد الدم يسيل على خدها.

لقد صُعِقت روث كما يُصعَق طائرٌ اصطدم بنافذة تنعكس عليها صورة السماء وكأنها امتدادٌ لها. كانت راقدة بلا حراك، لكنَّ يدَيها وقدمَيها كانت ترتعش بقوة في الغبار الذي هبَّ متصاعدًا بفعلِ سقوطها.

عرفتُ عندما قفز السيد أنسل من مقعد العربة وجثا على ركبتَيه بجوار روث.

عرفتُ عندما صار فناء المدرسة يعجُّ بالصياح والفوضى.

عرفتُ عندما أتت السيدة تايلور إلى الطريق راكضة، ورأت وجه روث، وذهبَت مجددًا بسرعة لإحضار سيارتها.

عرفتُ عندما استفاقت روث من ذهولها وبدأت تصرخ. عندما حملها السيد أنسل إلى المقعد الخلفي في سيارة السيدة تايلور التي كانت من طراز «فورد»، ووقف كلانا بعيدًا بينما انطلقت بسيارتها على الطريق وذهبت بعيدًا بسرعة، والغبار يتصاعد من خلفها.

قال السيد أنسل لي: «سأذهب بأقصى سرعة وأخبر والديها.»

كان معطفه النظيف للغاية ملطَّخًا ببقعة دم.

صعدَ إلى العربة والتقط الزمام بسرعة. وانطلق حصاناه، اللذان كانا مستاءَين أصلًا، مهرولَين.

تناثر بعض التفاح على الطريق خلف العربة، فكان بمثابة ذيلٍ طويل متدحرج لم ينتهِ حتى انحنى الطريق بعيدًا.

هبطت ذبابة على قطرات دم روث المتناثرة على الأرض، ورأيتُها تشرب منه.

كان الأطفال الآخَرون ما يزالون مُصطفِّين بطول الطريق. صامتين تمامًا.

جاء هنري وجيمس ليقفا معي. وقال لي هنري، الذي لم يكُن يفعل ما أقوله له قَط: «ماذا علينا أن نفعل؟»

كنا كلنا أطفالًا في تلك اللحظة بعد ذهاب السيدة تايلور. وحتى الأولاد الأكبر سنًّا، الذين كانوا متجمعين خلف البقية، بدوا صغار الحجم. لم أرَ آندي. ولم أرَ بيتي. كنتُ سعيدة آنذاك بعدم وجودهما هناك.

كان هذا كل ما خطر ببالي عنهما حينئذٍ.

قلت: «هنري، اركض إلى المنزل وأحضر شخصًا ما.»

صحيحٌ أن منزلنا لم يكُن الأقرب، لكنه المكان الذي توجد فيه أمي.

وعندما رحل هنري، تبعه جيمس، ولم أنادِهِ ليبقى؛ فهو لم يكُن ليُفيدني بأي حال من الأحوال.

بعد ذلك، أحضرت دلو ماء من البئر، وسكبته على الدم المُراق في الشارع، ودخلتُ لأنتظر.

أتى بعض الأطفال الآخَرون. لَمْلَمَ معظم الأطفال أغراضهم وذهبوا إلى منازلهم. كان الأطفال الأصغر جالسين إلى مكاتبهم وقد عقدوا أذرعهم، ريثما يأتي شخصٌ ما ويأخذهم إلى منازلهم. بينما جلست أنا على مكتبي، الذي كان أوسَع بكثير؛ لأنَّ روث لم تكُن موجودة، وأسندتُ رأسي إليه وبكيتُ.

كنتُ أنتظر على درج المبنى المدرسي عندما جاء والداي في شاحنتنا القديمة، وتوقَّفا بجوار الوادي الصغير قُرب المبنى.

قرَّباني إليهما لحظة، ثم ذهبت أمي إلى الأطفال الآخَرين.

انحنى والدي لينظر إليَّ في عيني. وسألني: «ماذا حدث يا أنابل؟»

كنت قد توقفتُ عن البكاء لكنَّ دموعي الباقية كانت كثيرة؛ ولذا أوشكت في تلك اللحظة أن أبكي مجددًا.

قلت: «لا أعرف.» ثم أضفت وأنا ألتفتُ لأشير إلى مكان الحادثة: «كنت واقفة هناك بالضبط أتحدث إلى السيد أنسل. كانت روث خلفي بقليل، خائفةً من الحصانَين.» وأردفتُ واضعةً إصبعي على جفني الأيسر: «وأصابها حَجرٌ هنا بالضبط. فسقطَت واصطحبتها السيدة تايلور في سيارتها.»

انتصبَ والدي وتجاوزني بعينَيه أنا والشاحنة ناظرًا إلى الطريق، والتلة المرتفعة من خلفه. وقال: «أريني.»

فالتففتُ من حول الشاحنة ووصلت إلى الطريق. كان ما يزال يحمل بقعة رطبة حيث غسلتُ دماء روث.

قلت: «هنا. هذا هو المكان الذي كانت روث واقفة فيه.»

«في مواجهة التلة؟ وكان السيد أنسل متجهًا إلى أسفل المُنخفَض؟»

«أجل، إلى السوق. انظر، التفاح هناك، سقط من شدة سرعته وهو ذاهب إلى أم روث ليخبرها. أجل، كانت واقفة هناك.» أضفتُ وأنا أتجه إلى حيثُ كنتُ واقفة: «وأنا كنتُ هنا. والحصانان كانا أمامي مباشرة، والعربة والسيد أنسل كانا هنا.» أشرت بيدي وأنا أحاول رسم شكل عربة على الهواء.

«إذَن، فقد أتى الحَجَرُ من جوار التلة هناك؟»

رفعتُ عيني ناظرةً إلى التلة المواجهة. كانت منحدرة، وكانت تعج بالأشجار والشجيرات التي ضربت جذورها في كل الأماكن الممكنة، فيما كانت حواف صخور الأردواز منتشرة في كل أنحائها، وكان الوادي الصغير الواقع أسفلها مليئًا بالحَصى المتساقط.

«لا بد أن يكون كذلك، على حد ظني، لأن هذا هو المكان الذي كانت روث مُواجِهة له.»

وقف والدي واضعًا يدَيه على فخذَيه متأملًا جانب التلة المنحدر. ثم قال: «إذَن، فالعربة والحصانان وأنتِ؛ كلكم كنتم بين روث والتلة.»

أومأتُ قائلة: «هذا صحيح.»

قال مفكِّرًا: «أي إنَّ الحجر لا يُمكن أن يكون قد انفصل، وسقط تلقائيًّا من المنحدر، وارتدَّ من الوادي الصغير، وإلَّا اصطدم بالحصانَين أو العربة قبل أن يصيب روث. لا بد أنه قد جاءَ من مكان أعلى ليتجاوزكم جميعًا ويصيبها.»

لم يكُن ذلك سؤالًا؛ ولذا لم أرد.

وعلى حد علمي، لم يتسلق أحد تلك التلة في فترة الاستراحة، مع أنَّ الأولاد أحيانًا كانوا يلعبون لعبة «ملك الجبل» عند انتهاء اليوم الدراسي، وكانوا يُمسكون بالأغصان وهُم يتسلَّقون، ويستندون بأقدامهم إلى مواطئ على حواف الصخر، وبطولِ جذوع الأشجار. ونتيجةً لهذا؛ فإنَّ حركة الأرانب والغزلان والأولاد على التلة قد خلقت مساراتٍ متعرِّجة، تُبين أسهل الطرق لصعود التلة والنزول منها.

«وهل رأيتِ أي أحد في الأعلى هناك عند حدوث ذلك؟»

أومأتُ برأسي بالنفي. وقلتُ: «كنت أنظر إلى الحصانَين والسيد أنسل. وبعد ذلك كنت أنظر إلى روث.» وعندئذٍ بدأت شفتاي ترتجفان.

قال والدي واضعًا يده على رأسي: «حسنًا يا أنابل. لا بأس. لسنا مضطرين إلى الحديث عن ذلك الآن.» لكنه التفت ونظر إلى أعلى التلة مجددًا، وعرفتُ أنَّ المسألة لم تنتهِ عند ذلك الحد.

الفصل الثامن

فقدت روث عينها. هكذا بهذه البساطة.

عرفتُ هذا لاحقًا في ليلِ ذلك اليوم من أمي. في مثل هذه الحالات، ربما كانت معظم الأمهات سينتظرن حتى صباح اليوم التالي إلى أن يذكرن خبرًا كهذا، لكن أمي لم تفعل ذلك. كانت تعرف أنني كنتُ سأحلم بكوابيس في كل الأحوال. كان كلُّ شيء على وشك أن يسوء، وانتظار المواجهة ما كان ليغير ذلك.

«كان من الممكن أن أكون مكانها»، هكذا قلتُ لأمي عندما جاءت وجلست على حافة سريري في الظلام، وقالت لي إنَّ الطبيب لم يستطِع إصلاح عين روث. قالت إنه ما من أحد يستطيع إصلاحها. فقد قضى الحَجَرُ على الأجزاء المسئولة عن الرؤية. كان هذا ما قالته أمي.

قالت لي وهي تداعب شَعري: «أجل. كان من الممكن أن تكوني مكانها يا أنابل. لكني أظن أنَّ المقصود بالحَجَرِ كان السيد أنسل أو حصانَيه أو حتى تفاحه. ليس أنتِ. ولا روث.»

«لماذا تظنين ذلك؟»

تنهَّدَت أمي. وقالت: «حسنًا، السيد أنسل ألماني يا أنابل، والكثيرون هنا مستاءُون من الألمان. صحيح أنَّ هذا الوضع قائم منذ الحرب العالمية الأولى، لكنه اشتد الآن، خاصة ونحن نعيش حربًا عالمية أخرى. هذه ليست المرَّة الأولى التي يحاول فيها شخصٌ ما أن يؤذيه، لكنهم قبل ذلك كانوا يكتفون بصبِّ غضبهم على محاصيله أو شاحنته. كانوا يكتفون بكسر نوافذ بيته. وربما بوضع جرذان نافقة في صندوق بريده.»

فقلتُ لها: «لكنَّ السيد أنسل عاش هنا معظم حياته.»

«أعرف ذلك. وأنتِ تعرفين ذلك. لكنَّ هذا لا يُحدث أي فارق لدى بعض الناس. فهو أقرب شيء مُتاح لهم، وهُم يريدون شخصًا ليُلقوا اللوم عليه.»

«مَن هؤلاء؟»

عضَّت أمي شفتَها. وأجابت دون أن تنظر إليَّ. قالت: «أناسٌ فقدوا أبناءهم أو آباءهم أو أشقاءهم في الحرب. سواءٌ هذه الحرب أو الحرب السابقة. أناس شاركوا في الحرب وعادوا إلى الديار غاضبين أو مصابين. الغالبية العظمى في الحقيقة، لأننا كلنا نعرف جنودًا يخوضون الحرب هناك وهم يواجهون الخطر بسبب الألمان.»

وهنا تذكَّرتُ النجوم الذهبية المعلقة على الراية في الكنيسة، التي تعبر كلٌّ منها عن كل زوج أو أخ أو ابن لم يعُد إلينا. تذكرتُ توبي بصَمتِه وبنادقه.

«ولكن كيف أمكن لأيِّ شخص في المُنخفَض أن يعرف أنَّ السيد أنسل سيكون مارًّا من هناك حينئذٍ بالتحديد؟ كان على الفاعل أن يكون موجودًا فوق التلة آنذاك بالفعل.»

هزَّت أمي كتفَيها. وقالت: «لا أعرف يا أنابل. كل ما أعرفه أن لا أحد كان يحاول إيذاء روث. ما أصابها كان مجرد حادثة من سوء حظها.»

غير أنَّ هذا لم يهوِّن الأمر بل زاده سوءًا. فكيف يُفترَض بأي شخصٍ أن يقف منتصبًا متيقظًا، في حين أنَّ الحظ هو الذي يقرِّر كل شيء؟

بدأ اليوم التالي صعبًا وصار أصعب.

كانت وجبة الفطور هادئة. حتى شقيقاي كانا صامتَين صمتًا مطبقًا. لم أكُن أفكر في أي شيءٍ سوى روث، وكيف ستكون حال المدرسة بدونها في ذلك اليوم.

بدأتُ أبكي رغمًا عني، ولكن بأقصى هدوءٍ ممكن.

قالت عمتي ليلي: «آه يا أنابل، وما الذي يستحق هذه الدموع الآن؟»

فقالت جدتي دون أن تنظر إليها: «حتى يسوع بكى يا ليلي»، فردَّت عمتي قائلة: «لسبب وجيه، ولا أستطيع القول إنَّ هذه المسألة ترقى إلى أن تكون كذلك.»

فقالت أمي بنبرة حادة بعض الشيء: «هل تقصدين فقدان روث لعينها؟ تقصدين تلك المسألة؟»

ردَّت العمة ليلي على ذلك بشيء من الانزعاج قائلة: «حسنًا، إذا كان هذا هو أصل الموضوع، أظن أنني قد أسأت الحُكم على ظاهره.»

دائمًا ما كانت العمة ليلي تقول أشياء كهذه، لكنها نادرًا ما كانت تعترف بخطئها.

لم أقُل أي شيء على الإطلاق.

تناول جيمس وهنري فطورهما بصخبٍ وسرعة، كجروَين صغيرَين.

أما والدي، فقد احتسى قهوته ببطء وهو متجهم الوجه وهائم.

قال قبل أن نخرج أنا والولدان من الباب: «ابقوا بعيدين عن الطريق والتلة في فترة الاستراحة. الزموا الجانب الآخَر من المبنى المدرسي، بجوار الأحراج. فأنا أعتزم اكتشاف ما حدث لروث. وحتى ذلك الحين، لا تقربوا التلة. أتفهمون؟»

أومأنا بالإيجاب.

ثم قال للولدين: «اعتنيا بأختكما»، وكان هذا أشبه بأن يطلب منهما الطيران إلى القمر.

لكنَّ الولدَين أيضًا فاجآني؛ إذ انتظرا على غير العادة حتى وصلنا إلى الحقول الواقعة على المنحدر المؤدِّي إلى مُنخفَض «حفرة الذئاب» قبل أن يتركاني راكضَين؛ ليخيفا طيهوجًا عند حافة الأحراج، ثم اختفيا في آخر الممشى وسط الأشجار بدوني.

وعندما وصلت إلى منعطف الممشى، رأيت بيتي تجلس أمامي على جذع شجرةٍ مقطوع، فانتابني شعورٌ بالأسى على أنَّ الهدنة قد انتهت، وأنها ستستهدفني مجددًا.

لكنَّ شعورًا آخَر قد انبثق بداخلي وحلَّ محله.

لا أستطيع أن أسميه شجاعة؛ لأنَّ هذا ما يشعر به الناس عندما يكونون خائفين، لكنهم يفعلون شيئًا صعبًا رغم خوفهم.

ولا أستطيع أن أسميه غضبًا، مع أنني كنت غاضبةً من بيتي؛ بسبب الكدمات التي أصابتني بها، والتهديدات التي توعَّدتني بها، والسُّمْنة التي قتلتها.

أظن أنني كان من المفترض أن أشعر بالخوف والغضب معًا، لكنَّ روث قد فقدت عينها في اليوم السابق، وما شعرتُ به في هذه اللحظة وأنا أنظر إلى وجه بيتي الجامد كان أشبه بشعور اللامبالاة. كانت تبدو في صباح ذلك اليوم تافهةً وضئيلةً، حتى حينما ظهرت أمامي.

قلت بنفاد صبر: «ماذا تريدين؟»

نظرت إليَّ بفضول. وقالت: «أتحسبين أنني سأتركك وشأنك لمجرد أن ذاك الرجل المجنون طلب مني ذلك؟ أو لأنَّ صديقتك الصغيرة أُصيبَت؟»

فقلت: «ليست إصابة عادية. لقد فقدت عينها يا بيتي. هل عرفتِ ذلك؟»

أشاحت بيتي بنظرها بعيدًا. وقالت: «أخبرتني جدتي بذلك. أنا متيقنة من أنَّ شخصًا ما كان يستهدف ذاك الألماني القذر. وليس هي.»

فقلت: «السيد أنسل ليس قذرًا. أنتِ لا تعرفينه أصلًا.»

رفعت حاجبَيها. وقالت: «ربما لا تعرفين الكثير عمَّا يحدث في العالم الخارجي بعيدًا عن هذه الأحراج، لكني أعرف. ربما يتظاهر بأنه لطيف ومرِح جدًّا، لكنَّ الألمان مُؤذون يريدون السيطرة على العالم. وسيفعلون ذلك إن استطاعوا.»

لاحظتُ قشرةَ جرحٍ حديثة على شكلِ خط أحمر طويل على خد بيتي، كما لو أنها قد دخلت وسط نبات العُلَّيق، وكان جورباها مليئَين بكُريَّات عُشبية شوكية لاصقة. استغربتُ خروجها وسط النباتات الكثيفة الشائكة في وقتٍ مبكِّر جدًّا من اليوم. وبعد فترة وجيزة جدًّا من إصابتها باللبلاب السام التي جعلتها طريحة الفراش.

قلتُ لها: «أنتِ المؤذية الوحيدة التي أعرفها يا بيتي. لكنك ستتركيني وشأني الآن. ليس لأن توبي قال ذلك. وليس لأن روث أُصيبت. لكنك ستفعلين ذلك. لن أعطيك أي شيء. ولن أشغل بالي بكِ. ولن أهرب منك. لن أفعل أي شيء. لذا فمن الأفضل أن تتركيني وشأني وتبدئي فعل شيء آخَر.»

انتظرتُ وأنا أنظر إلى وجهها مباشرة، عازمةً على المواصلة حتى النهاية. أردت أن أنهي المسألة مع بيتي تمامًا. إذا كانت ستؤذيني، يمكنها أن تؤذيَني في التوِّ واللحظة، ويمكنني أخيرًا أن أفعل شيئًا حيال ذلك قبل انتهاء اليوم.

لكنها لم تفعل أي شيء سوى أنها قضت لحظة أخرى في التفكير. وتنحَّت بعد ذلك جانبًا.

لم أشعر بالارتياح. لم أكُن سعيدة بتركي وحدي. لم أكُن أشعر بأي شيء تقريبًا. كل ما كنت أشعر به هو حزن شديد وتعب لم أعهده من قبل. لم أكُن أريد شيئًا سوى أن أختبئ في علية التبن في الحظيرة وأشاهد الحمائم الجبلية وهي تغفو في العوارض الخشبية. لم أكُن أريد سوى أن أغمض عينيَّ ولا أفكر في أي شيء إطلاقًا. لا روث. ولا السيد أنسل. ولا الألمان. ولا بيتي جلينجاري.

لكن لأنني لم أكُن أستطيع العودة إلى الحظيرة، كانت المدرسة ثاني أفضل خيار مُتاح لي، وقد تركتُ نفسي للانهماك في دروسي. لم يأتِ آندي إلى المدرسة في صباح ذلك اليوم؛ ولذا استعاد بنجامين مقعده المعتاد، ولم يجلس معي أحدٌ حيثما كانت روث تجلس عادةً، وقضينا كلنا الصباح بهدوء.

وعندما حانت فترة الاستراحة، جلستُ على الدَّرَج مع بعض الفتيات الأخريات، حيث شرعت في صنع تيجان من العشب الطويل، ورحت أخمِّن ما قد تكون روث تفعله بدلًا من ذلك. كنت أراقب شقيقيَّ طوال ذلك الوقت، لكنهما لم يقتربا من الطريق أو التلة الواقعة على الجانب الآخَر منه. كانا يقضيان وقتهما كالعادة في التسابق من هنا إلى هناك، وإعداد فطائر من الطين في الوحل المحيط بالبئر، ورمي الصخور من خلال تفرُّعات أغصان الشجر.

كانت بيتي واقفة تشاهدهما وهي عاقدة ذراعَيها أمام جسدها. لم تلعب قَط. وعادةً ما كانت ترحل إلى مكانٍ ما مع آندي، ولكن لأنه لم يكُن موجودًا اليوم، جلست وحدها وانتظرت انتهاء فترة الاستراحة. كانت في ذلك اليوم تبدو أشد تحفُّزًا من المعتاد. لكنها لم تنظر إليَّ ولا مرَّة طوال الوقت؛ ولذا لم أعرها اهتمامًا كبيرًا بدوري.

وبعدئذٍ، وفي اللحظة التي كانت السيدة تايلور تنادينا فيها لنعود إلى المبنى المدرسي، دخل آندي الفناء وهو يمشي على مهل.

اتجهت بيتي نحوه لتلاقيه في منتصف المسافة عَبْر الرقعة الخالية من الأشجار، وقضيا لحظة معًا وهما يتحادثان ويرمقانني بنظرات خاطفة، ثم تبعانا إلى داخل المدرسة. تساءلت في نفسي عمَّا كانا يقولانه وعن علاقته بي.

ظلَّ آندي وبيتي بقية اليوم يتبادلان الرسائل القصيرة والنظرات، وتجاهلا السيدة تايلور عندما طلبت منهما الانضمام إليها عند السبورة لحل بعض المسائل الرياضية، وكانا أول اثنين خرجا عندما أذنت لنا بالانصراف.

وبحلول الوقت الذي خرجت فيه من مبنى المدرسة، لم يكونا موجودَين إطلاقًا في نطاق رؤيتي.

ولذا لم أكترث عندما انطلق شقيقاي نحو المنزل وهما يتسابقان إلى أعلى التلة، واختفيا عن أنظاري بحلول الوقت الذي وصلتُ فيه إلى أول منعطف في الطريق.

بالرغم من ذلك، كنت أسمعهما. فأولًا سمعت صوتهما يتسابقان بعيدًا. ثم سمعت وَقْع أقدامهما المكتوم على الأرض. ثم سمعت كلمة «مرحى!» بصوتٍ لاهث، ثم همهمة الحصى الطليقة على الممشى. ثم سادت فترة من الصمت بينما كانا يبتعدان عني مسافة أكبر. ثم دوت صرخة. ثم أتى صوت هنري وهو يناديني.

فركضتُ إليهما فوق تلك التلة بسرعة شديدة، وكأنها كانت أرضًا مستوية.

وجدتُ هنري جاثيًا على ركبتَيه ومنحنيًا فوق جيمس، الذي كان ممددًا على ظهره في المشى وهو يبكي وجبهته مضرجة بالدماء.

فارتميتُ جاثيةً على ركبتيَّ بجوارهما.

قال هنري: «لا أعرف ماذا حدث. كان جيمس أمامي، وفجأةً وقَع على ظهره من تلقاء نفسه وبدأ يبكي.»

فقال جيمس منتحبًا وهو ينقلب على بطنه ويحاول القيام على ركبتَيه ويدَيه: «لا، لم أقَع من تلقاء نفسي.» أشار بطول المشى، حيث كان يوجد أمامه بالضبط سلكٌ مشدود بإحكامٍ بين شجرتين.

وقف هنري ليُلقيَ نظرةً أقرب، وعندئذٍ رأيتُ أنَّ السلك كان سيُصيبه في رقبته لو كان هو المُتقدم على جيمس في سباقهما.

مرَّر هنري إصبعه على السلك فانتفضَ إلى الوراء. وقال: «إنه حادٌّ هنا بالضبط فوق المشى. كأنَّ شخصًا ما قد بَرَده بمبرد.»

دخل بقدمَيه وسط أجمة الشجيرات وفكَّ السلك من إحدى الشجرتَين اللتين كان مُثبَّتًا بهما. ولفَّ السلك بعناية وتركه مُتدلِّيًا من الشجرة الواقعة على الجانب الآخَر من المشى.

استخدمتُ كُمِّي لتجفيف الدم النازف من وجه أخي. كان الجرح عميقًا لدرجة أنه نزفَ كثيرًا، لكنه لم يكُن خطرًا.

قلتُ لجيمس وأنا أساعده ليقف: «هيا تعالَ. سنُعالج جرحك وتصبح على ما يُرام.»

أخذتُه من يده فطاوعني وهو ما يزال ينتحب. سار هنري أمامنا متيقظًا، وهادئًا وجادًّا كالثور. وكان يستدير من حينٍ إلى آخَر لينظر إلينا أنا وجيمس. وبينما كنَّا نعبُر الحقل المحروث على حافة التل، استدار ثم توقف فجأةً. نظرت إلى الوراء فرأيت بيتي واقفة تراقبنا عند فتحة المشى المؤدِّي إلى المُنخفَض.

قلتُ لهنري: «ليس الآن»، وبدا أنه فهم قصدي. وقفَ ساكنًا تمامًا وراقبها بينما كنتُ أنا وجيمس نمضي مُسرعَين. فقلت له مجددًا: «ليس الآن.» فاستدار ليتبعنا إلى المنزل.

لم يكُن السلك موجودًا عندما عُدت مع والدي إلى المكان الذي وجدناه فيه من قبل.

قلتُ له: «أنا واثقة من أنه كان هنا. عند ذلك الجزء الناتئ من جذر الشجرة بالضبط. لقد تحقَّقتُ من ذلك عندئذٍ كي لا أنسى.»

خرجَ والدي عن الممشى ووضعَ إصبعه على الحزِّ الباهت الذي أحدَثَه السلك في الشجرة. وكان يوجد حزٌّ آخَر مُشابِه على الجانب الآخَر من الممشى. قال لي: «ذاكرتكِ سليمة يا أنابل. هذا هو المكان الذي رُبط فيه السلك.»

نادرًا ما كان أبي يغضب. فعادةً ما كانت أمي أسرَع غضبًا منه؛ لذا لم يكُن يوجد داعٍ إلى أن يغضب هو الآخَر. لكن الوضع كان مختلفًا هذه المرَّة.

قال بهدوء: «شخصٌ ما يحمل ثعبانًا داخله، وقد استيقظ ذلك الثعبان.»

استغربت هذا الكلام منه بشدة. كان يبدو أشبَه بقس كنيستنا، أو عمتي ليلي حين تنفعل في كلامها، مع أنه في الأغلب لم يكُن من نوعية المتدينين المتشددين.

قلت له: «لكن الفاعل ليس ذكرًا، لا أظن ذلك. أو إذا كان ذكرًا، فقد شاركته أنثى أيضًا. على الأرجح. أو هذا ما أظنه على الأقل. أقصد أنَّ أنثى هي التي فعلَت ذلك.»

نظر والدي إليَّ بفضول. وقال: «سيكون الأمر أسهَل إذا أفصحتِ عمَّا تقصدينه بسرعةٍ وصراحة.»

«وهذا ما سأفعله. كلُّ ما هنالك أنني لا أستطيع التيقُّن؛ لأنني لم أرَها تفعل ذلك. لكني واثقة، على حد ظني. لا بد أنها هي مَن أقصده. إلا إذا كان آندي هو الفاعل.»

كان الجو باردًا في الأحراج، وكان الضوء يتلاشى بسرعة؛ ولهذا سررت عندما اتجه والدي فجأةً إلى الحقول المفتوحة من فوقنا، وتبعته. أمسك يدي ونحن نعبُر الحقول، وتمهَّل في مشيته لأستطيع مسايرته، وتوقَّف عند أعلى الزقاق ليقطف دزينةً من التفاح من أجل المربَّى التي كانت أمي ستُعدُّها في مساء ذلك اليوم. ثم ذهبنا معًا إلى أسفل الزقاق خلال الأشجار التي كانت أغصانها ممتدةً من فوقه، واتجهنا نحو المنزل.

وبعدما دخلنا المنزل، وأصبحنا نشعر بالدفء، وأمضينا لحظةً مع جيمس (الذي وصفه والدي بأنه «رجل صغير صالح») ولحظةً أخرى مع أمي (التي رمقتنا نحن الاثنين بنظرةٍ طويلة)، أجلسني والدي في الغرفة الأمامية، التي كانت أهدأ من المطبخ، وطلب مني أن أبوحَ له بما يجول في خاطري.

ومن ثمَّ، قلتُ له كل شيء من البداية. كل شيءٍ عن بيتي وتهديداتها. والكدمة الشبيهة بثمرة خيار التي أحدَثَتها في فخذي. وأخبرتُه عن آندي وبيتي وكيف أنهما صارا صديقَين بهذه السرعة، وكيف أنهما كانا يتخفَّيان عن أعيُن الجميع ويختلسان نظراتٍ ماكرةً طَوال الأيام الماضية. وعن طائر السُّمنة وما فعله توبي. أخبرته أيضًا عن مجيء آندي متأخرًا إلى المدرسة في صباح ذلك اليوم، وكيف أنهما كانا متلاصقَين في فناء المدرسة طَوال فترة الاستراحة وهما يتهامسان.

أنهيتُ ما أردت قوله، وهنا أدركت، بشعورٍ من الإحباط، أن لا شيء ممَّا قلته بدا بهذا القدر من السوء الذي كان يبدو به آنذاك إطلاقًا، مع أنَّ ذكرى كَسْر عنق ذلك الطائر ستُلازمني بقية حياتي. قُلت: «إنها مؤذيةٌ بشعة. لكني لا أعرف حتى الآن لماذا كنتُ خائفةً جدًّا منها هكذا.»

«ولماذا لم تُخبرينا يا أنابل حالما بدأَت تفعل ذلك؟»

قلتُ: «لقد حدث ذلك على أوقات متفرِّقة، وليس دفعة واحدة، ولم يكُن من السهل معرفةُ ما ينبغي فعله طَوال ذلك الوقت.» وهنا شعرتُ بأنني حمقاء جدًّا. وأضفت: «وفوق ذلك، لقد قالت إنها ستؤذي الولدَين إذا أخبرت أي أحد. وها هي قد بدأت تنفِّذ تهديدها وآذَت جيمس على أيِّ حالٍ حين لم أمتثل لما قالته.»

وقفَ والدي وفرك فكَّه براحةِ يده. وقال: «لا بأس. سأتدبر تلك المسألة الآن يا أنابل. أنا وأمك. ولكن من الآن فصاعدًا، ستخبرينا فورًا حالما تواجهين مشكلة. أتعِدينني بذلك؟»

وعدته. كان هذا وعدًا سهلًا. فأنا لم أكُن أنوي الكذب على والدي أو والدتي بخصوص أي شيء آخَر. الحق أنني لم أكُن أتخيل مدى التعقيد الذي سيصل إليه الوضع.

الفصل التاسع

كان اليوم التالي هو يوم السبت. أي إنه عطلة من المدرسة. صحيح أنني أؤدي فيه بعض المهام الروتينية المنزلية، لكني أيضًا عادةً ما أحظى فيه بفرصة لأقضي بعض الوقت كيفما أشاء.

لكنَّ هذا لم يحدث ذلك السبت.

فعندما جلست لأتناول الفطور، قال لي والدي: «سنذهب أنا وأنتِ وأمك في زيارة إلى بيت آل جلينجاري عصر اليوم.» وقال ذلك بنبرة حاسمة لا تقبل الجدال.

ومع ذلك قُلت: «هل يجب أن أذهب؟»

أومأ والدي بالإيجاب. وقال: «إنه شيء مهم ينبغي أن تقوليه بنفسك. لكننا سنكون معكِ هناك، وستشعرين بتحسُّن بعد ذلك. لن يصير لديها أي شيء تُهددك به حالما ينكشف كل شيء.»

بدا كلامه صائبًا، لكن رغبتي في عدم الذهاب لم تتغير.

كان جيمس جالسًا على الجانب المقابل لي، وهو يحدِّق بتجهُّم إلى طبق بيضه ويتحسَّس حافة الضمادة البيضاء المربوطة على جبينه.

ثم قال: «هذا الشيء غبي ويُشعرني بالحكة. لا أستطيع التفكير بشكلٍ سليم وهو موضوع على رأسي هكذا.»

فاستجابت أمي بسرعة لذلك؛ إذ لفت حول رأسه رَبطةً على غرار القراصنة. وقالت له: «الآن صرتَ تُشبه لونج جون سيلفر.»

كنا نعرف عددًا من القراصنة، بفضل روبرت لويس ستيفنسون وجدتي، التي كانت تتلو علينا بعض القصص بعد العشاء في أغلب الليالي.

وسرعان ما أصبح جيمس يثب في أرجاء المنزل كالمجنون وهو يصيح كالبحَّارة: «هيَّا يا رفاق»، ويُبارز الهواء بملعقةٍ خشبيةٍ إلى أن أشارت أمي له بالخروج إلى الهواء الطلق وضَوْء الشمس. وهنري معه أيضًا.

ونادتهما بعد خروجهما قائلة: «لا تبتعدا.»

قال والدي وهو يرتدي معطفه متأهبًا للخروج مع جدي: «سنصحبهما إلى الخارج لتقليم الأشجار.» كنا على مشارف موسم عيد الميلاد المجيد، وكان الوقت قد حان لبدء تشكيل أشجار التنوب الصغيرة التي كنا نزرعها بغرض البيع. كان والدي يتكفل بالتقليم، بينما كان جدي يجلس في الشاحنة مع بضعة كلاب مُشرفًا على العملية. وكان والدي في العام الماضي قد ترك الولدَين يتدربان على شجرة تنوب ملتوية، فقلَّماها حتى صارت مسواكًا ممتازًا. وفي هذا العام، كُلِّف الولدان مجددًا بجمعِ البقايا التي تسقط بين الصفوف، وتجميع أفضلها في حُزَم لاستخدامها في إعداد أكاليل الزهور.

هدأ المنزل قليلًا بعد رحيلهما.

رتَّبنا متعلقات الفطور وبدأنا مهام السبت المنزلية، فكانت أمي تكوي في المطبخ، وصار الجو مُعبَّأً برائحة القطن النظيف الساخن، وصوت المكواة وهي تصطدم بلوح منضدة الكي. وكانت جدتي جالسة عند أحد طرفَي الطاولة الكبيرة المصنوعة من بلوط بُنِّي مجزِّع، حيث كانت ترتق بعض الجوارب وتُرقِّع أكواع الثياب.

وكنت أنا أقشِّر التفاح من أجل إعداد الفطائر به، باذلةً قصارى جهدي لأصنع شريطًا طويلًا ملتفًّا من قشرة كل تفاحة. صحيح أنَّ الخيول لم تكُن تقدِّر مجهودي كلما أطعمتها تلك القشور، لكني كنت أحب أن تكون الأشياء جميلة إنْ أمكن ذلك.

أمَّا عمتي ليلي، التي كانت تشعر بالتململ في أيام السبت لأنها بلا عمل ولا كنيسة، فكانت تبذل كل ما بوسعها لتعكر صفو تلك الأيام لكي نكون بائسين مثلها.

قالت لي: «ستُنجزين بوتيرة أسرع إنْ لم تحاولي فعل ذلك»، وأمسكَت قشرةً ملتفة طويلة من أحد طرفَيها، وظلَّت تؤرجحها لأعلى وأسفل كالزنبرك حتى انقطعت.

كدتُ أعرض عليها أن تشاركني تلك المهمة، لكنَّ العمة ليلي لم تكُن بارعة في أداء الأعمال المنزلية.

سألتها: «هل أرسلتِ شريط التصوير؟»

رفعت ذقنها بحدة. وقالت: «بالطبع أرسلتُه يا أنابل. فالإشراف على البريد مهمة جليلة. وحالما يصير في عهدتي، يُفرَز ويُرسَل دون أي تقاعُس إطلاقًا.»

فقلت: «حسنًا، أعرف ذلك. لم أقصد أي شيء.»

أومأت العمة ليلي إيماءة قصيرة. وقالت: «ستحصُلين على الصور الفوتوغرافية قريبًا جدًّا. مع أنني لا أعرف لماذا يحوز ذلك الرجل كاميرتنا، أو يكون له أي حق في شيء يخصُّنا، أقصد كل أفلام التصوير الغالية. نرسلها ثم نستعيدها، وهلمَّ جرًّا. وهكذا يُكبِّدنا مزيدًا من العمل، وما المقابل؟»

هزَّت أمي رأسها لتُبدي استياءها من ضمير الجمع في كلمة «يخصُّنا». فهي التي فازت بالكاميرا وكل المتعلقات المصاحبة لها. قالت لي: «سأزور روث. هل تريدين المجيء معي؟»

حسنًا، لم أكُن أريد ذلك. التفكير في الأمر في حد ذاته أخافني. لكني قلت: «نعم. أريد ذلك.»

وعندما انتهينا من الكي والتقشير والغسيل، ارتديت سترتي واعتمرت قبعتي وخرجت من المنزل مع أمي.

كانت روث مستلقية في فراشها، وكانت البطانية مطوية فوق صدرها النحيل. كانت ترتدي رقعة من الحرير الأسود على عينها. ومن تحت هذه الرقعة تسرَّبت كدمة خضراء مصفرة وانتشرت على خدها. أما بخلاف ذلك، فقد كانت بشرتها شاحبة كسماء فبراير.

وبعدما قضت أمي وأمها بعض الوقت في الاعتناء بها، ثم قعدتا في غرفة الجلوس لتتحدثا، قلت لها: «مرحبًا يا روث. هل تؤلمك؟»

أومأت روث ببطء. لم تقُل شيئًا حتى تلك اللحظة سوى «شكرًا لكِ يا سيدتي»، وذلك عندما أعطتها أمي لفة من الورق المشمع مليئة بقطرات دبس السكر.

«هل ستعودين إلى المدرسة قريبًا؟»

بدأت تهز رأسها بالنفي، لكنها توقَّفت بعدئذٍ. قالت وهي تُبعِد عينَيها عنِّي: «لن يتركني والداي أعود إلى هناك. عليَّ الآن أن ألتحق بمدرسة في سيويكلي.»

ذهلت من ذلك. وقلت لها: «ستقطعين كل هذا الطريق إلى المدينة؟»

«والدي يعمل هناك يا أنابل. نحن لا نعيش هنا إلا لأن جدي ترك لنا هذا المنزل حين مات. لم نكُن ننوي قط أن نمكث هنا طويلًا، لكن المكان هنا كان لطيفًا. كان هادئًا.» وهنا عاودت النظر إليَّ، فرأيتُ أنها كانت تبكي. ثم أضافت: «لكننا سنبيع المنزل وننتقل إلى المدينة الآن.»

تأثرتُ بذلك وبدأتُ أبكي أنا أيضًا، لأنني نشأت طَوال السنوات الماضية مع روث، التي كانت واحدة من أطيب مَن عرفتهم وألطفهم. قلت لها: «أنا آسفة جدًّا على أنكِ أصبتِ.»

اشتدت قَسَمات روث فجأة. وقالت: «لم أُصَب. شخصٌ ما أصابني.»

مسحتُ وجهي. وقلت لها: «هل رأيتِ أي شيء؟»

«كلا. لقد تحرَّك شيء ما على جانب التلة، ونظرتُ إلى أعلى؛ ولذا أصابني الحَجَرُ في عيني مباشرة. لو أنَّ عينيَّ كانتا منخفضتَين قليلًا ...» رفعت ركبتَيها وعقدت معصمَيها تحت ذقنها، وأضافت: «يقولون إنني سأتأقلم مع هذا الوضع. لكني لا أظن ذلك.»

حينها نادتني أمي من مدخل الغرفة قائلة: «حان وقت الذهاب يا أنابل. روث تحتاج إلى الراحة.»

فودَّعتُ روث دون أن أعانقها أو أتمنَّى لها التوفيق. لم أكُن أعرف أنَّ هذه ستكون آخِر مرَّة أراها فيها.

أمَّا زيارة بيت آل جلينجاري، فكانت أسوأ.

كنتُ جالسة بين أبي وأمي على أريكة رثة في غرفة بيت جلينجاري الأمامية، بينما كانت بيتي جالسةً هي وجدها وجدتها على ثلاثة من كراسي المطبخ، متراصين صفًّا على الجانب المقابل لنا، وكان هذا الوضع غريبًا. كانوا جالسين أعلى منَّا، وكانت وجوههم جادة، لكن أبي وأمي كانا هادئين وودودَين عن يميني ويساري.

استهلَّ السيد جلينجاري الكلام قائلًا: «أنا سعيد لأنني حظيتُ بالفرصة لأشكركما. على زهور البلسم. فبحلول الوقت الذي وصلت فيه إلى المنزل من أوهايو، كانت بيتي تتحسَّن بالفعل. نحن في غاية الامتنان لمساعدتكم.»

قالت أمي: «ونحن نَسعد بتقديمها، دائمًا.» وكانت على وشك أن تقول «لكن» وتستطرد.

فقال أبي: «نريد التحدُّث إليكما عمَّا يجري في المدرسة.»

قال السيد جلينجاري: «ونحن أيضًا. لقد أخبرتنا بيتي بأشياء جسيمة جدًّا عمَّا حدث لروث.»

فقالت أمي: «لروث؟ لسنا هنا بخصوص روث. بل بخصوص ما حدث لجيمس، ابننا الأصغر. ولأنابل.»

بدا السيد جلينجاري وزوجته متحيِّرَين.

أمَّا بيتي، فاكتفت بالتحديق إلى عيني مباشرة بكل ثبات.

كان جميع مَن في الغرفة يعرفون سبب مجيء بيتي للعيش في الريف؛ لذا لم أتوقَّع أن يتفاجأ أيُّ أحد بكلامي عندما قلت: «قالت لي بيتي إنها ستؤذيني أنا وشقيقيَّ إذا لم أُحضر إليها أشياء. ونفَّذت تهديدها بالفعل. فأولًا آذتني بعصًا، مرَّتَين، ثم بطائر سُمنة أمسكَته وقتلته، ثم آذَت شقيقي الصغير يوم أمس، بسلكٍ حادٍّ مشدود عبر الممشى المؤدي إلى المدرسة. لكني أظن أنَّ آندي وودبيري ساعدها في تلك المهمة.»

قلتُ ذلك بسرعة شديدة، وأعقبه صمتٌ لحظي قصير.

قالت جدتُها وهي تبدو مشطورة إلى نصفٍ مُذعنٍ لكلامي ونصف مُفعَم بالأمل في ألَّا يكون ذلك صحيحًا: «بيتي؟ هل فعلتِ هذه الأشياء؟»

هزت بيتي رأسها نافية. وقالت: «لم أفعل قط. ما كنت لأفعل ذلك.»

أصررتُ قائلة: «بل فعلتِ، وتعرفين أنكِ فعلتِ. مع أنني أحضرتُ إليكِ بنسًا وحاولتُ أن أكون صديقتك.»

وضعت أمي يدها على ركبتي لتُسكتني. وقالت: «أنابل لا تكذب في مثل هذه الأمور.»

فقال السيد جلينجاري: «لكنَّ بيتي يُمكن أن تكذب؟»، وصحيح أنه لم يبدُ غاضبًا إطلاقًا، لكني رأيتُ إلامَ سيُفضي ذلك في النهاية. تخيلتُ أنَّ جدي كان سيدافع عني، لو كنتُ مكانها، مهما فعلت.

قلت: «اسأل توبي إنْ لم تكُن مُصدِّقًا. لقد رأى ما حدث حين أعطيتها البنس. رمته بعيدًا وضربتني بعصًا، ولديَّ الكدمة التي تثبت ذلك. وعندما قتلت طائر السُّمنة، قال لها توبي أن تدعني وشأني. لكنها لم تفعل. إنها هي التي شدَّت ذلك السلك. أنا متيقنة.»

قالت أمي: «اسكتي يا أنابل. لا بأس.»

قال السيد جلينجاري: «توبي؟ ذلك الرجل الهمجي؟» ثم نظر إلى حفيدته. وقال لها: «أخبريهم بما أخبرتنا به.»

لم تقُل أي شيء، فوضعت جدتها ذراعها حولها وقالت: «لا بأس يا حبيبتي. لا داعي إلى أن تخافي الآن.»

أمالت بيتي رأسها إلى الجانب قليلًا وهي ما تزال تحدِّق إليَّ. ثم قالت: «رأيتُ توبي على جانب التلة فوق المكان الذي أُصيبت فيه روث. لكنه أرعبني؛ ولذا خفتُ من أن أبوح بأي شيءٍ عن ذلك.»

تذكرتُ روث وهي تخبرني بأنها رأت شيئًا ما يتحرك على التلة قُبيل أن يصيبها الحَجَرُ بالضبط. لكن لا يمكن أن يكون توبي الفاعل.

قلت لها: «أنتِ المُخيفة يا بيتي. توبي ليس له أي علاقة بكل ذلك. ما كان توبي ليؤذي روث أبدًا.»

فقال السيد جلينجاري: «بالتأكيد لم يكُن يقصدها. بل كان يقصد الألماني.»

السيد أنسل. الألماني.

كان السيد جلينجاري قد فقد شقيقًا في الحرب العالمية الأولى، وكان واحدًا من أولئك الذين كانوا لا يتحدثون إلى السيد أنسل. أضاف قائلًا: «جُنَّ جنون توبي بسبب ما فعله الألمان به. وإذا كان من المرجَّح أن يكون أي شخص قد رمى صخورًا على رجل ألماني، فسيكون توبي الفاعل.»

فقلت: «لكني لم أرَ توبي، علمًا بأنني كنت واقفة هناك بالضبط على الطريق مع روث.» وقلت لبيتي: «لم تكوني موجودة في أي مكان قريب عندما أُصيبت يا بيتي، فكيف تكونين أنتِ الوحيدة التي رأيته؟»

قالت بيتي: «كنتُ بالأعلى في برج الجرس. لقد أراد آندي أن يريني جرس المدرسة عند خروج الجميع لقضاء فترة الاستراحة. توجد نافذة صغيرة في الأعلى هناك تُطل مباشرة على الطريق والتلة. رأيتُ الحادثة بوضوح أفضل ممَّا تسنَّى لكِ في الأسفل بالتأكيد.»

انحنت أمي إلى الأمام قليلًا. وقالت لها: «لكنكِ لم تقولي أي شيء عن ذلك قبل الآن؟» كان يُمكن القول إنَّ أمي كانت صديقة توبي الوحيدة لو اعتبرنا أنَّ له أصدقاء. كان واضحًا أنها لم تكُن تصدِّق بيتي، ولكن لم يكُن من الممكن تكذيبها؛ لأنني أنا أيضًا قد كتمت سرًّا من قبلُ خوفًا من شخصٍ أكبر حجمًا وأقوى مني، وهي كانت تعرف ذلك.

قالت بيتي: «ظننت أنه سيؤذيني لو كشفتُ عن ذلك.»

ذهلت من مدى الضآلة التي بَدَت بها تلك الفتاة. تلك الفتاة التي قلبت الطاولة دون أي جهد على الإطلاق.

فقلت لها: «آندي لا يخاف توبي. فكيف لم يقُل أي شيء.»

«لأنني أنا الوحيدة التي رأيتُ ما حدث. كان آندي على الجانب الآخَر من برج الجرس، حيث كان يعبث بعشِّ أحد طيور السنونو، وبحلول الوقت الذي جاء فيه إلى النافذة، كان توبي قد رحل. لم أخبره بما رأيته. خفت أن يُلحق توبي الأذى بآندي أيضًا.»

بدَت مرعوبة جدًّا لدرجة أنني كدتُ أصدِّقها.

قلت: «وماذا عن السلك الذي كان مشدودًا بعرضِ الممشى؟ ما كان توبي ليؤذي جيمس.»

فقالت: «ربما يكون هذا صحيحًا، لكني أنا أيضًا أسلك ذلك الممشى. ربما كان توبي يستهدفني به.»

قال السيد جلينجاري: «هذا يكفي الآن. توبي مجنون. الجميع يعرف ذلك. ولا يُمكن للمرء أن يتوقَّع من رجلٍ مجنون سوى تصرفاتٍ مجنونة.»

فيما قالت السيدة جلينجاري: «لا ألوم بيتي إطلاقًا على خوفها من توبي.» كانت امرأة هادئة، وقد فوجئتُ عندما سمعتُ نبرة الحزم في صوتها، لكن الفرصة سنحت لها لتصديق أنَّ بيتي ليست سوى فتاة ذات ضفيرتَين وسترة زرقاء، خائفة من رجلٍ شرير يحمل بنادق أينما ذهب.

قالت أمي وهي تقف: «ربما لا تكون ملومة. ولكن إذا هدَّد أيُّ شخص أنابل مرَّة أخرى، فلن نتحدث مجددًا عن ذلك.»

لم أكُن متيقنة من قصدها بهذه الجملة، ولكن عندما أخذني والدي من يدي ووقفنا بجوارها، شعرتُ كأنني عملاقة. وذلك أشبه بما كنت أشعر به عندما أقف على قمة تلنا وأنظر إلى مُنخفَض «حفرة الذئاب». أو عندما أحمل بيضة طائر في يدي.

وبعدما وصلنا إلى المنزل، ظلَّ أبي وأمي يتحادثان بعض الوقت في الفناء. ودخلتُ أنا إلى غرفتي مباشرة.

كان عالَمي المستقر يدور كمروحة ورقية، وكنتُ أزداد حيرة مع كل لفة للمروحة.

لم أصدِّق أنَّ توبي مجنون. ربما يكون حزينًا. ربما هو هادئ. أو ربما حتى غريب الأطوار لأنه اختار أن يعيش وحيدًا، وينام في كوخ قديم لتدخين اللحم، ويمشي على التلال يومًا تلو الآخَر. لكنه لم يكُن مُصابًا بالجنون. لم يكُن مجنونًا بما يشكِّل خطرًا.

علاوةً على ذلك، لماذا قد يرمي توبي حجرًا من جانب تلةٍ، في الوقت الذي توجد فيه فتاتان وحصانان في الأسفل؟ فلو كان توبي يريد إيذاء السيد أنسل، لوجد فُرصًا مواتيةً لذلك كل يوم، في أماكن مختلفة، وفي أوقات يكون فيها السيد أنسل وحده دون أي فتيات أو خيول بجانبه.

لم يكُن توبي ليُطلق النار على غزال نائم. كان رجلًا يلتقط صورًا لنبات البدفيل. وقد أعاد إليَّ بنسًا مع أنه لم يكُن مُلزَمًا بذلك. ولم يؤذِ أحدًا قط، منذ عودته من تلك الحرب الرهيبة. على حدِّ علمي.

لم أصدِّق أن توبي مجنون. ولا حتى قليلًا. ولم أصدِّق أنه من الممكن أن يؤذي السيد أنسل، سواءٌ أكان ألمانيًّا أم لا. لكن إن كان بيتي وآندي موجودَين آنذاك في برج الجرس، فمن المُحال إذَن أنهما كانا موجودَين حينها على جانب التلة. من المستحيل أن يكونا هما مَن رميا ذلك الحجر.

استلقيتُ على سريري واستغرقت في أفكاري، حتى سمعت والدتي تُناديني لأساعدها في تحضير العشاء. وبضعة أشياء أخرى.

قالت جدتي بينما كنا نغسل البطاطس ونقشِّرها معًا عند الحوض: «لا بد أنكِ قد جمعتِ الآن ما يكفي من الصوف لحياكة سترة.»

فقلت لها: «أي صوف؟» وظللتُ أحرِّك حبة بطاطس في مياه الغسيل، حتى صارت بيضاء.

«إنكِ شاردة، وكأنكِ تجمعين الصوف في أحلام اليقظة طَوال هذا الوقت يا أنابل. لم تتفوهي بأي كلمة.»

هززتُ كتفي. وقلت: «أفكِّر في روث فحسب.»

فقالت: «من الفظيع أن يصاب أحدٌ بذلك، فضلًا عن فتاة لطيفة مثلها.»

فقلت لها: «لكنكِ لا تظنين أن توبي هو الفاعل، حتى ولو بالخطأ، أليس كذلك؟»

كان كلُّ مَن في المنزل، بحلول تلك اللحظة، قد عرفوا بشأن المحادثة التي دارت في بيت آل جلينجاري عصر ذلك اليوم.

كانت العمة ليلي قد استنشقَت تعبيرًا عن ازدرائها، حين سمعت ما حدث، وقالت: «دائمًا ما أشعر بأنَّ رائحة توبي ذلك كرائحة الكبريت.»

فيما قال هنري: «لا، توبي ليس من هذا النوع.»

وقال جيمس بلغة البحَّارة: «كفى يا رفيق.» واعتبرناه بذلك يقصد النفي.

أمَّا جدي، فهز رأسه وتمتم بشيءٍ عن خروف متنكِّر في ثياب ذئب.

كنتُ أعرف رأي أمي بالفعل. أمَّا أبي ... فلم أكُن متيقِّنة من رأيه. لم يتفوَّه بكلمة في طريقنا من بيت آل جلينجاري إلى منزلنا. وهو لم يتحدث إلا إلى أمي منذ أن وصلنا إلى المنزل، وانكبَّ مباشرة على مهامه المنزلية.

قالت جدتي بينما كانت تقطع حبة بطاطس إلى شرائح رقيقة جدًّا، لدرجة أنني استطعت رؤية الضوء من خلال الشريحة: «حسنًا، لا أستطيع الوصول إلى رأي محدد.»

كانت صينية شرائح البطاطس التي تُعدُّها معروفةً بأنها الأشهى في المقاطعة كلها. وأضافت قائلة: «الحق أنَّ توبي غريب الأطوار. وبنادقه تلك التي يحملها تجعلني مرتابة. لكني لم أرَه يتعامل بعُنف مع أي شخص قَط. ولم أسمعه قَط يتحدث بسوء عن الألمان، بمَن فيهم السيد أنسل.»

فاعترفتُ قائلة: «حسنًا، توبي لا يتحدث كثيرًا عن أي شيء أصلًا.»

«أجل هذا صحيح. لكني دومًا أريد أن يحكم عليَّ الناس وفقًا لأفعالي، وأرجو أن أفعل الشيء نفسه مع توبي، الذي لم يُسِئ إليَّ قَط. ولا إلى عائلتي أيضًا.»

جاء أبي ليتناول العشاء في تلك الليلة التي بدأتْ وردية مع حلول المساء، لكنها فاحت برائحه السخام.

وبينما كان يتناول لحم الخنزير الذي أعدَّته أمي، والبطاطس التي أعدَّتها جدتي، والقرنبيط الذي أعددته — والذي كان جيمس يصفه بأنه «أشجار بيضاء صغيرة» ونادرًا ما كان يأكله — قال: «قضيت بعض الوقت مع توبي عصر اليوم.»

فنظرنا كلنا إليه وانتظرنا. أنا بالذات كنت أتساءل عمَّا قاله توبي عن أحداث الأسبوع الماضي.

قال: «كنتُ أنا المتحدث أغلب الوقت. طرقت الباب، ففتحه توبي ودعاني إلى الدخول. لم يكُن يوجد مكان للجلوس سوى الكرسي الوحيد، وما كان لي أن أجلس وأتركه واقفًا؛ ولذا وقفنا هناك نحن الاثنين وكلانا ينظر إلى الآخَر كأننا زوج من الماعز.»

لم يكُن أبي يحب الماعز. فكان ينعتني بالماعزة الصغيرة حين أكون كسولة. وينعتني بالماعزة حين أكون غبية. أو متسخة. وكذلك كان ينعت بقيتنا أيضًا.

انتظرنا تكملة كلامه. فمن المؤكَّد أنه كان يعتزم قول المزيد وإلَّا فما تطرَّق إلى ذكر الزيارة أصلًا.

قال: «ذاك الكوخ الذي يسكنه مكانٌ قاسٍ، مع أنه جعله ألطف قليلًا. وفراشه هناك لا يرقى إلى أن يكون سريرًا، بل هو أشبه بعُشٍّ. كل ما هنالك أغصان من الصنوبر مغطَّاة ببعض الخيش. لا توجد وسادة. البطانية الموجودة هي بطانية قديمة من بطانيات الجيش. حتى الكرسي الوحيد مهجور متهالك. وتوجد حفرة للنيران محفورة في أحد الأركان، بينما لا توجد سوى فتحة صغيرة للتهوية. وتحمل الخطَّافات المعلَّقة في السقف أشياء متنوِّعة عديمة القيمة. لكن ...» وهنا سكت. وأسند ظهره مسترخيًا في كرسيه. ومرَّر راحة يده على

فكه. ثم أضاف: «كانت توجد صور في كل مكان. على الجدران الأربعة. صور لبساتين. وللغابة. والكثير منها يتضمَّن منظر السماء وحدها، عند الغروب.»

سكت لحظة. وقال: «كانت جميلة، وأردت رؤيتها كلها، لكن الضوء كان يتلاشى، ولم أُرِد أن أكون ضيفًا ثقيلًا. فأنا قد ذهبت إليه أصلًا بلا دعوة منه، وبدا متوترًا قليلًا من وجودي هناك. أتصوَّر أنه لا يستقبل زوارًا كثيرين.»

لا أتذكر أنَّ والدي قال كل هذا القدر من الكلام دفعةً واحدة من قبل.

واصلَ قائلًا: «أخبرته بما قاله آل جلينجاري. وما قالته بيتي. سألته عما إذا كان موجودًا آنذاك على جانب تلك التلة. وقال إنَّه ليس لديه سبب لإلقاء حَجَرٍ على أي أحد، سواءٌ أكان ألمانيًّا أم لا.»

قال جدي: «إن كان أي شخصٍ لديه سبب لإلقاء حجرٍ على رجل ألماني، فربما يكون هذا الشخص هو توبي.»

فقالت أمي بحدة: «أو أي شخص فقَدَ أحد أقربائه هناك في الحرب. وكثيرٌ ما هم.»

أضاف والدي: «ثم قال شيئًا غريبًا، وأظن أنني أتذكره على النحو الصحيح. قال: «أحدثا خدوشًا في «حجر السلحفاة.» ولم يقُل أي شيء بعد ذلك، سوى أنه يطلب منكِ يا أنابل أن تحضري إليه صوره حالما تصل.»

هزَّت العمة ليلي شوكتها وهي تشير إليَّ بها. وقالت: «الكاميرا كاميرتنا. وفيلم التصوير فيلمنا. ويقول «صوره.» يعجبني ذلك.»

لكني كنت أتساءل في قرارة نفسي عن «حجر السلحفاة»؛ كان ذلك جلمودًا صخريًّا كبيرًا في مُنخفَض «حفرة الذئاب» يتخذ هيئة صدفة السلحفاة، وتتخلَّله خطوط من الكوارتز بنمطٍ أشبه بالشبكة الموجودة على أصداف السلاحف أيضًا. كان الجميع يعرفون «حجر السلحفاة». وكان يقع في رقعة صغيرة خالية من الأشجار، كأنَّ الأشجار لم تجرؤ على الاقتراب منه، فيما كانت الأرض المحيطة به مغطَّاةً بسراخس وأعشاب مُزهِرة.

كان مكانًا جميلًا لكنه كان مهيبًا أيضًا. وكان لدينا اعتقادٌ دائم بأنَّ الهنود كانوا يستخدمونه في الماضي لممارسة طقوسهم عنده. ولو لم تكُن لدينا كنيسة لممارسة طقوسنا، لكان من المرجَّح أن نختار نحن أيضًا ممارستها عند «حجر السلحفاة».

الفصل العاشر

كانت الأجواء في الكنيسة صباح اليوم التالي كما اعتدناها دائمًا، باستثناء أنَّ السيد جلينجاري وزوجته، اللذين كانا جالسَين في دكتهما خلفنا بثلاث دكك، لم يُلقيا التحية علينا كالمعتاد. شعرت بالأسف حيال ذلك، لكنه لم يكُن شديدًا.

كان أبي محقًّا حين قال إنني سأشعر بتحسُّنٍ بعدما أبوح بمكنون صدري، ولم أمانع في مقابل ذلك الاستغناء عن ابتسامة يوم الأحد المعتادة من آل جلينجاري.

كانت بيتي ترتدي فستانًا مستقيمًا بلا كمَّين من نسيجٍ قطني منقوشٍ بالمربعات، وتحته قميص أبيض ذو ياقةٍ من طراز «بيتر بان»، فبدت في ثوبها هذا حلوة كبازلاء ليِّنة لكنَّ عينَيها كانتا تفضحان حقيقتها.

لم أشغل بالي، وركزت بدلًا من ذلك على أزهار الأقحوان الأرجوانية والصفراء، التي كانت متجمِّعةً في عناقيد حول المذبح والصليب الفارغ المعلَّق فوقه.

شَدَت الجوقة بالترانيم كالمعتاد، فكان السيد سيمونز يُرنِّم من خلال أنفه الضخم، فيما اختلج صوت السيدة لانكاستر أكثر مما كانت شاحنتنا المسطحة تختلج وتهتز، وكنا جميعًا نغني معهم بطُرُقنا المختلفة.

تحدث القس كينل بإسهاب عن تغيُّر الفصول، لكني لم أستطِع فهم هذه المسألة إطلاقًا. كنت ممتنَّة جدًّا للقلم الرصاص الصغير، وظرف التبرعات الذي كان محفوظًا في مكانٍ آمن بجوار كتاب التراتيل، على ظهر الدكة الموجودة أمامي. صحيح أنني لم أستطِع رسم شيء مهم، لكنَّ المحاولة كانت كافيةً لتسليتي وعدم الشعور بالوقت. وكان جدي الجالس بجواري يبدو شاعرًا بالحسد؛ لأنني قضيت معظم الخطبة وأنا أرسم حصانًا.

قال لي هامسًا: «هذا كلب جميل يا أنابل.»

وعندما أخذت أمي الظرف لإضافة بعض العملات المعدنية إلى مجموعة التبرعات، ابتسمت حين رأت الحصان الذي يبدو كلبًا. وقالت: «آملُ أن يُعجَب القس بتبرعك يا أنابل.»

ظننتُ أنَّ كل شيء كان على ما يُرام، وأنه أيًّا ما كانت المشكلات المُقدَّرة لنا، فلتنتظر ريثما نُدركها.

لكن تبيَّن بعدئذٍ أنها هي التي أدركَتنا حين خرجنا من الكنيسة، ووجدنا العريف في انتظارنا بالخارج ومعه آل جلينجاري.

لم يكُن العريف يرتدي شارةً ولم يكُن يحمل سلاحًا، لكن ثكنات شرطة الولاية كانَت في بيتسبرج، وكان أقرب سجن أو محكمة على بُعد مسافةٍ كبيرة؛ لذا كان العريف يتدبَّر شئون الأمن قدر استطاعته، وكان يستدعي القوات إذا لزم الأمر، وهذا لم يحدث قط، على حدِّ علمي.

كنا كلنا نحبه. كان يُدعى العريف أولسكا. كان لديه وجهٌ كبير، ووجنتان حمراوان، وقليلٌ من الشَّعر، ووجهٌ بشوشٌ ضاحك. لكني رأيته ذات مرَّةٍ في معرض المقاطعة يلفُّ ذراعَيه حول مُزارعٍ أفرَط في شرب عصير التفاح المُسكِر، وكان يتصرَّف بحماقة. أمسكه العريف أولسكا آنذاك وثبَّته في مكانه كأنه ليس سوى حزمةٍ من سيقان الذرة، حتى هدأ المُزارع وعاد إلى منزله لينام. لذا كان الناس يعاملون العريف بجديةٍ حين يُقرِّر أن يكون صارمًا.

وقد كان يبدو صارمًا في هذه اللحظة.

قال: «طاب صباحكم يا جماعة. أريد أن أتحدَّث إليك يا جون. وأنتِ يا سارة.»

فتح أبي باب الشاحنة، وأوصل جدي وجدتي إلى داخلها.

صَرَفنا أبي بإشارة منه، فأطعناه وتدافعنا لنصعد إلى مؤخرة الشاحنة، لكننا احتشدنا على مقربةٍ من المحادثة قدر المستطاع.

لم أستطِع سماع كل ما قالوه، لكنني سمعت اسم توبي واسم روث والسيد أنسل. شاركَت بيتي في المحادثة ببعض الكلام، فشعرتُ بالغضب، لكنَّ أبي وأمي كانا موجودَين للتحدُّث نيابةً عني، ورضختُ لذلك.

كان صوت أمي مسموعًا جدًّا؛ لأنها سرعان ما تضايقت مما كان آل جلينجاري يقولونه.

قالت بنبرةٍ منفعلةٍ إلى حدٍّ ما: «ما الذي حدث بحقِّ السماء لمقولةِ إنَّ المتهم بريء حتى تثبت إدانته؟ وما الذي حدث للسماح للمرء بأن يعيش كيفما يشاء؟» كانَت واضعةً قبضتَيها على وركَيها. وأضافت: «دعونا لا نرمِ الصالح مع الطالح.»

وهذا حيَّرني. فأنا لم أكُن أفهم ما الصالح وما الطالح.

وضع أبي يدَه على كتفها، لكنها تجاهلته. أضافت قائلة: «ربما يكون توبي غريبًا، لكنَّ المسألة تقتصر على ذلك. ربما تجعلونه أسوأ من مجرد شخص غريب إذا وضعتموه في مأزقٍ حَرِج، في حين أنه لم يرتكب أيَّ ذنب. وفوق ذلك، لا يحقُّ لكم أن تحبسوا رجلًا لأنَّ فتاةً تقول إنها رأته على جانب تل. وخصوصًا أنها فتاةٌ سيئة.»

صار الجميع يتكلم بصوتٍ عالٍ يصَمُّ الآذان، وكلهم في وقتٍ واحد. كان واضحًا أنَّ أمي سئمَت المسألة برمتها، فصعدت إلى مؤخرة الشاحنة وركبت معنا. تلاها والدي فركب خلف عجلة القيادة، وشغَّل المحرك، ونادى عمتي من خارج النافذة قائلًا: «ليلي!»

لكنَّ عمتي بقيت بضع لحظاتٍ أخرى تتحدَّث إلى العريف، وتومئ برأسها الشبيه برأس الطائر تجاوبًا مع ردوده، ثم اتجهت إلى سيارتها الخاصة. لم تعجبني النظرة التي علَت وجهها آنذاك. إذ كانت تبدو أقرب ما تكون إلى السعادة، وهذا كان شيئًا نادرًا غريبًا جدًّا على العمة ليلي، وكان أغرب في مثل تلك الظروف.

كان غداء يوم الأحد يقتصر في العادة على قولِ دعاء ما قبل الطعام، وتناولِ ما يُقدَّم لنا. ومحادثة قصيرة. وكنا نعكف بعدئذٍ على تنظيف المائدة وترتيبها (بينما تذهب العمة ليلي إلى غرفتها لقضاء فترة العصر في الصلاة والتأمل ... مع أننا كنا نسمع نغمة رقصٍ تتسلل مُنجرِفةً من تحت بابها في بعض الأحيان).

كان الناس يزوروننا في أيام الآحاد من حينٍ إلى آخَر. وفي أغلب الأحيان كنا نقضي اليوم بتمهُّل وهدوء. سعداء بقليلٍ من السكون والراحة.

لكن الوَضْع كان مختلفًا في ذلك الأحد.

قالت والدتي لي ولشقيقيَّ بعد الغداء وهي توزِّع قِطَع فطيرة التفاح، وتسكب عليها القشدة: «أريدكم أن تبقوا بعيدين عن بِيتي جلينجاري في المدرسة غدًا. لا تَقربوها. لا تُكلِّموها. وأخبروا السيدة تايلور إذا فعلت بيتي أي شيءٍ يضايقكم. أي شيءٍ مهما كان.»

وقال والدي: «وأخبرونا نحن أيضًا حين تعودون إلى المنزل. لا تكتموا شيئًا بعد الآن.»

فقالت العمة ليلي: «حسنًا، بصراحة يا أنابل، ألا ترين أنكِ ربما كنتِ تبالغين قليلًا؟ تبدو بيتي فتاةً حلوةً تخشى الرب، وهي شجاعةٌ جدًّا لدرجة أنها أخبرتنا بما فعله توبي، مع أنه أكبر مَصدرٍ للرعب في هذه المقاطعة كلِّها.»

فقلت: «لقد ضربَتني بشدةٍ لدرجة أنها تركَت كدمةً سوداء بحجم ثمرة الخيار. يستحيل أن أكونَ مُبالِغةً في الحديث عن اللون الأسود.»

اعتدلت العمة ليلي وجلست بوضعية أكثر انتصابًا. وقالت بحدة: «لا تشهدي زورًا على جارتك.»

وبالرغم من مرور بعض الوقت منذ أن ضربتني بيتي بتلك العصا، وقفتُ وكشفت فخذي أمام الجميع، وتركتهم يَرَون العلامة التي كانت ما تزال واضحة. ما تزال قبيحةً جدًّا.

أشاحَت العمة ليلي بنظرها بعيدًا. ولم تتفوَّه بكلمةٍ أخرى طوال بقية الوجبة.

بعد انتهاء الوجبة وإتمام ترتيب المائدة، جمعَت أمِّي المستلزمات اللازمة وأعدَّت كِمادةً بينما كنت أشاهدها. أحضَرَت حفنةً من أوراق نبات الشاغة الروسي من حديقة مطبخها وماءً مغليًّا، وهرست المزيج معًا ليُصبح عجينةً ساخنة، ثم وضعَته بملعقةٍ في قطعة قماشٍ نظيفة، وطوَتها بإحكام على شكل مربَّع مُتقَن. أخذَتني إلى غرفتي، وجعلَتني أرقد على جانبي، وضبطَت الكِمَادة على الكدمة.

قلت لها: «لم تعُد تؤلمني.»

فقالت: «حسنًا، يؤلمني أن أعرف أنها موجودة أصلًا. هذا سيزيلها تمامًا.»

كان أكثر ما أسعدني جلوس أمي على حافة سريري، وهي واضعةٌ يدها على الكِمَادة لتبقيها دافئة.

قلت لها: «لم أفترِ على أحد. ما كنتُ لأفعل ذلك.»

«أنا أعرف يا أنابل. العمة ليلي تظن أنها تعرف أكثر ممَّا تعرف. يكفي الحديث عن هذا الآن.»

كنا جالستَين بهدوء، وشعرتُ بوجود مسافةٍ بعيدةٍ بيننا وبين صوت شقيقيَّ في الطابق الأسفل، حيث كانت نبرتهما غير لائقةٍ بيوم الأحد وكانا صاخبَين كأيِّ يومٍ آخَر في الأسبوع.

سألتها: «ماذا سيحدث لتوبي؟»

تنهَّدت أمي. وقالت: «حسنًا، العريف أولسكا ليس لديه معلوماتٌ كافية لاستدعاء القوات والقبض على توبي، وهذا ما يريده آل جلينجاري منه. صحيح أنه لا يُمكن أن يصرف نظرًا عمَّا قالته بيتي، لكنه لا يستطيع القبض على توبي استنادًا إلى ذلك فقط.

لا يستطيع القبض عليه بأي حالٍ من الأحوال؛ لأنَّ الشرطيين الفرسان هم المخوَّلون بالفصل في ذلك القرار وتنفيذه. لذا قال إنه سيتحدث إلى آندي عمَّا قالته بيتي، بخصوص وجودهما في برج الجرس. وسيذهب ليزور توبي أيضًا. وربما يأتي ويتحدث إليكِ قليلًا عن تلك المسألة الأخرى بينكِ وبين بيتي. وسيُحاول معرفة هُوية ذلك الشخص الذي شدَّ ذلك السلك عبر الممشى. سيفعل كل ذلك، لكني لا أعرف بأيِّ ترتيب. ربما حتى قد يتحدَّث إلى توبي مساء اليوم، أو في وقتٍ مبكِّر من صباح غد. حقًّا لا أعرف يا أنابل. لكن كل ما يريده الآن أن يتحدَّث إلى بعض الأشخاص ويكتشف حقيقة الأمر.»

دسستُ يدي تحت خدي، وحاولتُ أن أتصوَّر الشرطي يقرع باب الكوخ الذي يسكنه توبي، وتخيَّلتُ النظرة التي ستعتلي وجه توبي عندما يفتح الباب، ويجد تلك الطامة أمامه على الجانب الآخَر.

«لا أصدق ما يقولونه عن توبي. إنه ليس هكذا.»

«ولا أنا يا أنابل. لكن العريف أولسكا رجل عادل. لا أظن أنه سيفعل أي شيء الآن سوى التحدُّث.»

خشيتُ أن يكون حتى هذا في حد ذاته فوق احتمال توبي. فتوبي كان رحَّالة متجولًا. وتوقعتُ أنه ربما يفكِّر الآن في ترك تلالنا والرحيل إلى مكان جديد.

الفصل الحادي عشر

حلَّ يوم الإثنين.

لم نرَ أي أثر لتوبي في طريقنا إلى المدرسة أنا والولدان. كانت السماء تمطر رذاذًا خفيفًا، وتنذر بالمزيد، وكانت الرياح تهب باردة، ولكن ظلَّ لديَّ أمل في أن أراه على قمة تلٍّ ما، لمجرد أن أتيقن من أنه لم يرحل.

ربما أذهب إلى كوخه بعد المدرسة. لا أريد إزعاجه، بل سأحاول رؤيته خلسة وهو يحتمي هناك من المطر. مع أنه كان يتمشى خارجًا في كل أحوال الطقس وكل فصول السنة، وربما يفعل ذلك في هذا اليوم أيضًا.

لكني قررت الذهاب إلى المدرسة أولًا. فأبي وأمي دائمًا ما كانا يقولان لي إن المدرسة هي وظيفتي الأهم. كنتُ أعرف في ظل وجود شقيقَين لديَّ أنني لن أعمل أبدًا في زراعة هذه الأرض، وأردتُ أن أكبَرَ وأنا امرأة متعلِّمة، بل كان ذلك لزامًا عليَّ.

لا شك أنني كنت سأتعلم في ذلك اليوم بعض الحساب وبعض عواصم الولايات، والسبب وراء الحروب التي خضناها، والتصرف الخاطئ التالي الذي ستتصرفه آن بطلة رواية «جرين جيبلز»، والسبب في أنني ينبغي ألَّا أخلط المُبيِّض بالأمونيا. لكن المهمة الأولى لديَّ هي معرفة ما سيقوله آندي عمَّا حدث.

لقد أمرني والداي بأن أبقى بعيدة عن بيتي، لكنهما لم يأمراني بتجنُّب آندي. صحيح أنَّه كان شخصًا مؤذيًا، لكني كنت أنوي سؤاله عن برج الجرس والسلك الذي كان مشدودًا عبر الممشى.

كان توبي قد قال: «أحدَثا خدوشًا على «حجر السلحفاة»»، وتساءلتُ عمَّا إن كان يقصد بيتي وآندي ... عمَّا إنْ كان ذلك هو المكان الذي شحذا عنده السلك الذي جرح جيمس. تصوَّرتُ آندي واقفًا على أحد جانبَي صخرة «حجر السلحفاة» وبيتي واقفة على

الجانب الآخَر، وتخيلتُ كلًّا منهما ممسكًا بعصًا ملفوف عليها أحد طرفَي السلك؛ ليتسنَّى لهما تحريكه جيئة وذهابًا على الصخرة ليشحذاه، كما لو كانا ممسكَين بمنشارٍ ذي مقبضَين يحتاج إلى شخصَين لحمله.

لكني لم أستطِع فهم كيف خطرت تلك الفكرة ببالهما. أو لماذا قد فعلا ذلك أصلًا. فحتى الذئب لديه أسباب لما يفعله. حتى الثعبان يكون لديه مبرِّر منطقي حين يأكل إحدى بيوض العصافير.

بحلول الوقت الذي وصلنا فيه إلى المدرسة، كانت السماء تمطر بغزارة. كنا نحن الثلاثة نرتدي عباءات من القماش المشمع، وكلٌّ منا قد اعتمر قلنسوته، وانتعل حذاءً طويل الرقبة؛ لذا كنا جافِّين ودافئين جدًّا، لكنَّ العديد من الطلاب الآخَرين جاءوا منقوعين من شدة البلل ومرتجفين من شدة البرد. وللمرَّة الأولى في ذلك الموسم، أشعلت السيدة تايلور نيرانًا في الموقد الموجود في مقدمة الغرفة، وأتاحت فرصةً لأشد الطلاب بللًا ليجفُّوا قبل بَدْء الدروس.

سألَت جيمس وهي تنحني لتنظر إلى الضمادة المربوطة على جبينه: «يا إلهي، ماذا حدث لك؟»

وهنا رمقني جيمس بنظرةٍ خاطفة، فهززتُ رأسي لأنهاه عن قول ما حدث. فقال: «القراصنة.»

أومأَت السيدة تايلور برأسها. وقالت: «هذا ما ظننته.» ثم عادت إلى مقدمة الغرفة.

نادت قائلة: «أولئك الذين ليسوا مبلَّلين جدًّا، تعالوا هنا»؛ ولذا تقدمتُ أنا وشقيقاي وبضعة طلاب آخَرون، وتساءلتُ عمَّا تعتزم فعله بهذه المجموعة المختلطة من الطلاب.

اتضح أنها لن تعطينا درسًا عن عواصم الولايات.

قالت وهي تُلقي نظرةً خاطفةً نحو الباب: «أريد أن أحدِّثكم عمَّا حدث لروث.» فالتفتُّ لأنظر لكن الباب كان مغلقًا، ولم يدخل منه أحد. فأدركت عندئذٍ أنَّ آندي وبيتي كانا غائبَين مجددًا.

لم أتفاجأ بغياب آندي. فمن المرجَّح أنه سيُعفى في مثل هذا اليوم المطير من أداء العديد من مهامه المنزلية، فلماذا إذَن قد يتكبَّد عناء المجيء إلى المدرسة؟ أما بيتي، فتخيلتُ أنها في تلك اللحظة ربما تتزعَّم محاولات إقناع الآخَرين بأنَّ توبي مُذنب. تصورتُها تتظاهَر بالخجل والاحتشام والصلاح، لتظهر بمظهر البريئة، وبذلك قد تنجح في إقناع مَن لا يعرفونها.

الْتَفتُّ مجددًا إلى السيدة تايلور حين نادَتني قائلة: «أنابل!» وكان الأطفال الآخرون ينظرون إليَّ. أضافت: «سألتكِ عن حالك. من المؤكَّد أنَّ رؤيةَ روث تتعرَّض لهذه الإصابة لم تكُن سهلة.»

فقلت: «لا لم تكُن سهلة. لكني بخير.»

تحدَّثَت قليلًا عن أهمية الثقة في الناس، وإخبارهم بما يضايقنا.

قالت: «إذا رأى أيٌّ منكم توبي على جانب ذلك التل، أو أي أحد آخَر أيضًا، أو أي شيء غريب في ذلك اليوم، فينبغي أن تخبروا أحدًا ما. يمكنكم أن تخبروني أو تخبروا والديكم أو القس كينل. أخبروا شخصًا ما يستطيع مساعدتكم لفعل الصواب.»

رفعتُ يدي. وقلت لها: «مَن أخبركِ بأنَّ توبي كان على جانب التل؟»

فقالت: «سمعتُ ذلك في الكنيسة يوم أمس. من آل جلينجاري.»

فكرَّت في ذلك لحظة. وقلت: «تعرفين إذَن أنَّ بيتي هي مَن تقول إنَّ توبي رمى ذلك الحجر؟»

أومأت السيدة تايلور بالإيجاب. وقالت: «أجل، سمعتُ ذلك.»

«إذَن، هل تأذنين لي من فضلكِ بالصعود إلى برج الجرس؛ لأستطيع أن أرى المنظر خارج تلك النافذة؟»

قالت السيدة تايلور وهي في حيرةٍ واضحةٍ من هذا الطلب: «لماذا تريدين ذلك؟»

«لأنَّ بيتي قالت إنها كانت في برج الجرس مع آندي في فترة الاستراحة، حين رأت توبي من خلال تلك النافذة على جانب التل.»

فقالت السيدة تايلور بنبرة متأنِّية جدًّا: «بيتي تزعم أنهما كانا في الأعلى هناك يومَ أُصيبَت روث؟»

أومأتُ بالإيجاب. وكان الأطفال الآخَرون يُنصتون إلى كل ذلك باهتمامٍ أشد ممَّا أنصتوا به إلى كل دروسهم من قبل.

وقفت السيدة تايلور، وذهبَت إلى بابٍ في مؤخرة الغرفة. لم يُفتَح حين حاولت فتحه. عادت إلينا بعد ذلك، مُستغرِقةً في تفكيرٍ عميق.

قالت: «حسنًا. عودوا إلى مقاعدكم واقرءوا الواجبات التي كتبتها على السبورة.»

انضممتُ إلى الأطفال الذين كانوا يجفون حول الموقد. واستطعتُ من مكتبي أن أسمعَها تطلب منهم أن يثقوا في الناس. وأن يقولوا الصدق.

بينما كنت أقرأ عن الحرب الإسبانية الأمريكية، أرهفتُ السمع ترقُّبًا لفتح الباب. ترقبًا لمجيء بيتي. لكنها لم تأتِ.

كانت السماء ما تزال تمطر في أثناء الاستراحة؛ لذا بقينا في الداخل ولعبنا بِكُرات البِلْي الزجاجية، وشكَّلنا أشكالًا مختلفةً بالشرائط البلاستيكية المرنة بين أصابعنا. وقبل أن تطلب منا السيدة تايلور معاودة الاهتمام بدروسنا، جعلتنا نمارس سلسلةً طويلةً من تمارين القفز. قالت: «هذا لتصبحوا أقوياء»، لكني كنت أعرف أنها تحاول أن تفرغ قليلًا من طاقة الأطفال، وخصوصًا الصبيان، قبل فترة ما بعد الظهيرة لكيلا يرهقوها بطاقتهم المفرطة.

وبينما كنا نعود إلى مكاتبنا، فُتح الباب أخيرًا، لكنَّ الوافد كان آندي، وليس بيتي.

خلع قلنسوته، وكان يهتز بكل جسده كالكلب وهو ينظر في أرجاء قاعة الدرس. قال: «أين بيتي؟» وعندما لم يُجبه أحد، قال بصوتٍ أعلى: «يا سيدة تايلور. أين بيتي؟»

التفتت إليه من السبورة. وقالت: «لا أعرف يا آندي. لم تأتِ إلى المدرسة صباح اليوم. ربما كانت مريضة.»

أعاد آندي ارتداء قلنسوته على رأسه. وغادر دون كلمة أخرى.

ظلَّت السيدة تايلور واقفة في مكانها. ونظرت نظرة مطولة إلى المكان الذي كان واقفًا فيه.

وأخيرًا قالت: «ليهدأ الجميع. حان وقت الدروس.»

وفي نهاية اليوم الدراسي، وبينما كان شقيقاي ينتعلان حذاءَيهما المخصصين للوقاية من المطر، أخذتني السيدة تايلور جانبًا، وقالت: «أريد أن آتي وأزور والديكِ بعد وقت العشاء يا أنابل. هل ترين أن هذا سيكون مناسبًا؟»

شعرت برعب شديد من مجرد التفكير في ذلك. قلت لها: «هل ارتكبتُ أي خطأ؟ أنا أو شقيقاي؟»

«كلا يا أنابل، إطلاقًا. الأمر ليس هكذا. كل ما أريده أن أحادث والديكِ بضع دقائق.»

فقلت: «إذَن، لا بأس بذلك بالطبع.»

لم أرِد أن أكون وقحة، لكني كنت أشعر بالفضول، فقلت لها: «هل لديكِ هاتف في منزلك يا سيدة تايلور؟»

«أجل. لماذا؟»

فقلت لها: «لأننا أيضًا لدينا. يُمكنك أن تهاتفيهما، إن شئت.» وكنت أرجو ألَّا أبدو وقِحة.

ابتسمت لي السيدة تايلور ابتسامة طفيفة. وقالت: «يُمكنني. لكن ...» سكتت لتنتقي كلماتها. وتابعت: «حسنًا، أنا متيقنة من أنكِ تعرفين أنَّ السيدة جريبل أحيانًا ما تكون ... فضوليةً ... قليلًا ... حين توصِّل المكالمات الهاتفية.»

هكذا إذَن.

كانت آني جريبل تعيش في منزلٍ صغيرٍ يقع في طريقنا إلى السوق. لم أذهب إلى هناك سوى مرَّة واحدة فقط؛ وذلك لإفراغ حمولة وعاء من الخوخ في أثناء موسم التعليب، لكنها دعتنا آنذاك لندخل منزلها ونشرب كوبًا من عصير الليمون أنا وأبي، وبُهِرتُ حينئذٍ بلوحة مفاتيح التحويل الكهربائية التي هيمنت على غرفتها الأمامية، كأنها نول مليء بثعابين سوداء نحيفة.

كانت تجلس هناك طَوال اليوم، توصل المكالمات فيما بين العائلات التي صار لديها هواتف في تلالنا. وعندما كنا نريد استخدامَ هاتفنا لإجراء مكالمةٍ ما، كان يتوجَّب علينا الاتصال هاتفيًّا بآني وإخبارها بهُوية مَن نريد مكالمته. وعادةً ما كانت تتنصَّت على المكالمات؛ لتسمع آخِر المستجدات التي كانت ترى أنَّ الآخَرين يجب أن يعرفوها.

أصبحنا متأقلمين مع تلك الفكرة. ولم يكُن أحدٌ يجرؤ على البوح بأي سرٍّ عبر الهاتف، خوفًا من أن تكون آني متنصتةً على مكالمته. لكن آني كانت تستغل حتى الأشياء البسيطة؛ لذا تعلمنا أن نبدأ المحادثات بأكثر الأخبار إثارة للملل، على أمل أن يتشتت انتباهُها عن مكالمتنا بسهولةٍ، ويتجه إلى عميلٍ آخَر يتصل من أجل توصيل مكالمته بمَن يريد.

وأيًّا كان ما تريد السيدة تايلور التحدُّث عنه عندئذٍ، لم يكُن من المفترض أن تسمعه آني.

قلت لها: «هل تريدين مني أن أخبرهما بأنَّكِ آتية؟»

فقالت السيدة تايلور: «سأكون ممتنةً لكِ على ذلك.»

انتعلتُ حذائي الطويل الرقبة، وحاولت ربط أربطة قلنسوة جيمس تحت ذقنه، لكنه رفع رأسه فجأةً كالمُهر، وركضَ خارجًا من المدرسة في المطر قبل أن أربطها كما ينبغي. تبعه هنري، ورقص كلاهما في الطين عبر فناء المدرسة الموحل قبل أن يصلا إلى أرضٍ أكثر جفافًا في الأحراج.

لم أكُن راغبةً في السير إلى المنزل وحدي، وسط كل هذا البرد والبلل، لكني لم أجِد بديلًا حتى نادَتْني السيدة تايلور مجددًا. قالت لي: «يُمكنني المجيء لزيارتكم الآن إذا رأيتِ ذلك مناسبًا، ويُمكنكِ أن تركبي معي.»

نادرًا ما كنت أحظى بفرصةٍ لركوب سيارةٍ جميلةٍ كسيارتها. والأهم من ذلك أنَّ الجو في السيارة سيكون دافئًا وجافًّا.

قلت: «أتصور أن أبي سيكون موجودًا في المنزل أو قريبًا منه في يوم كهذا. وأنا متيقنة من أن أمي ستكون هناك. لذا فالوقت الآن سيكون مناسبًا، على ما أظن.»

تبعتها إلى السيارة وصعدتُ إلى المقعد الخلفي، وشعرتُ بأنني أشبه قليلًا بالملكة، حتى أدركت أنَّني أجلس حيث كانت روث جالسة.

سرنا ببطء وحذر إلى المزرعة؛ لأنَّ الطرق كانت مغمورة بالمياه عند بعض الأماكن، لكننا وصلنا إلى هناك دون حوادث.

قالت السيدة تايلور: «ادخلي وتيقني من أنَّ الوقت مناسب للزيارة. سأنتظر هنا.»

ففعلتُ ذلك، فهرعت أمِّي من جانبي بسرعة لتفتح الباب، وأشارت للسيدة تايلور بالدخول.

قالت أمي وما تزال نبرة يوم الأحد الرسمية بادية في صوتها: «تفضَّلي بالدخول يا سيدة تايلور.» كانت تنادي معظم الناس بأسمائهم الشخصية، باستثناء القس والطبيب والعريف والمعلمة.

قالت السيدة تايلور: «شكرًا لك»، وكانت في أثناء ذلك تحاول إفراغ قلنسوتها من أكبر كمية ممكنة من مياه الأمطار قبل أن تدخل المنزل.

فقالت والدتي: «لا عليكِ، لا تشغلي بالك بذلك. فكلهم قد دخلوا دون أن يفعلوا ذلك.» وقالت لي قبل أن أخلع عباءتي: «يا أنابل، اركضي إلى الحظيرة وأحضري والدك.»

لذا خرجتُ مجددًا، وضحكتُ عاليًا عندما رأيتُ شقيقيَّ يتوقفان فجأةً حين رأياني، وهما يمشيان بخُطًى منزلقةٍ على الزقاق الموحل. صحتُ قائلةً لهما: «السيدة تايلور أقلَّتني في سيارتها!» وتوجهتُ إلى الحظيرة وأنا ما أزال أضحك.

علمتني حظيرتنا القديمة أحد أهم الدروس التي تعلمتها على الإطلاق؛ وهو أنَّ الاستثنائية يُمكن أن تكمن في أبسط الأشياء.

فكل فصلٍ من فصول السنة كان يعني ابتداع عالَمٍ جديد داخل حجيرات الحظيرة ومخازنها.

ففي الشتاء، كانت تصير بمثابة جيوب مُفعَمة بالدفء، حيث تكون الأبقار الحلوبة وخيول الجر كالأفران التي تُحفَظ حرارتها بفضلِ ما نعدُّه من فُرُش القش والروث الجديد.

وفي الربيع، كانت طيور السنونو تكتسي بالريش وتَكبر إلى أن تطيرَ من أعشاشٍ موحلةٍ محشورةٍ في شقوقٍ في السقف، فيما كانت الهرر الصغيرة اللينة تمشي مترنِّحة بين الحيوانات ذات الحوافر، وتهاجم أطراف حبال الروافع المتدلية من أوتاد حجيرات الخيل والماشية.

وعندما يحل الصيف، تُعشِّش الدبابير الصفراء في القش، ويُنبِت الشوفان القديم براعم جديدة تشق ألواح الأرضية، وتضع الدجاجات المراوِغة البيضَ في أماكن غريبة حيث يمكن أن ينتج كتاكيت، وتنتشر خطوط أشعَّة الشمس المترِبة عبر الهواء كأنها جسور إلى مكان آخَر.

لكني كنت أحب الحظيرة في الخريف، لا سيما عندما كنت أجد والدي هناك في أغلب الأحيان يصلح عجلات العربة، ويزيِّت وصلات أجزاء العربة، أو يأخذ قيلولة في علية التبن وهو يشخر بهدوء في الضوء الأزرق الخافت، وقد وجدته على هذه الحال بالفعل في ذلك اليوم من نوفمبر.

همستُ في أذنه بهدوء، بينما كان المطر يتساقط بإيقاع ثابت على السقف الصفيحي فوق رأسَينا مباشرة، وكان الحصانان ينبشان الأرض بحوافرهما في انتظار الشوفان ليأكلاه، وقلت له: «السيدة تايلور هنا لتلقاك. استيقظ.»

استيقظ والدي فجأةً من سباتٍ عميق. ونصَب ظهره في التبن، قائلًا: «ماذا؟»

فكررتُ قائلة: «السيدة تايلور هنا لتلقاك.» ثم جلست مستندةً على عقبيَّ. وقلت له: «لديك قشة في شعرك.»

نفضها بعيدًا بيده، وانتزعتُ أنا قطعة قشٍّ عنيدة من التبن، ونهضنا معًا ونزلنا سلم علية التبن، فيما كان والدي يتنحنح لتصفية حَلقه ويهز رأسه ليستفيق.

وبينما كنا نهبط الدرجات الخافتة الإضاءة جنبًا إلى جنب، لننزل إلى حظيرة الخيل والماشية، قال: «كنت أستريح قليلًا فحسب.» مرَّر يدَيه خلال شَعره. وأضاف: «تقولين السيدة تايلور؟»

«تريد التحدث إليك أنت وأمي.»

نظر إليَّ بحدة. وقال: «ماذا فعل جيمس؟»

«لا شيء. ولا هنري أيضًا. لا أعرف الموضوع الذي تودُّ الحديث عنه، لكني أظن أنَّ له علاقة ببيتي.»

تنهَّد والدي وهو يلبس قلنسوته على رأسه. وقال: «لقد سئمتُ كل هذا.» وخرج مباشرةً وسط المطر الغزير.

وبحلول الوقت الذي وصلنا فيه إلى البيت وخلعنا أحذيتنا وعلَّقنا عباءاتنا المبتلَّة، كانت والدتي قد أعدَّت القهوة ووضعت بعضًا من بسكويت الشوفان على طبق. كانت السيدة تايلور تنتظرنا في الغرفة الأمامية، جالسةً على حافة كرسيٍّ ويداها متشابكتَان، كما لو كُنَّا سنبلغها بخبرٍ سيئ.

لكني كنت أخشى أن تكون هي التي تحمل خبرًا سيئًا لنا.

قالت بتردُّد عندما جلسنا كلنا: «أظن أنَّ أنابل يُستحسن ألَّا تكون مشاركةً في هذه المحادثة.»

فقالت أمي: «حسنًا، لا أعرف موضوع «هذه المحادثة»، لكن إنْ كان لها أي علاقة بما حدث لروث، يجب أن تسمعها أنابل بكل تأكيد. لأنها كانَت وسط غمار هذه الورطة منذ البداية.»

أومأت السيدة تايلور بالموافقة. وقالت: «حسنًا، إنْ كنتِ ترَين هذا مناسبًا.» خيَّم عليها الهدوء وشردت بعينَيها لحظةً، ثم رفعتهما وقالت: «فهمتُ أنَّ بيتي تدَّعي أنها كانت في برج الجرس تنظر من خلال النافذة، عندما رأت توبي يرمي الحجر الذي أصاب روث.»

أومأ أبي برأسه. وقال: «هذا ما تقوله.»

تنهَّدت السيدة تايلور قائلة: «لكن هذا لا يُمكن أن يكون صحيحًا. فقبل بضعة أيام من إصابة روث، ضبطتُ بيتي وآندي في الأعلى في برج الجرس خلال فترة الاستراحة. فأشرتُ لهما بالخروج ثم أوصدتُ الباب المؤدِّي إلى درج برج الجرس. وكان ما يزال موصدًا اليوم حين حاولت فتحه. علمًا بأنني أحمل المفتاح الوحيد هنا.» ووضعت يدها على محفظة جيبها.

فقالت أمي بهدوء: «كذبة أخرى.»

فقلتُ: «كذبة كبيرة أخرى»، وعندئذٍ نظر الجميع إليَّ فخفضتُ نبرة صوتي. وأضفت: «ماذا؟ إنها الحقيقة. بيتي لم ترَ توبي يفعل شيئًا. بيتي مؤذية. إنها غاضبةٌ منه فقط لأنه أمرها بأن تدعني وشأني.»

أمسك والدي بيدي. وقال: «لا بأس يا أنابل. لستِ مخطئة. لقد كانَت هذه الكذبة جاهزةً لدى بيتي بالفعل؛ لأنها صعدَت إلى برج الجرس من قبلُ وكانت تعرف ما ستقوله بالضبط.»

تنهَّدَت السيدة تايلور. وقالت: «يبدو هذا صائبًا.»

فقلت لها: «هلا تتفضلين بالذهاب إلى العريف أولسكا وإخباره بذلك؟»

أومأت بالموافقة. وقالت: «سأفعل ذلك. لكني أردتُ أن آتيَ لألقاكم أولًا. فالسيد جلينجاري وزوجته صديقاي، ولم أُرِد توجيه اتهامٍ قبل مناقشة المسألة.»

فقال والدي: «هذا الكلام لا يحمل اتهامًا. إنما تخبريننا بمعلومةٍ فحسب. وسيفعل بها العريف ما يستطيع فعله.»

كنت أشعر آنذاك طَوال تلك الأيام بأنني مشدودة كوترٍ في الجيتار، أئنُّ كلما وقعَتْ مشكلة على رأسي مثلما يرن الوتر كلما نُقِر عليه، لكني أيضًا كنتُ أحظى مثله بلحظاتٍ من الراحة في بعض الأحيان، كهذه اللحظة. فربما بدأ الناس أخيرًا يفهمون حقيقة بيتي.

وقفت السيدة تايلور ووقفنا معها. قالت: «لم تأتِ بيتي إلى المدرسة اليوم. أتصوَّر أنها مريضة في المنزل. ربما يجب أن أذهب وأتحدث إلى آل جلينجاري أولًا قبل أن أذهب إلى العريف.»

هزَّت أمي رأسها لتُبدي اعتراضها. وقالت: «كنا في نفس موقفك عمَّا قريب. لن يُجدي هذا الاقتراح أي نفع. فهما مُصمِّمان على أنَّ بيتي لم ترتكب أي خطأ.»

أومأت السيدة تايلور لتُبدي موافقتها. وقالت: «أظنُّ أنكِ محقة في ذلك. فبيتي فتاة ... غريبة الأطوار، لكنها حفيدتهما.»

لم نتحدَّث عن البقية: عن الأذى البالغ الذي كانت تُلحقه بي، عن شكوكي في أنها هي وآندي قد جرحا جيمس. لكنَّ غطاء الإناء قد فُتِح، وقريبًا سينضح بما فيه من أسرار قذرة.

لا أستطيع القول إنني كنت سعيدة حرفيًّا، لكني لم أكُن آسفة.

الفصل الثاني عشر

كنا جميعًا نائمين في تلك الليلة، وكان المنزل مظلمًا، عندما استيقظنا على طَرْق عنيف على بابنا. كانت الكلاب، التي عادةً ما تنام في كوخ الحطب، تتحدَّث آنذاك بصوت عالٍ مع شخص ما في الخارج، وسمعناه يرد عليها بحزم صارم.

كان المطر قد توقف، لكنَّ الليل خارج بيتنا كان كثيفًا مُحمَّلًا بالهواء الرطب، وبدا العريف أولسكا كأنه يرتدي طبقة من شِباك العنكبوت، فوق معطفه الأسود الواقي من المطر. استمرَّت بضعة كلابٍ في استجوابه، لكنها هدأت بكلمة واحدة من أبي، الذي وقف في حجيرة المدخل مرتديًا ثياب النوم، ومن خلفه أمي تُحكِم رباط ردائها المنزلي، بينما وقفتُ أنا بالقرب منها أختلس النظر، وشقيقاي من خلفي، وجاءت العمة ليلي بخُطًى سريعة لتنضم إلينا؛ كان شَعرها ملفوفًا على بكرات، ووجهها غاضبًا.

قالت: «وما سبب كل هذا الآن بحق السماء؟»

تخيلتُ جدي وجدتي آنذاك جالسين في فراشهما، وهما يأملان ألَّا يُضطرا إلى الانضمام إلى الجَلَبة المنتظرة.

قال العريف أولسكا: «أنا آسف جدًّا لإيقاظك يا جون، وأنتِ يا سارة ... مرحبًا يا ليلي. أعرف أنَّ الوقت متأخر، ولكن هل لي أن أدخلَ دقيقة؟»

قال أبي: «بالطبع.» وتراجع ليسمح للعريف بالدخول.

قال العريف: «ما كنتُ لآتي في هذا الوقت المتأخر جدًّا، لكني مع الأسف لم أستطِع الانتظار حتى الصباح. بيتي جلينجاري مفقودة.»

فقال أبي: «مفقودة؟»

وقالت أمي: «من الأفضل أن تدخل وتجلس.»

وقال جيمس الذي كان شَعره منكوشًا في كل الاتجاهات: «أراهن على أنَّ دُبًّا قد أكلها.»

قال أبي: «عُودا إلى السرير أيها الولدان. الآن.»

وعندما تردَّدا، أخذتهما العمة ليلي من يدَيهما، موبِّخة إياهما بكلمةٍ حادة وفَمٍ جامد مُطبق. قالت: «إلى الفراش، كما قال أبوكما.» ووكزتهما ودفعتهما بأصابعها كأنهما خروفان عنيدان.

وبهذا بدا أنَّه مسموح لي بالبقاء.

كان إشراكي في مثل هذه المحادثات قد أشعرني لوقت وجيز بأنني فتاة بالغة. لكني كنت مستعدة في هذه اللحظة للعودة إلى سن الحادية عشرة مجددًا، والرجوع إلى الفراش كشقيقيَّ. شعرت حينها مجددًا بأنني مشدودةٌ كوتر الجيتار، وتمنيتُ ممَّن ينقر عليَّ، أيًّا كانت هُويته، أن يتحلَّى ببعض الشفقة. فلم يكُن أيٌّ من ذلك ممتعًا على الإطلاق.

قالت أمي للعريف: «تَفضَّل. هيا ادخل الآن. اجلس.»

فنظر العريف نحو الأسفل إلى حذائه المكسو بالوحل الكثيف، وعندئذٍ انسابت المياه من التجويف الصغير الموجود في قبعته. قال لأمي: «أنا مليء بالمياه والوحل يا سارة.»

لكن أمي أمسكته من ذراعه، وقادته إلى كرسيٍّ عند طاولة المطبخ.

قالت وهي تضع بعض القهوة على الموقد لتسخينها: «لقد تعرَّضت للكثير من البرودة والبلل. قليل من الطين ليس مهمًّا.»

جلسنا كلنا، بينما عادت العمة ليلي إلينا في المطبخ. قالت لي: «وأنتِ أيضًا. عُودي إلى فراشك. فهذا ليس حديثًا مناسبًا للأطفال»، وكأنَّ أبي وأمي ليسا جالسَين بجواري هناك.

قال أبي لها: «اتركيها يا ليلي. فربما تعرف أنابل عن تلك المسألة أكثر مما نعرفه.»

خلعَ العريف قبعته ووضعها على ركبتَيه. وقال وهو يُسوِّي شَعره: «جاءت السيدة تايلور لتزورني وسردت لي مسألة برج الجرس برمتها. ناقشنا المسألة، ورأيتُ ما ستئول إليه الأمور، وقرَّرت أن أزور آل جلينجاري في الصباح ... وحينها وجدتهما يأتيان إليَّ ويطرقان الباب.» أضاف وهو يفرك يدَيه معًا ليدفئهما: «كان الظلام قد حلَّ آنذاك. وكانا قلِقَين لأنَّ بيتي لم تعُد إلى المنزل من المدرسة حتى ذاك الوقت. وازدادا قلقًا عندما أخبرتهما السيدة تايلور بأنَّ بيتي لم تأتِ إلى المدرسة أصلًا.»

أومأتُ لأصدِّق على ذلك. وقلت: «اعتقدنا أنها مريضة.»

هزَّ العريف أولسكا رأسه نافيًا. وقال: «لا، خرجت من منزلها متجهة إلى المدرسة كالعادة، رغم المطر. لقد ألبستها جدتها ثيابًا واقية من المطر، ثم شاهدَتْها تمشي بطول الزقاق حتى غابت عن ناظريها، متجهة إلى مُنخفَض «حفرة الذئاب». كدأبها دائمًا.»

نهضت أمي لتصبَّ له بعضَ القهوة. وقالت: «لا يوجد أي أثر يُشير إلى مكانها؟»

«في هذا الطقس؟ الذي يغمرنا بكلِّ طين الدنيا ومياهها.»

قال أبي: «وماذا بعد؟ إذا كنت تحتاج منا أن نقوم بشيء ما ...»

قال العريف: «لقد اختفى توبي. أول ما فعلته هو الذهاب إلى كوخه لأعرف ما إذا كان قد رآها أم لا.» وأضاف فجأةً وهو يرفع يدَيه: «لا؛ لا أقصد بذلك أنه قد اقترف أي جُرم. عندما ذهبت لرؤيته أول مرة، بعدما أُصيبت روث، وجدتُه خارج الكوخ يقطع الأخشاب. وحين أخبرتُه بما تقوله بيتي عنه، ارتسمت نظرةٌ على وجهه، ويجب أن أقول إنها ... لم تعجبني. ولم أستبشر أيضًا بأنه كان يحمل فأسًا في يده آنذاك. غير أنه لم ينطق بأي كلمةٍ ولم يفعل شيئًا. بل عاود العمل فحسب.»

هزَّ العريف رأسه. وقال: «لم يكُن بوسعي فعلُ الكثير عندئذٍ سوى أن أجمع أجزاءً من الأحجية، وأحاول انتظار مزيدٍ من المعلومات قبل تكوين استنتاج معيَّن. ولذا، عندما عُدت إلى هناك الليلة، كنت أعتزم حقًّا معرفة ما إذا كان قد رأى بيتي اليوم. فتوبي يتجول لمسافات طويلة وبذلك يجتاز مساحةً أوسع مما يجتازها معظم الناس، بما في ذلك غابات وبساتين وأماكن بعيدة عن الطريق الواصل بين بيت آل جلينجاري ومبنى المدرسة. لكنه قد رحل.»

فسألته أمي: «كيف تعرف أنه رحل بالفعل؟»

«حسنًا، لستُ متيقنًا. لكنه لم يكُن في الكوخ. ولم تكُن النيران موقدة. وكان الفحم باردًا. ولم أجِد البنادق. ولا الكاميرا. ولا أي شيء.» أطلق تنهيدة عميقة. ونظر إليَّ ثم أشاحَ بنظره بعيدًا.

أضاف قائلًا: «وجدتُ صورًا كثيرة معلقة على كل أنحاء الجدران. كان معي كشَّاف في شاحنتي. قضيتُ بعض الوقت داخل الكوخ أتأمل تلك الصور. وحاولتُ أن أنتزع واحدة، لكنه لصقها بعصارة الصنوبر، وكانت مُثبتة هناك بإحكام.»

أخرجَ من جيبه صورة مجعَّدة وسلَّمها إلى والدي، الذي بَسَطها وتأملها لحظة، ثم سلَّمها إلى أمي.

فقالت: «إذَن؟»

«إذَن؟ ألا تستغربين أن يتسلل رجل غريب الأطوار مثل توبي خلسة، ويلتقط صورًا لابنتك دون أن تَدري؟»

تحركتُ لأقف خلف أمي وأمعنتُ النظر من فوق كتفها. كانت الصورة لي وأنا أسير على الممشى نحو المدرسة. وكان ضوء الشمس القادم من خلال الفروع يُنير وجهي، لكن

باقي جسدي كان يبدو غير واضحٍ في الظل. استغربتُ رؤية شكلي حينما كنت أظن أنني وحدي. لم أكُن أعرف قَط أن توبي كان موجودًا هناك، وسط الأشجار المجاورة، يراقبني.

قالت أمي: «أرى ذلك غريبًا شأن تصرفات توبي الغريبة. لكن هذا لا يعني سوى أنه غريب وحسب.»

فوقفَت العمَّة ليلي فجأةً. وقالت: «لقد أعاد معمل التحميض مزيدًا من صوره في بريد اليوم»، وذهبت إلى غرفتها مسرعة.

وعندما عادت، مددتُ يدي لآخذ الصور. وقلت: «لقد أراد مني أن أعطيه إياها حالما تصل.»

فقالت لي وهي تسلِّم الطرد إلى الشرطي: «حسنًا، لا يُمكن أن تعطيه إياها وهو هارب.»

ففتحه وأخرج الصور من الظرف الموجود داخله، ومَدَّها بعيدًا عن معطفه المبلَّل وهو ينظر إلى كلٍّ منها على حِدَة. أصبح وجهه أشدَّ حدة وهو يشاهد الصور.

احتفظ بإحداها معه، ومرَّر البقية إلى أبي وأمي فنظرا إليها معًا، فيما كانت العمة ليلي قاعدة على الجانب المقابل من الطاولة وهي تتململ بلهفة شديدة ونفاد صبر.

قالت لهما: «ماذا فيها؟ مرِّرا الصور إلى هنا.»

قال والدي: «بعض الأشجار الصفراء. وحقل من اليقطين.» سكت والتفت إلى العريف. وقال: «لكني أظن أنَّ تلك الصورة التي تحملها معك فيها شيء مختلف.»

أومأ العريف برأسه بالإيجاب. ومرَّرها إلى والدي، فتحركتُ لأقف خلفه وأستطيع رؤيتها.

كانت الصورة تُظهِر طريق المدرسة من الأعلى. وصحيح أنَّ أغصان الأشجار كانت تتخلل المشهد، لكني استطعت رؤية حصانَي السيد أنسل، وعربته المليئة بالتفاح. وروث ممددة على الطريق. والسيد أنسل ينزل من عربته. وأنا بجوار كل هذا.

قالت أمي بهدوء: «يا إلهي.»

قلت: «لكن هذا لا يعني أي شيء. فالتقاطه تلك الصورة لا يعني أنه رمى الحجر.»

قال العريف: «يُؤسفني أنه قد يعني الكثير جدًّا، أيتها الفتاة. لا تنسي أيضًا أنَّ بيتي مفقودة وتوبي قد رحل، بعد اتهامها إياه بإيذاء روث، وبعدما ذهبتُ أنا إليه وأخبرتُه بذلك؛ ويجب أن تُدركي أنه كان يعلم يقينًا أننا سنرى هذه الصور تحديدًا في وقت ما؛ وكل هذا يفضي إلى استنتاج مقلق. لكن الشيء الأهم الآن هو العثور على بيتي.»

قالت العمة ليلي: «وذلك الرجل البشع.» كان من المفترض أن تبدو طيبة في ردائها المنزلي وبكرات شعرها، لكنها لم تبدُ كذلك.

التفتَ العريف إليَّ. وقال: «أخبرتني السيدة تايلور بأنَّ آندي كان في المدرسة اليوم يبحث عن بيتي. هل تعرفين أي شيء عن ذلك يا أنابل؟»

هززتُ كتفي. وقلت: «آندي وبيتي بينهما إعجاب شديد.» ثم فكرت في الأمر بُرهة. وأضفت: «عادةً ما يختفيان معًا في فترة الاستراحة. أنت تعرف بشأن برج الجرس بالفعل. وأظن أنها هي وآندي قد شحذا سلكًا وربطاه عبر الممشى. لقد جرح أخي الصغير في جبينه.» وحركتُ إصبعي على جبيني كأنني أرسم خطًّا عليه لأوضح شكل الجرح.

هز العريف رأسه. وقال: «هذه قصة أخرى أحتاج إلى سماعها. لكني الآن سأتحدث إلى آندي. وبناءً على ما سيقوله، سنجمع بعض الأشخاص ونذهب للبحث. أرجو أن تستطيع مساعدتنا في ذلك يا جون.»

حثَّتْه العمة ليلي قائلةً: «وماذا عن توبي؟ بالتأكيد لا أحب فكرة وجود رجل مجنون هارب طليق بالقرب من هنا.» وأحكمَتْ إغلاق ردائها المنزلي على صدرها.

قال العريف: «أظن أنه رحل منذ فترة طويلة. ربما صار الآن على بُعد أميال من هنا. سأخبر ثكنات الولاية بالموقف تحسُّبًا لظهوره في مكان آخَر.»

نهض واقفًا بصعوبة. وقال: «وفي غضون ذلك، ينبغي أن تكون غايتنا الوحيدة هي العثور على بيتي.» وأضاف رامقًا العمة ليلي بنظرة صارمة عابسة: «لا شيء سوى ذلك.»

رفعت ذقنها. وقالت: «ومتى ستعثرون عليها؟»

قال وهو يدسُّ الصورة في جيبه: «أعدك بأنني سأحقِّق في تلك المسألة، لكن اتركوها لي الآن.»

التفت إلى أبي. وسأله: «هل يُمكن أن تنفعنا كلابك في التعقُّب؟»

فقال أبي: «ليس كثيرًا، إلَّا إذا كانت تطارد رغيفًا من اللحم.»

«حسنًا، ربما يُستحسن أن تصحبها معك، فقد تحتاج إليها. ولكن أولًا، آندي. دعوني أسمع ما سيقوله.»

الفصل الثالث عشر

لم يكُن سهلًا عليَّ أن أعود إلى النوم في تلك الليلة.

كنت قد ذهبت من قبل إلى مزرعة آندي لعدة مرات مع أبي؛ لمقايضة بعض منتجاتنا الزراعية بمنتجات الألبان — كالتفاح مقابل الجبن أو البقول مقابل الزبد — لذا لم يسعني إلَّا أن أتخيلها الآن مظلمةً وهادئة، ثم تصورتُ العريف يقرع الباب، فيُضاء نور شرفة المدخل، ويظهر والد آندي بهيئةٍ غير مهندمةٍ لأنه قام من نومه فجأةً. وهو يوقظ آندي بعد ذلك لينزل ويُجيب عن أسئلة العريف.

كنت آملُ أن يكون آندي على دراية بمكان بيتي. ربما أدرَكَت أن كل أكاذيبها كانت على وشك أن تُفضَح وتفضحها فهربت. أو ربما خرجت للاستكشاف، وإنْ كان من المُستبعَد أن تفعل هذا تحت الأمطار، وبدون آندي.

لم أستطِع تخيُّل أنَّ توبي له أي علاقة بذلك. وفي الحقيقة شعرتُ بأنَّ جزءًا من نفسي كان يتمنى أن يكون توبي بعيدًا عن المنطقة بحلول ذلك الوقت. لكنَّ الجزء الأكبر من نفسي كان يرجو ظهوره كالمعتاد.

لو أنه قد ترك الكاميرا معلقة بخطَّاف في كوخه، لصدَّقتُ أنه رحل. فتوبي ما كان ليأخذ كاميرتنا معه، مع أنها كانت كاميرته هو أيضًا فعليًّا.

وعندما أنهكني التفكير أخيرًا ونمت، حلمت ببيتي، لكنه لم يكُن حلمًا واضحًا أو يُمكن تذكُّره. بل محض طيف ضبابي تلاشى حالما استيقظت.

لم يكُن الصباح قد حلَّ بعد. فالأجواء أشد ظلامًا من أن تكون صباحية، لكنها ليست بالأجواء الليلية المعتادة. لم يكُن الليل قد انجلى بعدُ. ورغم ذلك شعرت بوجود حركة في الطابق الأسفل.

وفي هذه المرَّة، عندما نزلت إلى الأسفل، وجدتُ أنَّ أبي وأمي كانا مستيقظَين ومرتديَين ثياب الخروج، فيما كان الفطور جاهزًا على الطاولة، مع أنَّ الساعة لم تتجاوز الرابعة صباحًا، أي أبكَر من الساعة المعتادة لاستيقاظ أيِّ أحد، حتى المزارعين في هذا الوقت من العام. وكان العريف أولسكا جالسًا عند الطاولة يتناول البيض والنقانق.

سألتُ من المَدخل وعيناي ترمشان في الضوء الساطع: «هل وجدتموها؟»

فقالت أمي: «لماذا أنتِ مستيقظة في هذا الوقت يا أنابل؟ ما زلنا في الليل. عُودي إلى فراشكِ ونامي مجددًا.»

فقلت: «لقد أخذت كفايتي من النوم تمامًا. هل عادت بيتي إلى دارها يا حضرة العريف؟»

قال: «لا مع الأسف. سنبدأ البحث حالما يبزغ أول ضوء للنهار. جدُّها وبعض الجيران في الخارج يبحثون عنها بالفعل، لكنهم لن يجدوا أي شيء في الظلام. سنخرج إليهم قريبًا، بنشاطنا وثيابنا الجافة، وسنعثر عليها إنْ كان العثور عليها ممكنًا.»

لم يبدُ لي نشيطًا ولا جافَّ الثياب. خمَّنتُ أنه ظلَّ مستيقظًا طَوال الليل. قلت له: «ماذا قال آندي؟»

رد عليَّ وهو يأكل، وكان يبدو عليه الجوع الشديد. قال: «أنا ووالداكِ كنا على وشك الحديث عن ذلك. آندي مغترٌّ بنفسه قليلًا؛ ولذا كنت أتوقع بعض الكلام الوقح منه، لكنه تضايق جدًّا من الخبر. أخبرني بأنه هو وبيتي كانا يعتزمان ألَّا يحضرا إلى المدرسة، وأن يقضيا اليوم معًا يتسكعان في المَزارع و«يعبثان»، على حد تعبيره.»

هزَّ العريف رأسه. وأضاف: «كان الصبي غرًّا وديعًا في معظم كلامه عن بيتي. لقد زالت منه كل فظاظته. قال إنهما كان من المفترض أن يلتقيا عند «حجر السلحفاة» قبل أي شيءٍ آخَر، في الصباح الباكر من يوم أمس، لكنه اضطر إلى البقاء في المنزل في اللحظة الأخيرة؛ إذ طلب منه أبوه إصلاح سياج. وعندما وصل إلى الحجر، كانت بيتي قد رحلت. فذهب للبحث عنها، وانتهى به المطاف عند المدرسة، واكتشف أنها لم تحضر، فذهب إلى بيت آل جلينجاري. لم يجِد أحدًا هناك. فاستنتج أنهم قد أخذوا بيتي إلى مكانٍ ما. لذا عاد إلى منزله.»

سألتُه قائلة: «هل سألتَه عن مسألة برج الجرس وكل ذلك؟»

فقالت أمي: «ليس الآن يا أنابل. سنجد وقتًا مناسبًا لتلك المسألة عند العثور عليها.»

وهذا كان منطقيًّا، في رأيي، لكني لم أرَ المسألتَين منفصلتَين. كان الموضوع كله، من وجهة نظري، أشبَه بحبلٍ كل أجزائه متضافرة معًا. لكني أمسكتُ لساني.

سخَّنَت أمي قهوة العريف، وتحدث ثلاثتهم عن عملية البحث، بينما أعددتُ فطوري بنفسي وأنا أستمع إليهم.

ظهرَت العمة ليلي في المدخل. كانت قد أزالت البكرات من شَعرها، وكان منسدلًا حول كتفَيها في لفاتٍ حلزونية هزيلة. كانت ما تزال مرتدية رداءها المنزلي ونعلها، وكان وجهها يحمل بقايا من كريم النوم تحت عينَيها. سألَت قائلة: «هل وجدتموه؟»

فقلنا كلنا كأننا عائلة من البوم: «مَن؟»

قالت بحدة: «توبي.»

فقال العريف: «لا أبحث عن توبي. ظننتُ أنكِ تقصدين آندي.»

قالت: «آندي ليس مفقودًا ولا يحتاج إلى أن يعثر أحد عليه.» سكبت لنفسها كوبًا من القهوة، وجلست إلى الطاولة. ثم قالت: «يجب أن يكون توبي هو مَن تبحثون عنه، قبل أن يختطف فتاة أخرى.»

قالت أمي بحدة: «ليلي!»

فقالت عمتي: «ترين أنَّ أنابل ينبغي ألا تسمع مثل هذا الكلام؟ أوافقكِ الرأي يا سارة، لكنكِ أنتِ مَن سمحتِ بأن تجلس هنا إلى الطاولة مع الكبار. وأودُّ أن أعرف أيها العريف: هل خطر ببالكِ أنَّ الاثنين ربما يكونان معًا في مكان ما، وأنَّ بيتي ربما تكون سجينة لديه؟»

تنهَّد الشرطي. وقال لعمتي: «بالطبع خطر ذلك ببالي يا ليلي، وقد اتصلت بشرطة الولاية بالفعل ليبدءوا البحث عنه. أو عنهما.»

أصابني هذا الكلام بصدمة عميقة. فهذا لم يخطر ببالي قَط. لكني بدأت أتفق مع عمتي في شيء واحد على الأقل.

قلت: «من الأفضل أن أعود إلى فراشي.»

ابتسمَت لي أمي ابتسامة حزينة قصيرة. وقالت: «فتاة صالحة. وربما ينبغي أن تبقي أنتِ والولدان في المنزل وتغيبوا عن المدرسة اليوم. أنتم مُتعبون. ولا أحد سيهتم بواجباته المدرسية في ظل حدوث كل ذلك.»

كانت هذه صدمة أخرى، لأنَّ أمي لم تقترح شيئًا كهذا من قبل قَط. لم تكُن تسمح لنا بالغياب عن دروسنا إلَّا عند إصابتنا بمرضٍ شديد، أو هبوب عاصفة ثلجية عنيفة.

أومأتُ. وقلت: «حسنًا.»

حاولتُ العودة إلى النوم. بذلت قصارى جهدي. لكني لم أستطِع التوقُّف عن التفكير فيما قالته العمة ليلي. فلماذا قد يريد توبي أن يأخذَ بيتي معه ويجعلها «سجينته». لقد

كانت فتاةً بغيضة، وكان يعرف ذلك. لكنَّ العمة ليلي والشرطي أيضًا يظنان، لسببٍ ما، أنهما ربما يكونان معًا.

كنتُ متيقنة من أنهما مخطئان.

وخشيتُ أن أكون أنا الوحيدة المهتمة بمساعدة توبي، قدر الاهتمام بالعثور على بيتي.

صحيح أنَّ أبي وأمي كانا يُحبَّانه، لكن عدم العثور على فتاةٍ مفقودةٍ كان مسألةً في غاية الأهمية. أغلب الظن أنْ لا أحد سواي كان يعتبر توبي أهم من تلك المسألة.

استلقيتُ في فراشي وحاولت التسليم بأن توبي قد رحل عن تلالنا. ولكن أيُعقل أنه قد أخذ الكاميرا؟ أيُعقل أنه غادر دون أن يودِّعنا؟ أو حتى بدون تذكار صغير لإخبارنا بذلك ... لإخباري بأنه آسف لرحيله؟

لم أستطِع تصديق ذلك. كنت موقنةً من أنَّ توبي لم يرحل، رغم كل الشواهد الظاهرية التي تؤكد ذلك. كنت موقنةً من أنه موجود في المكان الذي يُفترض أن يكون موجودًا فيه بالضبط. في المكان الذي ستستطيع الشرطة العثور عليه فيه حالما تبدأ البحث.

وهنا سألت نفسي ما الذي سأكون مستعدةً لفعله حيال ذلك، إذا تحقَّق هذا الاحتمال.

ارتديتُ ثيابي في الظلام، واكتسيتُ بطبقاتٍ إضافية من الملابس لأستطيع البقاء خارجًا في البرد فترة طويلة، ونزلتُ الدرج خلسة. وعندما اختلست النظر إلى داخل المطبخ، وجدتُ أنَّ أبي والعريف أولسكا قد غادرا. وكانت أمي منشغلة بأداء بعض العمل عند الحوض، وظَهْرها إليَّ. ولم أجِد أثرًا للعمة ليلي.

تسلَّلتُ إلى حجيرة المدخل، التي كانت مليئة بالوحل الذي خلَّفناه كلنا فيها بأقدامنا طَوال اليوم الماضي، وحملتُ حذائي الطويل الرقبة إلى الباب، وارتديته عند العتبة قبل أن أطَأَ الأرض المبلَّلة بقدميَّ، وأغلقتُ الباب خلفي بهدوء.

عندئذٍ أحسست بشعورٍ يعرفه كلُّ مَن انتقل في حياته من الدفء والنور الساطع إلى البرد والظلام. لقد أدرتُ ظهري لكل الأشياء الآمنة. واتجهتُ إلى الليل؛ صحيحٌ أنه لم يكُن أسود كما كان يبدو من خلال النوافذ، لكنه كان مظلمًا جدًّا، وكانت السماء من فوقي صافيةً في تلك اللحظة، بلا سُحبٍ تُضفي بياضًا على الظلام، فيما كان يتخلَّلها بصيصٌ بسيطٌ من ضوء النجوم، وكانت خاليةً تمامًا من أي ضوءٍ للقمر. كانت الأشجار ينحني بعضها لبعض كأنها على وشك أن ترقص، بينما كانت تعزف موسيقاها الحزينة. وحينها ملأتني الهواجس فجأةً.

كنتُ قد خرجت في الليل من قبل مرارًا، لكني لم أخرج وحدي قَط، ولم يحدث من قبل أن تخطَّيتُ نهاية زقاقنا.

لذا انتابني بعض التردد؛ لكنَّ عيني اعتادت على الليل، وخفت الظلام بعض الشيء. وصار الصباح قريبًا. وكنتُ أعرف وجهتي.

كان كوخ توبي يقع في مُنخفَض «كوب هولو» أسفل بيت آل جلينجاري، على الجانب الآخَر من تلَّتنا المرتفعة من مُنخَفَض «حفرة الذئاب»، بعيدًا عن مبنى المدرسة، وكان موجودًا في الأحراج بالقرب من زقاق ترابي كنتُ قد مشيته مرارًا. لم يكُن بعيدًا جدًّا. ولم يكُن يوجد بيننا وبينه سوى الأحراج تقريبًا.

لم أكُن أحب التفكير في وجود دببة، لكني لم أرَ منها سوى واحد من قبل، وقد هرب مسرعًا من الخوف آنذاك عندما رآني. وأحيانًا ما كان الناس يتحدثون عن وجود أسد جبلي في المنطقة، لكن ذلك لم يستمر طويلًا. ولم يعُد يوجد مزيد من الذئاب هنا. وفوق ذلك، فأنا لم أكُن وحدي تمامًا في الحقيقة. بل كان معي في الخارج هناك رجالٌ يبحثون عن بيتي.

كان عليَّ توخِّي الحذر لأبقى بعيدة عن طريقهم. إذا ظنوا خطأً أنني هي، فسيُصاب الجميع بخيبة أمل فظيعة. وسأقع في ورطة.

ومن ثمَّ، لزمتُ الأحراج، متتبعةً آثار سير الغزلان وسط الأوراق الزلقة بحذر. عرفتُ طريقي ببساطة بالتوجه نحو أسفل التل. كان من الصعب أن يتوهَ المرء في هذه التلال؛ لأنَّ كل مُنخفضٍ كان به زقاقٌ أو طريقٌ ممهَّد يمتدُّ عبره، وكان بجواره بيوتٌ متفرِّقة كنتُ أعرفها كلها.

وعندما وصلت إلى الأرض المستوية، سلكت الطريق الترابي باتجاه بيت سيلاس كوب القديم. لم أرَ أي إنسان، لكني سمعت أشخاصًا ينادون من بعيد. كانت أساسات منزل كوب المحترقة راسخةً بعيدًا وسط الأشجار، لدرجة أنها لم تكُن مرئيةً من الطريق، ولكن كان ما يزال هناك زقاق سالك ولافتةٌ خشبية معلَّقة على عمودٍ ملتوٍ، ومكتوب عليها كلمة «كوب» لتمييز المكان.

كان الزقاق موحلًا كمستنقَع، وقد انحنت الأشجار المصطفَّة على كلا جانبَيه على ارتفاع منخفض من فوقه، فجعلته نَفقًا يقطر ماءً ويهتز في الريح. لم تكُن هناك أي علامة على قطعة الأرض الخالية التي كان منزل كوب موجودًا فيها يومًا ما. فقد اختفت تمامًا وسط نبات العليق، الذي امتد على أحد جانبَي الزقاق، فيما كانت بعض الأشجار قد نمَتْ

من بين الأساسات، لكنها كانت رقيقة بما يكفي لظهور أجزاء من السماء في الأعلى، فرأيتُ طيفًا من اللون الأزرق في سواد السماء، وهنا استنتجتُ أنَّ الشمس ستشرق قريبًا.

وبينما كنت متوقِّفة هناك، سمعتُ شيئًا جديدًا.

لم يكُن صوت الرياح. ولم يكُن صوت الرجال الباحثين عن بيتي من بعيد. بل كان أشبه بصوت حيوان. شعرتُ بأنها صيحةٌ من نوعٍ ما. لم يكُن صوت بومة. ولا ثعلب.

كانت معظم الحيوانات التي تعيش في الأرض والطيور الحاضنة تبقى صامتةً في الليل، خوفًا من جذب انتباه الحيوانات المفترسة؛ لذا فأيًّا كان الكائن الذي يُصدِر هذا الضجيج الغريب، فإنه لا يشعر بمثل هذا الخوف.

كنتُ قد سمعت صوت القنفذ بضع مرات من قبل. وهو كمزيجٍ من صوت اصطكاك الأسنان والأنين، ممزوجٍ بثغاءٍ خفيف صادر من آلة تنبيه مثقوبة.

كان هذا الصوت أشبَه بذلك، وحينها انتابني الخوف فجأةً. فقد رأيت كلبًا ذات مرَّة، وكان أنفُه مليئًا بالريش الشائك؛ ولذا لم أكُن أريد التشابك مع قنفذ.

لكنَّ الصوت قد سَكَن وأنا واقفة هناك. أرهفت أذنيَّ لأسمعه مجددًا، لكني لم أسمع سوى صوت الريح.

كان كوخ توبي أمامي ببضع خطوات أخرى فقط، خلف أجمة من الأشجار الكثيفة واللبلاب. وكان توبي قد أخلى المنطقة المحيطة بالكوخ. فرأيتُ جَدَعة مغروسًا فيها بَلطة، وعندئذٍ وجدتُ نفسي تلقائيًّا أتخيَّل مَشهد الملك آرثر وهو يسحب سيفه السحري الأسطوري من الحجر.

وعندما وصلتُ إلى باب الكوخ، خَطَرت في ذهني كلمة «سجينة»، فترددتُ لحظة قبل أن أقرعه.

ذهلتُ عندما تحرَّك شيءٌ ما في الداخل. وأحدثَ ضجيجًا.

تراجعتُ حالما بدأ البابُ ينفتح.

وكان مَن فتحه هو توبي.

الفصل الرابع عشر

كان توبي متدثرًا ببطانية من بطانيات الجيش، وحافي القدمَين.

قال: «أنابل.» وكانت هذه كلمة خبرية واستفهامية في آنٍ واحد.

فقلت له: «مرحبًا يا توبي.» أدركتُ عندئذٍ أنني لا أعرف اسم عائلته إطلاقًا. وكان من المستحيل أن أناديه بالسيد.

نظر ورائي، وربما كان يتوقَّع ظهور أبي من وسط الظلام. ثم سألني: «ما الخطب؟»

«العريف أخبرنا بأنَّك قد رحلت وربما تكون قد أخذت بيتي معك، أو تكون على علم بمكانها. واتصل بشرطة الولاية وسيأتون إلى هنا قريبًا للبحث عنك.» كنت أريد قول المزيد، لكنَّ هذا القدر استهلك كلَّ أنفاسي.

فكَّر في ذلك لحظة. وقال: «الفتاة التي قالت إنني رميتُ حجرًا على الألماني.»

أومأتُ بالإيجاب، وبدأتُ أشعر بالحيرة كأنها حكَّة داخل رأسي. «نعم. إنها مفقودة من صباح أمس. ألم تكُن تعرف ذلك؟ الناس يبحثون عنها في كل مكان.» حينها أدركت أنَّ هذا الخبر كان جديدًا عليه حقًّا. أضفتُ قائلة: «جاء الشرطي لزيارتك الليلة الماضية، لكنك لم تكُن موجودًا. ظن أنَّك قد رحلت. وربما أخذت بيتي معك!» انخفض صوتي هنا. وصار وجهه الشاحب أشدَّ شحوبًا الآن.

«ألم تكُن تعرف أنها مفقودة؟»

هزَّ رأسه بالنفي. وقال: «كنت أصطاد تحت جسر الغدير. وقايضتُ السمك ببعض اللحم المقدَّد من تيرنر.»

كان آل تيرنر يُربون الماشية والخنازير للحصول على لحمها. وكان والدي أيضًا يُحب اللحم المقدد الذي يبيعونه، وكان يبقى صالحًا للأكل فترة طويلة، حتى بدون ثلج.

«مكثتُ في حظيرتهم حتى هدأ المطر. ثم عُدت إلى هنا في وقت متأخر.» استدار ونظر داخل الكوخ. وأضافَ: «لقد سَرق شخصٌ ما إحدى صوري.»

كانت هذه أول مرَّة أسمع فيها توبي يقول كل هذا الكلام دفعة واحدة.

قلت له: «أخذها العريف أولسكا. صورتي وأنا على المشى المؤدي إلى المدرسة. وقد اطَّلع أيضًا على الصور التي وصلت للتو في البريد. آسفة على ذلك، لكن العمة ليلي أعطته إياها. تبيَّن أنك التقطتَ إحدى الصور من أعلى التلة فوق عربة السيد أنسل، يومَ أُصيبت روث.»

رمقني توبي بنظرة جامدة.

وقال: «لم أرمِ ذلك الحجر.»

شعرتُ بارتياح حين سمعتُه يقول هذا، مع أنني لم أدرك أنني كنت أحتاج إلى سماع ذلك إلَّا عندما قاله بالفعل.

قلتُ: «أصدِّقك. لكنهم الآن يعرفون أنك كنت موجودًا فوق تلك التلة، وبيتي قالت إنها رأتك ترمي الحجر، ثم صارت مفقودةً الآن. يظنون أنك ارتكبت بعض الأفعال السيئة يا توبي.»

أخذَ توبي نفَسًا عميقًا. وقال: «لقد فعلت.»

فعقدتُ ذراعيَّ فوق صدري، وبذلك شعرتُ أنني أكبر سنًّا. وسألتُه: «ماذا فعلت؟»

أحكمَ لف البطانية حوله.

فانتظرت.

قلت له: «لكنك لم ترمِ ذلك الحجر.» لكن الجملة بدَت أشبه ما يكون بسؤال.

هزَّ رأسه بالنفي. وقال: «هي التي رمته.»

فُوجِئتُ، مع أنني كنت أخمِّن ذلك.

وسألتُه: «هل رأيتها؟»

«حاولتُ أن أصوِّرها، لكنها رمته بسرعة. وغاصت بعد ذلك وسط الشجيرات. وغاصَ ذلك الفتى معها. لكن ذلك كان بعدما رأتني عند موضع أعلى بقليل من مكانهما. وعرفَت أنني رأيتُها.»

«إذن، فلماذا لم تقُل ذلك حين أتى والدي ليتحدث إليك؟»

أشاح توبي بعينَيه بعيدًا. وقال: «الحقيقة إمَّا أن تَظهر دقيقة كاملة. وإلَّا فلا.»

«ماذا؟ كان ينبغي أن تخبره بما حدث يا توبي. لا أحد سيصدقك الآن.»

قال: «لا أستطيع أن أفعل شيئًا حيال ذلك.»

كانت هذه وجهة نظر غريبة ومحبطة، لكني لم أكُن مكان توبي، وتوبي لم يكُن مكاني.

وقفنا بُرهةً طويلة. والطيورُ من حولنا قد أيقظت السماءَ.

من بعيد، سمعتُ أناسًا ينادون بحثًا عن بيتي.

تراجع توبي خطوةً ليدخل الكوخ. وهذا كان العامل الذي حسم قراري.

قلتُ بحزم: «حسنًا. أريدك أن تأتي معي الآن.»

اختلج فم توبي اختلاجة قصيرة مقتضبة. كان ذلك هو أقرب تعبير إلى الابتسام رأيتُه على وجهه منذ أن عرفته. قال: «تشبهين أمك.»

اعتبرتُ ذلك إطراءً. وقلتُ: «جيد. لأنها لو كانت هنا، لقالت الكلام نفسه. هلا تتفضَّل الآن بارتداء ثيابك والمجيء معي؟»

بدا توبي مترددًا. وقال: «إلى أين؟»

«إلى مكان آمن ريثما نستطيع إيجاد حل.»

هز رأسه بالرفض. وقال: «لا أهتم كثيرًا بذلك.»

فقلت: «حسنًا، أنا مهتمة به. وإذا كنتَ لا تبالي بما سيحدث أيًّا كان، فما قولك في أن تفعل ما أريده؟»

اختلج فمه تلك الاختلاجة المقتضبة مجددًا.

ومجددًا أيضًا، سمعتُ صوت الناس ينادون من بعيد.

وبعد بضع دقائق، انضم إليَّ توبي خارج الكوخ. كان مرتديًا الثياب التي كان يرتديها دائمًا، وكان مُتقلدًا الكاميرا حول عنقه، ومُعلِّقًا بنادقه على ظهره.

كان السير نحو أعلى التل في طريق العودة أصعب، لكن توبي كان يتسلَّق خلفي، منتظرًا ريثما أتشبَّث بالأشجار لتساعدني على تسلُّق الأجزاء الأشد انحدارًا، وما جعل التسلُّق أصعب أنها كانت زلِقة. وصحيح أنَّ الضوء المتزايد ساعدني كثيرًا، لكنه أقلقني أيضًا.

كنا متيقظَين وهادئَين قدر المستطاع، في ظل الصياح الآتي من بعيد. كنتُ سأرتدي ثيابًا حمراء اللون لو كان ما أخشاه صيادين حقيقيين، لكننا كنا نرتدي ثيابًا باللونَين البُني والأسود، فما كان لهم أن يرونا إذا وقفنا ساكنَين وأخفينا وجهَينا.

وبينما وصلنا إلى قمة التل وشققنا طريقنا نحو المنزل، أدركت أنَّ أي شخص سيستطيع رؤيتنا من خلال نوافذ البيت المُلحَق بالمزرعة إذا مررنا بمرعانا؛ لذا لزمنا الأحراج حتى وصلنا إلى الجانب البعيد من حظيرتنا، ومشينا عبر الحقل المفتوح بسرعة، وغُصنا في الحظيرة من جانبها الخلفي. تقدَّمت أولًا، وناديتُ لأعرفَ ما إذا كان يوجد فيها أيُّ شخص، وكنتُ مسرورةً لأن الكلاب كانت في الخارج تُشارك معهم في البحث، وكأنها تساعدهم.

حرَّكت إحدى الخيول رأسها الكبير فوق باب حُجَيْرتها ونظرت إليَّ بفضول، فكاد قلبي يتوقف.

قلتُ وأنا أرفع مزلاج باب الحُجَيرة وأفتحه: «حان وقت خروجك يا بيل.» نَخَر في وجهي وتمشَّى متمهلًا إلى آخِر الممر نحو البوابة الكبيرة المفتوحة المؤدية إلى المرعى. وأطلقتُ سراح الفرس دينا، فخرجَت وراءه إلى ضوء الشمس وهي تهزُّ ذيلها. وبعدئذٍ أطلقتُ سراح البقرتَين الحلوبتَين مولي وديزي. لم نكُن نُسمِّي صغار العجول مطلقًا؛ لأننا كنا نضطر إلى التخلِّي عنها بسرعة، لكننا كنا نحتفظ بأبقارنا الحلوبة إلى أن تَرحل.

مددتُ يدي بينما كانت البقرتان تتجاوزاني بخُطًى متثاقلة، وغرست البقرة الثانية أنفها الأسود المربع الكبير في راحة يدي لحظةً، فأحسست بالشَّعر الناعم الذي كان يكسوه.

كان أبي سيُطلِق هذه الحيواناتِ بحلول هذا الوقت لو لم يخرج للبحث عن بيتي. لذا أطلقتُها على أمل أن يراها الجميع في المرعى فلا يأتي أحدٌ إلى الحظيرة لأداء تلك المهمة المعتادة، مع أنهم قد يأتون ليرَوْا مَن الذي أخرَجها.

تساءلتُ في قرارة نفسي عمَّا إذا كان أيُّ أحد قد لاحظ غيابي بعدُ.

ناديتُ توبي هامسةً وأنا أفتح الباب المؤدي إلى الدرج الممتد من وسط الحظيرة إلى الجُرن في الأعلى: «اتبعني.»

كانت حظيرتنا مكوَّنة من طابقَين ومَبنيَّة في جانب تلة؛ بحيث يُمكن للمرء أن يدخل كلا الطابقَين مباشرة من أرض التلة الخارجية المائلة، وكانت تضم في الطابق السفلي حُجَيرات للحيوانات تُفتَح على ممر طويل. وكانت تحتوي أيضًا على صهريج جاثمٍ فوق لوحٍ عريض عند الجزء الخلفي منها، بجوار صومعةٍ طويلةٍ للذرة.

أمَّا الطابق العلوي، فكان فيه بابٌ جانبيٌّ ضخمٌ ذو مصراعَين، يؤدِّي إلى زقاقٍ ومنطقةٍ للتجميع والتحضير على الأرض المائلة العلوية. كنا نقود عربات التبن إلى أعلى ذلك الزقاق ونُدخلها الحظيرة من الباب الجانبي، ونخزِّن المعدات الكبيرة هناك في فصل الشتاء، ونعمل

هناك حين تكون الأجواء عاصفةً سيئة. وكان هذا الطابق أيضًا يحوي أحواضًا كبيرةً من الشوفان بجوار مزالق للحبوب، تؤدِّي مباشرةً إلى معالف في حُجَيرات الحيوانات في الطابق السفلي. ثمَّة جزءٌ من هذا الطابق العلوي أيضًا كان به سقفٌ مُدبَّب مرتفع جدًّا، تتدلَّى منه حبال وبَكَرة رافعة؛ لرفع رزم التبن الضخمة إلى داخل العلية التي كانَت تحتلُّ الجزء الأكبر من المساحة الموجودة بطول العوارض الخشبية.

كانَت حظيرتنا قديمةً تنقصها بعض الألواح الخشبية المفقودة، وكانت أرضها مكسوةً بالوَسَخ والقش اللذين تراكما عليها طوال سنوات، لكنها كانت جافَّةً بما يكفي ومريحةً جدًّا في علية التبن، حيث كان والدي يحب أخذ قيلولة في الأيام الممطرة. كنت آملُ أن تمنحنا العلية فترةً كافيةً نلتمس فيها الجفاف.

توقَّف توبي عند أسفل السلم الطويل المؤدي إلى العلية. نظر إلى السلم، ثم إليَّ، ثم عاوَد النظر إلى السلم مجددًا. بدأتُ أصعد. وقلت له وقد الْتَفتُّ إليه برأسي قليلًا: «هيا تعالَ. يُمكنُك أن تنتظرَ في العلية إلى أن تُسوَّى تلك المسألة برمتها.»

لكنه بقيَ مكانه. وقال: «لا أحب الأماكن المرتفعة.»

كدتُ أسقط عن السلم عندئذٍ من الضحك. لكن توبي لم يبدُ سعيدًا عندما بدأت أضحك، لذا سكتُّ ونزلت مجددًا.

كان أمامي عندئذٍ رجل ضخم يرتدي معطفًا أسود من القماش المشمع، وفوق ظهره ثلاث بنادق؛ شَعره طويل متشابك مع لحيته، ويعتمر قبعة سوداء تكاد حافتها تخفي وجهه الأبيض بظلالها. رجل خاض غمار حربٍ فظيعة. رجل كان يعيش أغلب الوقت على حيوانات وطيور برية وبعض ثمار التوت في كوخ قديم لتدخين اللحم وسط الأحراج.

فسألتُه: «هل أنت خائف من الصعود إلى العلية؟»

نكَّس رأسه. وعدَّل وضعية بنادقه على ظهره.

عضضتُ شفتي. وقلت له: «أنت تعيش في تلال ريفية. إنك تقضي معظم وقتك عند ارتفاعات عالية.»

هز رأسه. وقال: «هذا مختلف عن ذاك.»

قلت له: «حسنًا. يُمكنك أن تصعد إلى تلك العلية أو تختبئ في صومعة الذرة مع الفئران.» وعندئذٍ شعرتُ مجددًا بأنني أتحدث كأمي.

ربما بسبب كلمة «تختبئ» أو بسبب فكرة التسلق إلى داخل صومعة الذرة. وربما بسبب تلميحي إلى أنه كالفئران. لم يقُل توبي السبب. لكنه ضربني ضربةً خفيفة بيده بعد ذلك بلحظةٍ، ثم تبعني على كلِّ حال عندما بدأتُ أتسلَّق السلم مجددًا.

وحين وصلتُ إلى الأعلى، نظرتُ إلى الوراء ورأيته يتسلَّق ببطء، متكئًا بقدمَيه الاثنتَين على كل درجة، وممسكًا القضيبَين الجانبيَّين بإحكام: بيده اليُسرى المليئة بالدمامل واللامعة من كثرة الندوب من ناحية واليُمنى السليمة من ناحية، وكان مُركِّزًا على ما يفعله، ولم ينظر إلى الأسفل قَط. ثم كانت المرحلة الأصعب عند وصوله إلى القمة. صفع أرضية العلية بكفِّ يده السليمة وغرز أظافره فيها. فأمسكتُ بمعصمه، لكني لم أفعل ذلك إلا لدعمه معنويًّا، وأزال قدمه عن السلم زاحفًا على الأرضية إلى أن دخل العلية بكلِّ جسده، وقد اشتدَّت حدةُ لهاثه عما كانت عليه في أثناء تسلُّقنا للتل خروجًا من مُنخفَض «كوب هولو». لم أخبره بأنَّ النزول سيكون أصعب وأصعب.

على الأقل افترضتُ أنه سيمكث في هذا المكان بعض الوقت. وأنَّ أول خطوةٍ على السلم نحو الأسفل ستخيفه وتجعله يلزم مكانَه ريثما أعرف أنا خطوتي التالية.

قلت له: «سأعود في أقرب وقتٍ ممكنٍ ومعي بعض الطعام والمياه. ودلو من أجل، إحم، كما تعلم.» شعرتُ حينها بأن بشرتي تحمرُّ خجلًا. وأضفت: «إذا دخل أي شخص الحظيرة، فتزحزح بسرعة إلى الوراء بين حزم التبن وابقَ هادئًا فحسب. ربما يأتي الولدان، لكنهما على الأرجح سيبقيان بعيدَين عن العلية.»

جلس توبي على حزمة من التبن. وحين وضع بنادقه جانبًا وخلع قبعته، بدا هو نفسه صبيًّا. صحيحٌ أنه كان أكبر سنًّا بكثير لكنه بدا صبيًّا على ذلك.

قلت له: «لا تقلق. كلُّ شيء سيُصبح على ما يُرام.»

الفصل الخامس عشر

قبل أن أعود إلى المنزل، تسكعتُ خارج سياج المرعى وأنا أجمع قرون نبات الصقلاب، حتى انتفخَت جيوبي بها عن آخِرها.

قالت لي أمي عندما دخلتُ من الباب: «أين كنتِ يا أنابل؟ لا يُمكننا تَحمُّل فقدان فتاةٍ أخرى. هل تعرفين مدى القلق الذي شعرتُ به حين وجدتُ فراشك خاليًا؟»

لم أكُن أريد الكذب على أمي؛ لذا حاولت قول أكبر قدر ممكن من الحقيقة. قلت لها: «كنتِ في السرداب عندما نهضتُ. كان يجب إخراج الخيول والأبقار إلى المرعى؛ لذا أخرجتها، ثم ارتأيتُ أن أجمع بعض قرون الصقلاب من أجل الجنود.» وهنا أخرجتُ قرنًا رطبًا من جيبي. وأضفت: «لكني لم أكُن أحمل حقيبة.»

لم يُكن بإمكاننا نحن الأطفال أن نُسهِم بمساعدةٍ كبيرةٍ في المجهود الحربي، ولكن كان يُطلَب منا جمع قرون الصقلاب من أجل استخلاص خيوطها الحريرية، التي كانت تطفو أفضل من مادة الفلين. فكانت قوات البحرية تحتاج إليها لصنع سترات النجاة؛ لذا كان الأطفال في كل أنحاء الريف يُكلَّفون بجمع الصقلاب. قلت: «سأصطحب الولدَين إلى الخارج ونجمع البقية قبل فوات الأوان.»

كان المزارعون يرتعبون من أن يفوت أوان جمع الصقلاب؛ فتتطاير بذوره عبر البساتين وتُرسِّخ جذورها مما قد يؤدي إلى مشكلات بالغة؛ إذ إنها تزعج الماشية للغاية إذا رسخت جذورها في المراعي.

نظرت أمي إليَّ بارتياب. وسألتني: «لماذا ترتدين كل هذه الثياب ولا ترتدين معطفًا؟»

هززت كتفي. وقلت: «لا أعرف.»

والغريب أنَّ هذا الرد أقنعها على ما يبدو.

قالت: «حسنًا، إلى أن يهدأ الوضع حولنا تمامًا، أخبريني قبل أن تذهبي إلى أي مكان.»
«أين الجميع؟»
«استيقظ شقيقاكِ مع شروق الشمس وظلَّا يُلحَّان على أبيك حتى سمح لهما بالذهاب، والمشاركة في البحث.» ثم تنهَّدَت. وأضافَت: «أستطيع تخيُّل المشهد الآن. أبوكِ والولدان والكلاب الأربعة. وجدكِ المسكين يلفُّ بالشاحنة مرارًا وتكرارًا، وهو يحاول أن يكون نافعًا لهم بأيِّ طريقة.»
وقد كان هذا مُرضيًا لي، ما داموا كلهم بعيدين عن الحظيرة.

وبينما عاودت أمي أداء مهامها المنزلية، أخذتُ بعض لفائف الخبز من صندوق الخبز، وملأتُ كوبًا بالقهوة من قِدر على الموقد، وتوجهتُ إلى الكرار.
كان كرارًا كبيرًا له جدرانه وأرضياته من الحجارة، ويتكون من أربع حجرات. كانت إحداها مخصَّصة للغسيل، رطبةً دائمًا لكنها نظيفة، وكانت تحتوي على الغسالة العاصرة في أحد أركانها، وحبالٍ معلَّقةٍ بين جدارَين، وسلة من الخوص على طاولةٍ طويلةٍ فيها كيس قماشي يحوي مشابك خشبية، ودلاء من الصفيح لسحب مياه الغسيل من البئر، وموقد بشُعلةٍ واحدةٍ لتسخين المياه، وبالوعة في الأرضية.
وفي غرفة أخرى، كانت توجد أرفُف مبطَّنة بالجرائد، تحمل جرات من المربى والمخللات والفلفل والبقول والطماطم والخوخ والبازلاء والذرة.
وثمَّة غرفةٌ ثالثة للفحم كانت تحتوي على مسقط منصوب بالقرب من السقف؛ ليستطيع أبي وضع الفحم فيها بمجرفةٍ من الزقاق الموجود في الأعلى. كانت مكانًا قذرًا مكسوًّا بالسخام، ولم يكُن أحد يذهب إليها إلى أن يحل الشتاء، ويتوجَّب تغذية الفرن بالوقود.
وأمَّا الغرفة الرابعة، فكانت مخصصة لكل شيء آخَر لا يُمكن وضعه في الطابقَين العلويين. كالدلاء التي تحتاج إلى إصلاح ثقوبها. وجرَّات التعليب الفارغة. وأدوات البستنة. وبعض براعم النباتات البصلية المُقتَلَعة من الأرض والمُخزَّنة في أوعية من الخُثِّ.
كان يوجد باب يؤدِّي من مؤخرة الكرار إلى الخارج، عند مكانٍ من التل هو أدنى ارتفاعًا من موضع بقية أجزاء المنزل. وفي الخارج مباشرة، كان يوجد مدخل منفصل إلى قبو الطعام الأرضي، حيث كنا نخزِّن البطاطس والبصل والبنجر والجزر، وأي شيءٍ يجب أن يبقى أطول فترةٍ ممكنةٍ حتى الشتاء.

أخذتُ دلوًا صفيحيًّا ما زال سليمًا لكنه كان قديمًا متهالكًا، وملأتُه ببعض المُؤَن: لفائف من الخبز، ووعاء من مربى الفراولة، وبعض الجزر، وبضعة أوعية فارغة وأغطية لها؛ ثم ملأتُ واحدًا بكوب القهوة. وقررت أن أملأ الأوعية الأخرى عند صهريج الحظيرة.

وبعدئذٍ تركت الدلو خارج باب الكرار، وصعدت الدرج.

وجدتُ أمي تنزع الملاءات عن فراش جدي وجدتي، بينما كانت جدتي جالسة في كرسيها الهزاز ترتِّق جوربًا.

قلت: «سأعود لجمع المزيد من الصقلاب.»

وعندئذٍ اجتاحتني موجة الأسف الأولى التي نبعت من كتمان سرٍّ جديد. قلتُ لنفسي لعلهم يعثرون على بيتي بحلول نهاية هذا اليوم، ويستطيع توبي العودة إلى كوخه دون حدوث أي ضرر.

وإذا لم يحدث ذلك، فسأخبر أمي. فأنا لا أستطيع كتمان هذا السر إلى الأبد. ولا أستطيع تخبئة توبي فترة طويلة بعزله على هذا النحو في علية التبن كقطٍّ ضالٍّ.

قالت أمي وهي تحشر الملاءات وأغطية الفراش المتسخة في غطاء وسادة: «لا تنسي أن تأخذي حقيبة هذه المرة.»

ظللتُ لحظةً أخرى أشاهد الاثنتَين وهما تمارسان عملهما. كانتا تبدوان مختلفتَين جدًّا. ومتشابهتَين جدًّا في الوقت نفسه. كانت الغرفة مليئة بأشياء من صُنع أياديهما. وكانت كل هذه الأشياء قد لانت من كثرة الاستخدام.

انتابتني في هذه اللحظة موجة الأسف الثانية، لكني هذه المرة كنتُ آسفة على توبي؛ لأنه محرومٌ من مثل هذه الأشياء منذ وقت طويل جدًّا، هذا إنْ كان قد حظي بها في حياته أصلًا من قبل.

في ظل غيابي عن المدرسة وتحرُّري من شقيقيَّ، كان لديَّ متسعٌ من الوقت لنفسي. وكنتُ أقضي معظم هذا الوقت في الحظيرة على أي حال، بصحبة كتاب وبعض الحمائم الجبلية، لكنَّ اليوم كان يوم توبي.

ناديتُ هامسةً من عند أسفل سلم العلية، وقلت: «هذه أنا لا تقلق.» لكني لم أسمع ردًّا.

تسلقتُ السلم بحذر، وكان الدلو ثقيلًا، فشعرتُ بشيء من الألم في أصابعي بسبب مقبضه المعدني. وعندما وصلت إلى الأعلى، وضعت الدلو جانبًا، ودخلتُ العلية بكلِّ جسدي وتركت السلم. ثم قلت: «توبي؟»

وعندئذٍ ظهر من وراء جدارٍ من حزم التبن. كان قد خلع معطفه. وبدا بدونه نحيفًا كدُبٍّ في فصل الربيع. ولأنه كان بدون قبعته، لم يكُن ثمَّة ظل يختبئ فيه. ورأيتُ عينَيه؛ كانتا زرقاوَين.

قلت له: «لقد صنعتَ لنفسك مخبأً. تصرُّف ذكي.» ثم أشرت إلى الدلو. وقلت: «هل أنت جائع؟»

هزَّ كتفَيه. وقال: «لديَّ لحم مقدَّد.»

«والآن لديك خبز ومربى وجَزَر ومياه جوفية من البئر. وقهوة، لكنها ستبرد إذا لم تشربها الآن. يمكنني أن أحضر إليك المزيد بعد العشاء.»

لم يقترب توبي حتى تلك اللحظة أيَّ خطوة إلى المكان الذي كنتُ واقفة فيه عند حافة العلية. صحيح أنَّ الحافة كانت مزودة بدرابزين، ولكن من دون أعمدة رأسية. لذا فمن المؤكَّد أنَّ توبي الذي يخشى الأماكن المرتفعة قد اعتبر وجود هذا الدرابزين كعدمه تقريبًا.

قلت له: «سأحضر المزيد من المياه أيضًا، ولكن يوجد صهريج بمضخة يدوية حيث دخلنا الحظيرة. هذا إن كنت تحتاج إلى الاغتسال، بعد حلول الظلام. أو يمكنك أن تذهب بعيدًا قليلًا نحو آخِر المرعى. يوجد هناك حوض صغير. إنه يستمد مياهه من نبعٍ؛ لذا فماؤه عذب وحلو. لكنه بارد.»

تخيلتُ أنَّ توبي كان معتادًا على الاستحمام، وغسلِ ثيابه في الجدول القريب من الكوخ الذي يسكنه، مع أنَّ معطفَه كان جامدًا جدًّا من كثرةِ تعرُّضِه لعوامل الطقس والسخام، لدرجة أنَّ توبي لم يبدُ شديدَ النظافة قَط. ولكن لأنه كان واقفًا في هذه اللحظة بدون المعطف، كاد يبدو رجلًا موقَّرًا، مع أنَّ شَعر رأسه ولحيته كان طويلًا ومتشابكًا. أضفت قائلة: «ولكن إذا لم تكُن تريد النزول ...»

وهنا نقلتُ الدلو بعيدًا عن حافة العلية، ووضعته بجوار حزمة تبن يُمكن أن يجلس عليها توبي. فاقترب مني، وعندئذٍ تذكرتُ الكلاب الضالَّة حين كانت تأتي إلى المزرعة أول مرَّة.

قلت: «بئسًا. نسيتُ سكين المربى.» فأخرج توبي مطواة من جيبه.

قعد على حزمة تبن وشَطَر إحدى لفافات الخبز نصفَين. وبعدها نَزَع الربطة الملفوفة على وعاء المربى واقتلع غطاءه بسنِّ مطواته، وفَرَد بعض المربى على نصف اللفافة. ثم مدَّها إليَّ.

فقلت له: «لكنَّ هذه لك يا توبي. يُمكنني أن آكل في البيت.»

لكن يدَه ظلَّت ممدودةً حتى أخذتُ قطعة الخبز.

فَرَد توبي بعض المربَّى على قطعته، ووضعها على ركبته وهو يمسح المطواة بين أصابعه لينظفها، ثم أغلق المطواة وأعادها إلى جيبه. وبعدئذٍ فتح برطمان القهوة.

قلتُ: «آسفة إذا كانت باردة.»

أكل قطعة الخبز بتمهُّل، بينما كان يشرب القهوة من البرطمان.

وأخذتُ أنا قضمة من قطعتي، وعندئذٍ فقط أدركتُ أنني كنت جائعةً جدًّا. شعرتُ بأنَّ دهرًا طويلًا قد مرَّ منذ أن استيقظتُ لأجد العريف جالسًا عند طاولتنا، وأعرف أنَّ أفراد شرطة الولاية قادمون.

أكلنا في صمت. وأنهى توبي القهوة.

سألته وأنا أخشى أن يكون جاهلًا بالقراءة: «هل تريدني أن أحضر إليك كتابًا لتقرأه؟»

رمقني توبي بنظرةٍ حادة.

فهززتُ كتفي. وقلت: «لدينا كتب كثيرة. من كل الأنواع. شقيقاي يحبَّان روبرت لويس ستيفنسون. وأنا أيضًا أحبه. يُمكنني أن أحضر إليك شيئًا منها، إنْ شئتَ. لكنك ستكون مضطرًّا إلى قراءته خلال النهار.»

لم يفكر توبي في اختيار كتابٍ معيَّن. بل قال: «أي شيء لديك.»

قعدتُ على الأرض وعقدتُ ساقيَّ. كنتُ أفكر فيما إذا كان يَصِحُّ أن أطرح عليه بعض الأسئلة أم لا.

كنتُ ألفُّ قشَّةً بين راحتَي يديَّ. وقلت: «هل لي أن أسألك سؤالًا يا توبي؟»

فشابك أصابع يدَيه. وقال: «لقد سألتِني للتو بالفعل.»

رأيت فمه مرَّةً أخرى يختلج الاختلاجة نفسها التي تكاد تنُمُّ عن ابتسامةٍ طفيفة. وكدت أقول: «هل لي أن أسالَك سؤالًا آخَر؟» لكني أدركتُ أنَّ هذا بحد ذاته سيكون سؤالًا آخَر. فقلت: «ما اسمك؟ أي اسم عائلتك؟»

لكن توبي لم يُجِب. أشاح بعينَيه بعيدًا. فقلت بسرعة: «لا. لديَّ سؤال أفضل.» أردتُ أن أعرف موطنَه الأصلي، وما إذا كان لديه أيُّ إخوة أو أخوات، وما إذا كان قد اقتنى أيَّ كلبٍ من قَبل، وماذا كان يسميه، وكم كان عمره عندما ذهب للقتال في الحرب، وكيف أُصيب، وكم عمره الآن (مع أنَّ أمي كانت تقول دائمًا إنَّ عمره لا بد أن يكون أربعةً وأربعين أو خمسة وأربعين تقريبًا)، وماذا كان يقصد عندما قال إنه فعل «شيئًا سيئًا».

قلتُ فجأةً دون تفكير وكأنني طفلة: «ما هو طعامك المفضَّل؟»

نظر توبي إليَّ مباشرة هذه المرَّة، وقال بعد سكوت قصير: «فطيرة الجوز.»

«حقًّا؟ أمي تُعدُّ فطيرة جوز لذيذة جدًّا. أكنتَ تعرف ذلك؟»

أومأ بالإيجاب. وقال: «لقد احتفظت لي بقطعةٍ باقية منها ذات مرَّة. وكانت هذه ألذَّ شيءٍ أكلته في حياتي.»

بدا صوت توبي مختلفًا. صارت نبرته أكثر لينًا. أضاف: «قالت إنها آسفة لعدم وجود أي قشدة فوقها.» هز رأسه بعد ذلك. وقال: «لا أعرف ماذا كان سيحدث لي لو كانت ألذ مما كانت بالفعل. ربما كنت سأموت.»

قضينا بعض الوقت على هذا النحو أسأل أسئلة بسيطة، فيعطيني توبي إجابات أطول وأطول، حتى أصبحنا ندردش دون تكلُّف، وصار توبي أيضًا يسألني بعض الأسئلة. فحدثته عن جدتي التي لم يكُن قد رآها إلا نادرًا. وعن العمة ليلي، لكني لم أقُل عنها سوى «وتوجد أيضًا عمتي ليلي، وهي تدير مكتب بريد»، وعندئذٍ قاطعني توبي بسرعة قائلًا: «نعم، لقد رأيتها»، ولا شيء غير ذلك.

وظللنا هكذا إلى أن اضطررت أن أسأله سؤالًا أصعب، لكنني شعرتُ بأنَّ هذا كان من حقي. قلت له: «ما الذي قصدته عندما قلت لأبي إنهما أحدثا خدوشًا على «حجر السلحفاة»؟»

تراجع توبي قليلًا، وأحكَم إسناد ظهره إلى المكان الذي كان جالسًا فيه، وظلَّ يفكِّر لحظة. ثم قال: «كانا يشحذان سلكًا.»

فقلت: «بيتي وآندي؟»

أومأ بالإيجاب.

فسألته: «هل تعرف ماذا فعلا به؟»

أومأ بالإيجاب مجددًا. وقال: «لو كنتُ رأيتهما يضعانه هناك، لأخذته قبل أن يجرح أخاك.»

«هل سمعت عن ذلك؟»

«رأيتكم أنتم الثلاثة تخرجون من مُنخفَض «حفرة الذئاب»، بينما كان جيمس ينزف، وكانت تلك الفتاة بيتي تراقبكم وأنتم تعبرون الحقل. وعندما رحلتم، ذهبت نحو أسفل الممشى ورأيتها تفك السلك من إحدى الشجرتَين. ركضت هاربة حين رأتني قادمًا.»

«كان السلك غير موجود حين أخذتُ أبي لأريه إياه.»

«لقد أخذَته معها.» ثم نظر مباشرة إلى عينيَّ. وقال: «كانت فتاة سيئة.»

لم أعرف ماذا كان يُمكن أن أقول عن كلمة «كانت».
وقفتُ ونفضتُ الغبار عن مقعدي. وقلت: «يجب أن أذهب لأجمع بعض الصقلاب.»
«لماذا؟»
«أفراد البحرية يحتاجون إليه لصنع سترات النجاة.»
لم يقُل توبي شيئًا آخَر.
قلت: «سأحضر إليك كتابًا فيما بعدُ.» وتركتُه وحده.

الفصل السادس عشر

كان عليَّ عندئذٍ أنْ أملأ كيسًا بقرون الصقلاب بالفعل، وقد استغرق هذا وقتًا أطول مما كنت أريد. لكني ذكَّرتُ نفسي بأنَّ أفراد القوات البحرية أيضًا ربما يحتاجون إلى مساعدتي، مثلما يحتاج توبي إليها. تخيلتُ صبيًّا تائهًا في بحر عاصف، لكن سترة النجاة التي يرتديها تُبقيه فوق الماء حتى إنقاذه. تخيلتُ تلك السترة مليئة بخيوط الصقلاب المحصود من مزرعتنا، بل ربما من الكيس الذي أحمله فوق كتفي تحديدًا.

ظللت أقطف قرون الصقلاب وأجمعها، حتى آلمتني أصابعي وفاض الكيس.

بجانب الممر العشبي الممتد بين الحظيرة والمنزل، كانت توجد سقيفةٌ للعربات، فنشرتُ القرون على إحدى المناضد الموجودة هناك لتجف. وألقيتُ التحية على القطط التي كانت تأخذ قيلولة في صندوق العربة. وبدأتُ أؤدِّي مهامي المعتادة التي كانت متأخرةً جدًّا عن موعدها المعتاد في ذلك اليوم الغريب جدًّا.

بدأت أولًا بجمع البيض من خُن الدجاج، الذي كان مكانًا جميلًا في الطقس البارد، وبشعًا في الطقس الحار. كانت طيورنا تألفني ولذا لم تكُن تُحدِث جلبة، حتى عندما كنت أمد يدي تحتها لأخذ بيضها الدافئ، تاركة بعض البيض مع الدجاجات الحاضنة، لكي تتوفَّر لدينا دائمًا طيورٌ صغيرة لتحل محل تلك التي كنا نأكلها.

وكانت أسوأ المهام اليومية بالنسبة لي هي نتف ريش الدجاج، بعدما تكسر أمي رقبته وتغمره في المياه.

أعطيتُ الطيور بعض الذرة وأزهار القطيفة المجفَّفة، شكرًا لها على دزينة البيض الذي جمعتُه في سلتي، وتركتُها في سلام.

غسلتُ البيض تحت المضخة عند البئر المجاورة للمنزل، التي كانت محاطة بهيكل ملائم يحميها؛ لذا كانت آمنةً ومُرتَّبة ونظيفة بما يكفي لإرضاء والدتي، وبعدئذٍ حملته إلى داخل المنزل.

قالت لي جدتي بعدما خلعتُ حذائي، ووضعت البيض في وعاء بجوار الموقد: «أحسنتِ.»

بعد ذلك صعدتُ إلى غرفتي، وخلعت بعض طبقات الثياب التي كنت أرتديها لتشعرني بالدفء في الصباح الباكر، وغيَّرت جواربي المبلَّلة، واستبدلتُ بها جوارب أخرى جافة، ومشَّطتُ شَعري بالفرشاة.

وبعدئذٍ عُدت إلى المطبخ، وساعدت أمي وجدتي في إعداد قِدر ضخمٍ من الحساء. لم نكُن نعرف موعد عودة الباحثين عن بِيتي، ولا عدد الأشخاص الذين سيعودون مع والدي لتناوُل وجبةٍ ساخنة؛ لذا حمَّرنا البصل وطهونا فيه اللحم البقري، وأضفنا إليه بعض الخضراوات، وبعضًا من عصير الطماطم الذي كانَت أمي قد حفظته في أوعيةٍ في أغسطس، وتركنا القِدر يغلي على نارٍ هادئة.

فحصَتْ أمي يديَّ للتيقُّن من أنهما نظيفتان بما يكفي، ثم وضَعَت وعاءً كبيرًا على طاولة المطبخ، وأزالَت القماشة الكتانية الرطبة التي كانت تغطيه، وجعلتني أضغطُ بقبضة يدي على العجين الذي كان منتفخًا كأنه بطنٌ أبيض ليِّن. وعكفنا نحن الثلاثة على لفِّ كُتَلٍ من العجين لنشكِّلها على شكل لفافات، ورصصناها على صَوانٍ مدهونة بالزيت، ووضعناها في الفرن.

وسرعان ما فاحت رائحة الحساء الذي يغلي على نارٍ هادئة، وامتزجت برائحة اللفائف التي بدأت تكتسي باللون البُني في الفرن، وهكذا صارَت رائحة المطبخ شهيةً جدًّا، لدرجة أنني شعرت بأنني أتضوَّر جوعًا من جديد. لم يسعني سوى تخيُّل الشعور الذي لا بد أنَّ توبي يشعر به آنذاك.

قالت لي أمي: «هيا اذهبي ورتِّبي غرفتكِ الآن يا أنابل.»

فعلتُ ذلك بسرعة البرق؛ إذ رتبتُ فراشي ووضعت الثياب التي كنتُ قد خلعتها على الأرض في مكانها المعتاد. لكن خطر لي بعد ذلك أن أنزع الغطاء عن وسادتي، وأبسط اللحاف فوقها مجددًا. فعلت هذا وذهبتُ أرى ما يمكنني أخذه.

أخذتُ من غرفة نوم شقيقيَّ روايةَ «جزيرة الكنز»، التي قد قرأتها جدتي لهما للمرَّة الثالثة للتو؛ ولذا كان من المؤكد أنها لن تحتاج إليها قريبًا. ووضعتُها في غطاء الوسادة.

وأخذتُ من غرفة أبي وأمي بنطالًا قديمًا من بناطيل أبي، وقميصًا قطنيًّا ناعمًا كجميع قمصانه الأخرى، وبعض الجوارب السميكة، وطقمَين من الثياب الداخلية. كانت أمي قد أعطت توبي طقمَين مماثلَين لهما من قبل؛ ولذا كان من المؤكَّد أنَّ هذَين سيكونان مناسبَين له تمامًا. واستعرتُ من عُدَّة خياطة أمي أحَدَّ مقصٍّ لديها.

وضعتُ كل ذلك في غطاء الوسادة، مع قالبٍ من صابون «لافا» ومنشفة نظيفة من الحمَّام.

كنت طَوال هذا الوقت على بُعد خطوات من أمي أو جدتي، لكنهما كانتا مشغولتَين، وكنت أنا أمشي على أطراف أصابعي لئلَّا تسمعاني وأنا أنزل بغطاء الوسادة إلى الكرار، وأتركه خارج الباب خلف شجيرة.

وعندما عدتُ إلى المطبخ، وجدت أمي تُعِد بعض الفطائر.

قلت لها: «أنا أيضًا أريد المشاركة في البحث.»

فاستدارت إليَّ من عملها الذي كانت منهمكةً فيه، ويداها بيضاوان بالدقيق. وقالت: «آه يا أنابل، لا أظن أنها فكرةٌ جيدة. لكنكِ تستطيعين أن تطلبي ذلك من أبيكِ عندما يعود مع الولدَين. أتوقَّع أنَّ شقيقَيكِ سيكونان راغبَين جدًّا في البقاء في المنزل، بعدما قضيا الصباح كلَّه يجوبان الأحراج الرطبة. ربما يمكنكِ أن تحلي محلهما.»

في الحقيقة لم أكُن أريد إلَّا حجةً لأخذِ جرَّةٍ من الحساء وبعض لفائف الخبز، والعودة إلى الخارج مجددًا، وها أنا الآن ربما أقنع نفسي بالمشاركة بعد الظهر في بحثٍ عن فتاة أزعجت الجميع.

قلت ببطء: «حسنًا. لكن لا أحد يبحث بالقرب من هنا مباشرة. فلماذا لا أذهب وأتمشَّى قليلًا عبر الأحراج الواقعة خلف الحظيرة؟ يمكنني أن آخُذ غدائي معي. لن أبتعد.»

حدَّقت إليَّ أمي مطولًا. وقالت: «هل تكتمين عني شيئًا يا أنابل؟»

أجبرتُ عينيَّ على الصمود أمام نظرتها المُحدِّقة. وقلت: «شيئًا بخصوص ماذا؟»

«بخصوص اختفاء بيتي.» كانت بحلول هذه اللحظة قد استدارت نحوي بكامل جسدها، وكانت يداها المكسوتان بالدقيق مستقرَّتين في الهواء كأنها ستقود فرقة موسيقية.

كان قول الصدق مناسبًا لي في هذه الحالة، مع أنه لم يكُن يخلو من الكذب أيضًا، وأدركتُ مجددًا أنني لن أستطيع كتمان سري وقتًا أطول.

فقلتُ: «لا. لا أعرف مكانها إطلاقًا. لكني أود المساعدة في العثور عليها.»

أومأت أمي برأسها وهي تبدو مُستغرِقة في التفكير. وقالت: «حسنًا، خذي ما تريدين واخرجي، ولكن لا تبتعدي عن تلنا، أتفهمين؟»

قلت: «سمعًا وطاعة يا سيدتي.»

اخترتُ معطفًا بجيبَين عميقَين. ووضعت في أحدهما برطمانًا مليئًا بالحساء الساخن، ملفوفًا بقطعة قماش مخصَّصة لغسل الأطباق، وملعقة. ووضعتُ في الثاني لفافة خبز ساخنة بعدما حشرتُ فيها قرصًا من الزبد، وضغطتها بأصابعي لأغلقها، ولففتُها في صحيفةٍ من الورق المشمع.

قالت لي أمي وأنا واقفة بجوار الباب مستعدة للذهاب: «تبدين وكأنك مرتدية بنطالًا لركوب الخيل.»

فقلتُ: «ما هو بنطال ركوب الخيل؟»

«لا تهتمي. كل ما أريده أن تنتبهي لنفسكِ يا أنابل، وألَّا تبتعدي كثيرًا. وعندما تسمعين جرس العشاء، ستعرفين أنَّ أباكِ قد عاد.»

فقلتُ مرَّة ثانية: «سمعًا وطاعة يا سيدتي.»

قالت: «أعيدي سلة البيض إلى خُن الدجاج.»

«سمعًا وطاعة يا سيدتي.»

وكانت تلك المرة الثالثة مُبالغة لافتة جدًّا.

فانحنت أمي قليلًا لتنظر في وجهي مباشرة. وقالت بنبرة غير غاضبة لكنها جادة جدًّا: «ما الذي تكتمينه عني؟»

فبادلتها النظرة بثبات. وقلت: «أنا خائفة.»

لم أعرف من أين خرجت تلك الجملة. لقد خرجت وحسب. وكانت هذه هي الحقيقة.

فنصبت قامتها. وقالت: «ممَّ؟»

هززت كتفي. وقلت: «كل شيء. بيتي. عدم العثور على بيتي. عدم العثور على توبي. ما قالته العمة ليلي عن أنَّ توبي يحتجز بيتي. قدوم الشرطة إلى هنا. وأنا حتى لم أرَ شرطيًّا من قبل.»

وبدأت أبكي.

كنت أبكي، وكان اندهاشي من هذا البكاء يفوق اندهاش أمي، التي انحنَت مجددًا واحتضنتني ووشوشتني في أذني بصوتٍ رقيق لتهدِّئني.

«هدِّئي من روعك يا أنابل. هدِّئي من روعك. كل شيء سيكون على ما يُرام.»

كان هذا هو نفس الكلام الذي قلتُه لتوبي من قبل، بغضِّ النظر عن إيماني به.

وكنت آملُ أن تكون أمي مؤمنة حقًّا بأنَّ كل شيء سيكون على ما يُرام.

لكني تعلَّمتُ على مرِّ الأسابيع الماضية، أنَّ إيمان المرء بشيءٍ ما لا يعني دائمًا أنه سيتحقَّق بالفعل.

مسحتُ عينيَّ واعتمرت قلنسوتي. وقلت: «لا أعرف ماذا كان الداعي إلى كلِّ هذا. فأنا لستُ مرعوبة جدًّا في الحقيقة. كل ما أتمناه أن يعثروا على بيتي حتى تعود الأوضاع إلى طبيعتها.»

ابتسمت لي أمي. وقالت: «وأنا أيضًا. والآن اذهبي وألقي نظرة في الأنحاء المجاورة، ولكن تذكَّري أن تبقي قريبة كما قلتُ لكِ.»

ثم عادت إلى ممارسة عملها، وعندئذٍ قلتُ لها: «ماذا ستقولين إذا طلبتُ منكِ إعداد فطيرة جوز؟»

كان لدينا بضع أشجار جوز، وكنا قد حصدنا منه كميةً كافيةً لاستخدامنا الخاص، لكنَّ المكسرات كانت غالية؛ ولذا عادةً ما كنا نُخصِّصها لأيام العطلات.

أمسكَت مِرْقاق العجين. وقالت: «سأقول لكِ أن تترقَّبي شيئًا من هذا القبيل قريبًا.»

قلت: «لا تنسي قرع الجرس عندما يعودون.»

خرجت من الباب، ونزلتُ ولففتُ حول الجزء الخلفي من المنزل، وأحضرتُ غطاء الوسادة، وعلَّقته على كتف واحدة. شعرتُ عندئذٍ بأنني أُشبه المتشرِّدين قليلًا، وواصلتُ السير نحو الأسفل حتى غصتُ وسط الأشجار، وعَبَرتُ جانب التلة المشجر أسفل الحظيرة إلى أن شققتُ طريقي حول جانبها الخلفي، واستطعتُ أن أدخلها، حيث نجحتُ مجددًا في أن أفعلَ ذلك دون أن يراني أحدٌ من المنزل أو الزقاق.

راقبني الحصانان وأنا أعبُر المرعى، وكانا متأهِّبَين لأعطيهما تفاحة لو كنتُ أحمل واحدة، لكني تجاهلتهما، ثم عادا إلى أكل العشب.

قلتُ وأنا أصعد السلم إلى العلية مجددًا: «إنه أنا، مجددًا.»

وهذه المرَّة خرج توبي من مَخبئه ليُلاقيني. قال لي: «لم أتوقع عودتكِ بهذه السرعة.»

قلت: «أحضرت المزيد من الطعام. فعندما يعود الجميع من البحث، سأضطر إلى العودة إلى البيت، وقد لا أستطيع المجيء هنا مجددًا لفترة من الوقت.» ثم أفرغت جيبيَّ من الحساء والخبز. وأعطيتُ توبي الملعقة. وقلت: «هذا غداء.»

كانت مشاهدة توبي وهو يأكل ذلك الحساء والخبز أشبَه بمشاهدة شخص يصلِّي. فقد استغرقَ في تناولهما وقتًا أطول من اللازم؛ إذ غمسَ الملعقة ببطء في البرطمان، وحين اقتربَ من نهايته أماله ليشرب ما تبقَّى فيه حتى آخِره. وعندما قضمَ لفافة الخبز وفوجئ بالزبدة الغضة داخله، ضحك. محض ضحكة فجائية لحظية.

بدا مذهولًا من تلك الضحكة مثلي تمامًا. فأنا لم أسمعه يضحك من قبل. ولم أرَه يبتسم حتى.

أنهى اللفافة، وأغلق البرطمان بغطائه، ووضعه جانبًا. وقال: «شكرًا لكِ.»

«على الرحب والسعة.»

أشار إلى غطاء الوسادة. وسألني: «ماذا لديكِ هناك؟»

جثوتُ على ركبتي وفتحته وأخرجت الكتاب. ثم مددته إليه. وقلت: «حسنًا، هذه رواية «جزيرة الكنز».»

كان الكتاب ليِّنًا من كثرة إمساكه، وكانت أطراف صفحاته بالية قليلًا من كثرة الاستخدام، لكن توبي مسح يدَيه في بنطاله بعنايةٍ قبل أن يمدهما ليأخذه.

قال: «شكرًا لكِ.»

فقلت: «على الرحب والسعة. توجد نافذة كبيرة خلف حزم التبن تلك نستخدمها لإنزالها إلى المرعى في الخارج. يُمكنك أن تفتح أحد مصراعيها وبذلك تحظى ببعض الضوء لتقرأ الكتاب عليه.»

أومأ توبي بالإيجاب.

قلت له: «هل لي أن أسألك سؤالًا؟»

رفع حاجبَيه. وقال: «لقد سألتني للتو بالفعل.»

ابتسمتُ وضربتُ جبيني بقبضتي. ثم قلت: «حسنًا.» وعندئذٍ سكَتُّ لحظيًّا لأنني خفتُ فجأة. وأضفت: «يعجبني شعرك ... يعجبني جدًّا. إنه شَعر جميل جدًّا.»

فقال مجددًا وهو يبدو متحيرًا: «شكرًا لك. هل هذا سؤال؟»

فقلت: «كان شَعري طويلًا هكذا فيما مضى، لكني كنت أتضايق بشدة عند وضع الحشوات الإسفنجية فيه، وكانت أمي تكاد تكسر رقبتي وهي تحاول تسليكه من تلك الحشوات بالمشط.»

فانتظر أن أقول المزيد.

أضفت: «ثم قصَّته العمة ليلي في صباح أحد الأيام، حين دخلتُ المنزل بعد أداء المهام اليومية المعتادة وأنا أحمل بعضًا من ريش الدجاج مشبوكًا في ضفائري. كادت أمي أن تُصاب بسكتةٍ قلبيةٍ عندئذٍ، لكنها في النهاية أصبحَت أكثر إعجابًا به. قالت لي إنني أشبه أميليا إيرهارت.»

أومأ توبي بالإيجاب. وقال: «أجل، تشبهينها قليلًا.»

«وكنتُ أتساءل عمَّا إنْ كان من الممكن أن تتركني أهذِّبه؟ لقد أحضرت مقصًّا، تحسُّبًا لموافقتك. لكن شَعرك يعجبني جدًّا يا توبي. إنه شَعر جميل.» شعرتُ حينها أنني بلهاء.

سحب توبي لفيفة من الشَّعر من وراء ظهره ونظر إلى طولها. ثم قال: «يُبقيني دافئًا في الشتاء.»

فأومأت. وقلت: «إذَن سأحيكُ لك وشاحًا ليدفئك بدلًا من شعرك.»

كان معنى هذا أنني سأضطر إلى أن أتعلم الحياكة أولًا، لكنه لم يكُن يعرف ذلك.

قال لي: «لماذا؟»

فقلت: «لماذا ينبغي أن تقص شَعرك؟»

فأومأ برأسه.

قلت: «للسبب نفسه الذي ينبغي أن تشذب لحيتك لأجله في رأيي. لكي تشعر بأنك منمق المظهر. أحب الشعور بأنني منمقة المظهر. أحب الشعور بمدى خفَّتي.» وهنا هززتُ رأسي. وقلت: «لا شيء يؤذي عينيَّ. منمقة المظهر.»

كانت هذه هي الحقيقة. ما لم أقُله هو أنَّ شَعره ولحيته كانا يخفيان من وجهه أكثر ممَّا يُظهران، كأنَّ وجهه مخبَّأٌ وهو يختلس النظر من مكان ما من داخل نفسه.

أضفت قبل أن أفقد حماستي وشجاعتي: «ثم يمكنك أن تغتسلَ بعناية تحت المضخة، وأن ترتديَ بعض الثياب الجديدة.» وأخرجت الصابونة والمنشفة والملابس من غطاء الوسادة، ووضعتها على حزمة من التبن.

ثم تراجعتُ ووقفتُ منتظرة.

سألني: «هل أنا قذر جدًّا إلى هذا الحد؟» ومدَّ يدَيه أمامه. آلمني النظر إلى اليد المصابة بالندوب، ورؤية كثرة تجاعيدها ونتوءاتها المتورمة.

قلت: «لا، على الإطلاق. آه، أنا آسفة يا توبي. لا أقصد ذلك إطلاقًا. كل ما قصدته أنَّك ستشعر بشعور جيد حين تكون، إحم ...»

قال: «منمق المظهر.»

فقلت: «نعم. منمق المظهر.»

ظننتُ أنه سيمسكني ويرميني من علية التبن، إذا نطقتُ كلمة «منمق المظهر» مرَّة أخرى.

لكنه أومأ بالقبول بعد قليل، وقال: «حسنًا، إذا كنتِ ترين ذلك.»

بدأنا بالشعر. قصصتُ معظمه كُتَلًا كبيرة أولًا، ثم كوَّمتها فوق بعضها لأدفنها في الأحراج لاحقًا. وهكذا تخلصتُ من أسوأ ما فيه، وعندئذٍ قررتُ أن أجعله متساويًا. مشذبًا. وصحيح أنني لم أكُن مؤهلة بما يكفي لفعل ذلك. لكني كنت أشاهد أمي وهي تشذب شعر شقيقيَّ، وعرفتُ أساسيات الطريقة السليمة لفعل ذلك. لكني مع ذلك كنتُ سعيدة لأنني لم أُحضر معي مرآة، لئلَّا يرى توبي إخفاقي في تهذيب شَعره كما ينبغي.

وعندما انتهيتُ، بدا توبي مختلفًا بشكلٍ مذهل عن مظهره المعتاد.

قلت له: «إنك تشبه أخاك»، كناية عن أنه أصبح نسخة أخرى من نفسه.

فنظر إليَّ توبي بجدية تامة. وقال: «ليس لديَّ أخ.»

فقلت: «ولا أخت؟»

هزَّ رأسه بالنفي.

فسكتُّ. وكبحت فضولي.

ثم قلت: «والآن اللحية.»

أشاحَ توبي برأسه إلى الوراء بقوة. وقال: «لا تقصِّريها جدًّا.»

فأومأت بالإيجاب. وقلت: «لا تقلق.»

ولكن قبل أن أبدأ، سمعتُ جرس العشاء يجلجل مدوِّيًا في المنزل.

فقلتُ له وأنا أسلِّمه المقص: «لقد عاد والدي إلى المنزل مع الأسف. سيكون عليك أن تشذب اللحية بنفسك.»

وقفَ فجأةً. وقال: «هلَّا تخبريني إذا عثروا عليها؟»

فقلت: «حسنًا. لكن عليك الآن أن تتوخى الحذر.» أعدتُ برطمان الحساء والملعقة إلى جيبي. وأضفت: «فأنا لا أعرف مَن قد يأتي إلى هنا تاليًا. فلتُخفِ بقية كل هذه الأشياء خلف حزم التبن، اتفقنا؟ سأعود في أقرب وقت ممكن.»

وعندما نظرتُ إلى الأعلى هذه المرَّة بعدما نزلت إلى الجرن، رأيتُ توبي يُحدِّق من فوق درابزين العلية.

ولولا أنني كنت أعرف أنه هو، لما تعرَّفتُ هُويته وهو ينظر إليَّ. فمظهره كان مختلفًا إلى هذا الحد بعدما صار حليقًا.

الفصل السابع عشر

توقعت أن أجد جدي وأبي وشقيقيَّ، وربما بعض الجيران الجائعين، قد عادوا إلى المنزل لتناول الحساء.

فوجدتُ هذا بالفعل، لكني وجدتُ أيضًا أعدادًا أكثر بكثير منهم.

كانت الساحة المحيطة بباب المدخل مليئة بكلاب من كلِّ الألوان والأحجام، وأوعية طعام كلاب فارغة، وأوعية ماء محاطة برذاذ متطاير من وقعِ ألسنة الكلاب الظمآنة اللاهثة.

أمَّا في الداخل، فكان المدخل موحلًا للغاية؛ إذ كان ممتلئًا بأزواج من الأحذية المكسوَّة بكتلٍ غليظة من الطين، فيما كانت الأرضية منقوشة بطبعات أقدام وسخة موحلة.

ووجدتُ في المطبخ رجالًا مبتلين ومُنهكين حول طاولة المطبخ، وكان الكثير منهم واقفًا بأقدامٍ موحلة حتى الركبتَين، فيما كانوا كلهم مرتدين جواربهم عدا رجلٍ واحدٍ.

كان هذا الرجل شرطيًّا فارسًا؛ أجل، كان يوجد في مطبخنا شرطيٌّ فارس من ثكنات الولاية، وكان هو الوحيد في الغرفة الذي ما يزال مرتديًا حذاءه الطويل الرقبة. كان عُنق حذائه يصل إلى ركبته، وكان نظيفًا في الأغلب؛ لذا علمتُ أنه لم يكُن في الأحراج طوال الصباح كالآخَرين. وكان الشرطي يُحدِث صريرًا عند الحركة من كثرة الملبوسات الجلدية التي كان يرتديها: حزامه، وحذائه، وقِراب مسدسه، وحزام ذقنه. وكان لديه صف من رصاصات طويلة حادة مدسوسة في حلقات في حزامه. وكان مقبض بندقيته مصنوعًا من الخشب الأملس ويكاد يكون جميل المظهر، فيما كان زيه الرسمي جامدًا وأنيقًا جدًّا من أخمصَي قدمَيه إلى القبعة، باستثناء بعض الجيوب المنتفخة التي كانت بارزة من جانبَي بنطاله. آها، تذكرت. هذا هو بنطال ركوب الخيل إذَن.

كان العريف أولسكا يتحدث.

كان يقول: «... وكل مقاطعة واقعة على حدود مقاطعتنا، ولكن لم يره أحد. من المؤكد بالطبع أنه موجود في مكان ما في الأحراج، ومن المرجَّح أن يجده صياد أو مزارع ما. لقد أُعلِن الخبر، وسينتشر. سيراه أحدٌ ما في النهاية، وسنحظى بفرصة للتحدث إليه. لكنَّ الضابط كولمان موجود هنا لمساعدتنا في العثور على بيتي وليس توبي.»

تسللتُ بهدوء لأقف بجوار جدتي التي كانت تغرف الحساء، بينما كانت أمي تحمل الأطباقَ الساخنة إلى الرجال، واحدًا تلو الآخَر. لمحتُ شقيقيَّ من بين ساقَي الشرطي الراسختَين في الأرض، حيث كانا جاثمَين متلاصقَين تحت الطاولة فاغرَين أعينهما.

كان صوت الضابط عميقًا بالطبع. وهكذا كان متماشيًا جدًّا مع ذقنه المربع وكتفَيه العريضتَين. كان رجلًا كمَن نقرأ عنهم في الكتب.

قال: «العريف مُحق. لكننا لا نستطيع البحث عن بيتي كما ينبغي إلَّا إذا عرفنا سبب اختفائها. ينبغي ألَّا نبحث عنها في الجوار أصلًا إذا كان توبي قد أخذها.»

ها هو مجددًا. ذاك التلميح البشع. أردتُ أن أصرخ، وأقول بعلو صوتي إنه لم يفعل ذلك! إنه في الحظيرة يقرأ رواية «جزيرة الكنز»! لعل هذه تكون معلومة نافعة لهم.

«إلى أن نعثر عليه، وهذا سيحدث حتمًا، علينا أن نفترض أنَّ بيتي مُصابة ولا تستطيع الاستغاثة بأحد. من الممكن أن يمشي أحدكم بجوارها وسط الأوراق والوحل ولا يراها إطلاقًا.»

قال العريف: «كانت ترتدي عباءة صفراء عندما غادرت منزلها أمس.»

قال الضابط: «حسنًا، هذا مفيد جدًّا. لكنكم لن تلحظوا ذلك إذا كانت موجودة في كوخٍ للنفط، أو قابعة في بئر.»

أحسستُ في داخلي بسكون تام يُخيم عليَّ.

شعرتُ بأنَّ أحدًا قد مدَّ يده وربتَ على كتفي. شعرتُ بهمسةٍ تراودني من مكانٍ ما في ذاكرتي.

قال جدي: «توجد حُفَر مناجم قديمة في مُنخفَض «حفرة الذئاب». صحيحٌ أنَّها مملوءة جدًّا، ولكن ربما وطئت الفتاة بقدمها تجويفًا ما وسقطت إلى أسفلها.»

فقال والد آندي: «بحثنا في كل مكانٍ في المُنخفَض.» تساءلتُ حينها في نفسي أين يا ترى قد يكون آندي. وحسبت أنه ربما قد بقي في الخارج وما زال يبحث.

قال الضابط: «واصلوا البحث. إذا أخذها، فلن تجدوها. أمَّا إذا أصابها، فربما تجدون ... شيئًا ما.» التفتَ برأسه إلى الوراء رمق أمي بنظرة خاطفة. ثم رمقني أنا بالنظرة نفسها.

وكرَّر قائلًا: «ربما تجدون شيئًا ما. إذا كانت ما تزال هنا في الجوار وكانت مُصابة فحسب، ربما تكون فاقدة الوعي. في واحدة من تلك الحفر ولا تستطيع الرد على نداءاتكم. بالرغم من ذلك، واصلوا النداء. حتى إذا لم تستطِع الرد، فقد تسمعكم وتستجمع قواها.»

«أليس من المفترض أن تجدها الكلاب عندئذٍ؟» كان السيد أنسل هو مَن طرح السؤال هذه المرَّة. وبدت لهجته، وسط هذه الصحبة، أغرب من أي وقت مضى.

هزَّ الشرطي رأسه بالنفي. وقال: «كلابكم لا تستطيع ذلك، مع الأسف. وكلابنا البوليسية المُدرَّبة على الصيد لن تكون هنا إلا في وقتٍ لاحق من اليوم، هذا إنْ كنا محظوظين. وربما لا تأتي إلا غدًا. فهي تؤدي مهمة في وينسبرج. لكننا سنحصل على مساعدة قريبًا. فالناس يأتون من كل مكان عند وجود عملية بحث جارية. وإلى أن يحين وقت مجيئهم، سنواصل البحث.» وأضاف قائلًا لوالد آندي: «أريد أن أتحدث إلى ابنك.»

ارتسم الذهول على وجه السيد وودبيري، وقال: «إنه لم يفعل شيئًا.»

«حسنًا، لم يقُل أحد إنه فعل شيئًا، ولكن قيل لي إنه كان مقربًا إلى الفتاة. كان معها قبل أن تختفي. وربما يكون على دراية بمعلومات يظنها غير مهمة.»

كان الرجال كلهم يأكلون الحساء ولفائف الخبز، هانئين بالأكل والراحة في هدوء، بينما واصل الضابط كلامه. قال: «أخبرني العريف أولسكا بالمشكلات الأخرى التي واجهتكم. الفتاة التي فقدت إحدى عينَيها»؛ وهنا توقَّف السيد أنسل بلا حراك، بينما كان يهم بوضع ملعقته في فمه. وأضاف الضابط موجهًا كلامه إلى أبي: «وتَعرُّض ابنك لجُرحٍ بسلك مشدود.» وعندئذٍ رأيت جيمس، تحت المنضدة، يمد يده ليتحسس قشرة الجرح على جبينه.

تابعَ الضابط كولمان قائلًا: «وجدتُ لفة من سلكٍ حادٍّ في الكوخ الذي يسكنه توبي، مدسوسة أسفل أغطية فراشه. وكان عليها دم.»

سَكَنت أمي بلا أي حراك. كانت تقف بجواري، وشعرتُ بها تتغيَّر. تتجمَّد تمامًا.

شعرتُ مجددًا برغبة في أن أصرخ وأقول إنَّ «بيتي أخذت السلك.» إنَّ «توبي لم يؤذِ أحدًا.»

لكني لم أفعل. كنت أحتاج إلى وقتٍ لأفكر في كل هذا. لأستمع إلى الهمسة التي تراودني في أعماق عقلي.

ملأتُ قدحًا بالحساء وأكلته واقفة بتروٍّ، مثلَ ما أكله توبي، بينما كنت أصغي إلى كلام الرجال وهم يتحدثون عن الأماكن التي ذهبوا إليها، والأشياء التي رأوها. وبدأتُ للمرة الأولى أتساءل بجديةٍ عن مكان اختفاء بيتي.

كنتُ حتى هذه اللحظة أقاوم التلميحات التي توحي بأنَّ توبي قد آذاها. افترضتُ أن بيتي كانت تلعب لعبة أخرى من ألعابها الغبية، أو أنها هربت إلى مكان ما. لكني الآن بدأت أتساءل بالفعل عن مكان اختفائها، ولماذا لم يعثر عليها أحد.

عندما شبعَ الرجال، خرجوا مجددًا لمواصلة البحث، وكنت أرغب حقًّا في الذهاب معهم هذه المرَّة. لكنني بقيت للمساعدة في رفع الأطباق وغسلها؛ فتلك المهمة المنزلية المعتادة كانت تساعدني دائمًا في تصفية ذهني، وتمنيتُ أن أسمع تلك الهمسة مرة أخرى بصوتٍ أوضح.

وفجأةً سمعتُ جدتي تقول لي: «إذا واصلتِ تجفيف هذا الطبق أكثر من هذا، فسيتلاشى تمامًا يا أنابل.»

فنظرتُ إلى الأسفل، وتفاجأتُ حين رأيتُ أنني كنت منهمكة في تجفيف الطبق نفسه، منذ وقتٍ طويل بعض الشيء.

«آسفة يا جدتي. لم أكُن منتبهة.»

«أجل، لكن انتباهكِ لم يكُن مشتتًا عن هذا الطبق الذي تمسكينه بالتأكيد، بل عن تلك الأطباق الأخرى.» وأومأت برأسها ناحية رفِّ الأطباق التي يتصاعد منها البخار في انتظار تجفيفها. وقالت: «ما رأيكِ في أن تبدئي في تجفيف هذه الأطباق؟» كان ما يزال أمامها حوضٌ مليءٌ بالأطباق التي يتوجَّب وَضْعها هي الأخرى على الرف.

أمسكتُ قدحًا وجففته، ثم قدحًا آخَر، وجففته. وهكذا ظلَّت يداي تعملان تلقائيًّا دون تفكير، فيما كان تفكيري كله مُنصبًّا على السلك والضابط وبقية تلك الفوضى المحيرة.

عندما انتهينا من الأطباق، ساعدتُ في كنسِ الطين الجاف من المواضع التي وطئها الرجال بأقدامِهم في المطبخ، لكنَّ الوضع كان أسوأَ في حجيرة المدخل. قالت لي أمي: «افعلي ما بوسعك. ولكن لا تفركي الأرض لإزالة أي بقعة. فهي ستتلطخ بالوحل مجددًا في وقت العشاء عندما يعودون.»

لم يكُن من عادة أمي إطلاقًا أن تترك مكانًا متسخًا؛ لذا أدركتُ، فجأة، أنها أيضًا كانت متعبةً جدًّا. ومهمومةً جدًّا.

قلت: «أنا متيقنةٌ من أنهم سيعثرون على بيتي قريبًا جدًّا.»

فتنهدَت. وقالت: «أتوقع أنهم سيعثرون عليها، في كل الأحوال.»

ها هو نفس التلميح مجددًا إلى أننا سنشهد مصيبة.

مصيبة بدا أنَّ الكل يتوقعها إلا أنا.

كنتُ سعيدة لأنني لم أكُن أتوقعها مثلهم، ولكن بدأت أظن أنني ربما ينبغي أن أشاركهم هذا التوقع.

سألتُها: «هل يُمكن أن أخرج وأجري مزيدًا من البحث حولنا؟»

فأجابت قائلة: «أجل، على ما أظن. لقد فوجئتُ عندما لم تطلبي الخروج مجددًا مع بقيتهم.»

دسستُ مكنستي في الخزانة. وقلت بصدق: «أنا مُتعَبة قليلًا. لكني أريد الخروج بعض الوقت.»

أومأت بالموافقة. وقالت: «كما قلتُ لكِ من قبل. لا تبتعدي. ولا توقعي نفسك في أي مشكلة.»

فقلتُ وأنا أرجو أن يتحقَّق ذلك بالفعل: «لن أفعل. سأعود قريبًا.»

كان توبي مختبئًا مجددًا في حزم التبن عندما عدتُ إلى العلية. أعلنتُ مجيئي بهدوء، ثم توقفت فجأةً حين رأيته.

قال بتوتر: «نزلتُ إلى الأسفل. حين كان الكل داخل المنزل لتناول الغداء، قررتُ أن أغتسل عند الصهريج، كما قلتِ.»

كان قد قصَّر لحيته وهذَّبها، وفرك جسده مُنظفًا إياه، وغسل شَعره، فكان منفوشًا واقفًا كالريش حول كل رأسه.

كان يبدو ... جديدًا.

وفي ظل اكتسائه بثياب أبي، كان من الممكن أن يُعتَبر كأيِّ شخصٍ آخَر حقًّا. كان من الممكن أن يبدو مجرد رجل عادي، نحيف جدًّا، رث الهيئة قليلًا، وألَّا يلفت انتباه الآخَرين، لولا الندوب التي كانت على يده.

وبعدما رأيتُ هذا التحول، لم أستطِع محوه من ذاكرتي. لم أستطِع أن أعرف ما إذا كان التغيير هائلًا حقًّا بقدر ما يبدو أم لا.

ولكن خَطَر ببالي — وهذا أسعدني — كما لو أنَّ شمسًا صغيرة كانت تشرق، وأن لا أحد سواي سيعرف أنه توبي، بعدما تغيَّر إلى هذا الحد.

قلت: «يا إلهي. تبدو مختلفًا جدًّا.»

نظر إلى نفسه. وقال: «أشعر بأنني شخصٌ غريب.»

فأومأتُ بالإيجاب. وقلت: «تبدو شخصًا غريبًا.»

جلسَ على حزمة التبن، ونظر إليَّ بترقُّب. ثم سألني: «ماذا؟»

فسألتُه: «لماذا تقول ماذا؟»

«تبدين مهمومة.»

«حسنًا، أنا مهمومة. مهمومة بكلِّ أنواع الأشياء. لكني أصبحت للتو مهمومة بشيء جديد.»

فقال مجددًا: «ماذا؟»

استغربتُ شعوري بأنني صرتُ مثل امرأة بالغة، لكنَّ هذا هو ما شعرتُ به وأنا واقفة هناك في العلية، أتحدَّث إلى هذا الرجل الذي كان أكبر سنًّا منِّي أربع مرات.

قلت: «إذا كانت عندي طريقة ... لأجعلك ... لأساعدك لتوضيح الحقيقة، اممم، بخصوص ما قالته بيتي ... فهل ستقبلها؟»

فكَّر توبي في ذلك دقيقة. ثم قال: «هذا مرهون.»

«بماذا؟»

«بما يجول في خاطرك.» تحسَّس شَعره القصير كما لو كان يرتدي قبعة جديدة لا تلائمه إطلاقًا. وأضاف: «كل شيء يحدث لي بوتيرة أسرع مما أبتغي بالفعل.»

لكني كنت أظن أنَّ حدوث الأشياء له بوتيرة سريعةٍ، ربما يكون أفضل من عدم حدوث شيءٍ على الإطلاق، وهذا ما كان سيحدث لولاي.

وحينها تساءلتُ لأول مرَّة إنْ كنت قد فاقمتُ سوء الأوضاع، بمحاولة تحسينها.

قلت: «حسنًا، يُمكنك أن تبقى هنا ما دمت تريد. وربما سيجدون بيتي ويدركون أنك لم ترتكب أي جُرم.»

فرك توبي يده المصابة، ونظر إليَّ بفضول. وقال: «أو؟»

«أو يُمكنك أن تفعل شيئًا ما حيال ذلك؟»

رفع حاجبَيه. وسألني: «مثل ماذا؟»

ظللتُ أفكر لحظةً لأنتقي بداية مناسبة لكلامي.

ثم قلت: «في العام الماضي، كنتُ أمشي نحو أعلى التل فوق منزلنا، عند الغسق بالضبط، بهدوء تام، على أمل أن أرى ظبيًا صغيرًا وأمه الغزالة بعدما رأيتُهما هناك من قبل. تسللتُ إلى قمة التل ووقفتُ هناك وقتًا طويلًا أراقب، لكني لم أرَ أي غزال في أي مكان. حاولتُ أن أضرب ذبابة، فأخفتُ غزالةً كانت واقفة وسط خلفيةٍ من الأشجار على حافة الحقل. كانت مختبئةً على مرأًى من الجميع.»

حدَّق توبي إليَّ. وقال: «هذه قصة جميلة جدًّا يا أنابل.»

«أنا سعيدةٌ لأنها أعجبتك.» وانتظرتُ أن يفهم مغزى القصة.

لكنه ظل مُنتظِرًا معي.

قلتُ أخيرًا: «أنت الغزالة.»

«أنا ماذا؟»

«أنتَ الغزالة. أنت الشخص الذي يختبئ على مرأًى من الجميع.» أدركتُ أنه لم يرَ نفسه في مرآة، ولم يتسنَّ له أن يعرف حجم التغيُّر التام الذي طرأ على مظهره. وأضفت: «لا أحد سيعرف أنك توبي، لا أحد سيعرف ذلك بمظهرك الحالي.»

انبعجت قسمات وجهه. وقال: «حتى إذا كان هذا صحيحًا، فكيف سيساعدني في إصلاح أي شيء؟»

فعرضتُ عليه فكرتي.

استغرقَ إقناعُه بعضَ الجهد، لكن حالما تقبَّل توبي فكرةَ أنَّ أحدًا لن يتعرَّف على هُويته الحقيقية الآن، بدأ يرى نتائجها الممكنة.

قررنا أن يبقى في الحظيرة إلى ما بعد حلول الظلام، ربما حتى مجيء الصباح، ثم ينضم إلى البحث. وإذا سأله أيُّ شخص، فليقُل إنه جاء من بلدة هوبويل لتقديم المساعدة. إنه قد سمع باختفاء بيتي وجاء ليفعل ما بوسعه. وأشياء من هذا القبيل.

قال: «بدأ الأمر يُصبح كأنه لعبة. لا يعجبني ذلك.»

«ولا أنا. هذا كله سوء فَهْم غبي كبير. لكنك كالغزال حقًّا يا توبي، وكل هؤلاء الرجال الآخَرين هم الصيادون. لا يمكنك الاختباء إلى الأبد، ولا يمكنني كتمان هذا السر وقتًا أطول. إنه باتَ مثل حجرٍ على صدري.»

أومأ توبي بالإيجاب. وقال: «أعرفُ هذا الشعور.»

فركَ وجهه بيدِه المصابة، وبدا مذهولًا حين وجد أنَّ لحيته قصيرةٌ جدًّا.

لم يسعني سوى التحديق إلى ندوبه، التي كانت قريبة وبشعة جدًّا.

وعندما رآني أحدِّق، أنزل يده ببطء، ومَدَّها نحوي.

قال: «لا أمانع.»

كنتُ متيقنةً من أنه لم يقصد أن ألمسها، ولكن بعدما نظرتُ مطولًا إلى الجلد التالف — الذي كان كثير الكتل وبارز العروق كنباتِ الكرنب في أكتوبر — أمسكتُ يدَه بكلتا يدَي،

وقلبتُها على وجهها ثم على ظهرها مجددًا، وكانت يداي صغيرتَين وناعمتَين جدًّا مُقارنةً بها.

وحين بدأ يسحبها، أمسكتُها بإحكام.

وعندئذٍ نظرتُ إلى الأعلى، فوجدتُ توبي يبكي. وأنا أيضًا رحتُ أبكي.

كتمتُ ما قاله لي توبي بعد ظُهر ذلك اليوم، ولم أخبر به أيَّ مخلوقٍ حيٍّ قَط.

ربما كان وقتٌ طويل جدًّا قد مرَّ منذ أن لمسه أيُّ شخصٍ، لدرجة أن تلك اللحظات القليلة من التلامس بين يده ويديَّ كانت كافيةً لأن يفتح صدره ويكشف عن مكنونه.

لكنَّ ما انكشف عندما انفتح صدره كان محزنًا جدًّا، لدرجة أنني لم أتوقَّف عن التساؤل كيف نجا من كل هذا.

تحدَّث عن الحرب.

قال: «ليست تلك الحرب الجارية الآن. بل الحرب الأخرى. الحرب التي كان يُفترض أن تكون الأخيرة.»

لم أفهم الكثير مما قاله. ففي أغلب الوقت لم يكن حتى موجِّهًا كلامَه إليَّ. أعني لم يكن يوجِّه كلامه إليَّ فعليًّا.

كان يتحدَّث فحسب. كان في بعض الأوقات يتكلَّم واضعًا يدَيه على وجهه. وفي أوقاتٍ أخرى كان يمشي جيئة وذهابًا. كان يسرد قصة.

قصة عن «الشيء السيئ» الذي اقترفه.

تحدَّث عن الصوت الذي تُصدره الرصاصة وهي تخترق الجمجمة.

طعم التراب الممزوج بالدم. رائحته. الشعور الذي ينتاب المرء وهو جاثمٌ في خندقٍ موحل يَرتَجُّ من شدَّة انفجار قنبلة، متسائلًا عمَّا إذا كان غاز الخردل يتسلَّل عبر الأرض من فوقه كالثعبان، ليصبح أقرب إليه في كل لحظة.

عن الخوار الذي يُصدره بعض الرجال، كالبقر، وهُم يُمزَّقون إلى أشلاء. عن الصفير الذي يُصدره بعض الرجال الآخَرين في أثناء ذلك، كالقطارات.

تحدَّث عن شعور أكل العشب في حقل، كما لو كان حصانًا؛ والنوم في شجرة، وحزام بندقيته المشدود على جسده بإحكام؛ والرغبة في البقاء هناك إلى الأبد، في التضوُّر جوعًا هناك إلى أن يصبح قفصه الصدري موطنًا للطيور المُعشِّشة، وتتساقط عظامه واحدةً تلو الأخرى، تحت تأثير الجاذبية، كالأغصان الميتة.

تحدَّث عن الجنود الذين أرداهم بالرصاص. قال: «كثيرون جدًّا. كثيرون جدًّا.»

وتحدَّث عن طفل رضيع، كان قد وُلد للتو، وما يزال الحبل السُّرِّي في بطنه يربطه برحم أمه، وعن الأم أيضًا ... وباستثناء ذلك، لم يكُن الكثير من كلامه مفهومًا، هذا إنْ كان أيٌّ منه مفهومًا أصلًا.

حاولتُ أن أقاطعه مرَّة أو اثنتَين، لأخبره بأنه ليس بشعًا كما يزعم، ولأعده بأنَّ الرب سيتفهَّمه، لكن كلامي كان يبدو له لغةً غير مفهومة إطلاقًا، كهديل إحدى الحمائم الجبلية التي تحوم عند سقف الحظيرة.

ومن ثمَّ بقيتُ ساكنة تمامًا، وانتظرتُ محاولةً ألَّا أسمع كلَّ كلامه، وراجيةً — وأنا لم أكمل من الأعوام اثني عشر بعد — ألَّا أنجب أيَّ أبناء.

الفصل الثامن عشر

عندما نالَ التعبُ من توبي، استلقى وسط التبن وغطَّ في النوم فورًا. وبدَت رموشه المبللة الملامسة لخدَّيه شديدة الشبه برموش طفل، إلى حدٍّ فاقَ كلَّ تصوراتي.

نام بلا صوت. بلا حراك. ولم يَدرِ بشيء عندما غطيتُه بمعطفه وتركته هناك.

خرجتُ من العلية ونزلتُ سلَّمها ببطء، وكدت أسقط مرَّة أثناء نزولي، ثم نزلتُ الدرج، ومشيتُ عبر حظيرة الخيول في الأسفل، وخرجتُ من البوابة المفتوحة.

كان الأمر غريبًا، لكني وجدتُ أنَّ لون كل شيء قد تغير. تغير قليلًا فقط. كان كل شيء أوضح. أشدَّ سطوعًا.

عندما مررتُ بخنِّ الدجاج، قرقرت إحدى الدجاجات كأنها تناديني عبر شبكة نافذته الصغيرة، وأردتُ أن أقبِّل سن منقارها الأصفر.

كنت أتمنى أن يخرج كلبٌ من كوخ الحطب نابحًا بأعلى صوته ليؤمِّن مروري؛ فلو كان ذلك قد حدث، لاستلقيتُ وسط الأوراق وجعلته وسادة. لبقيت هناك وتركت فروه يُصبح دُنياي كلها لبعض الوقت.

لكني بدلًا من ذلك رأيتُ سيارة غريبة متوقفة في زقاقنا. سيارة الشرطي. استجمعتُ شجاعتي، وأخذتُ نفَسًا عميقًا، وكلَّفتُ نفسي بأداء مهمة منزلية.

كنت بارعة في المهام المنزلية.

ساعدني دخول المنزل. كان أمرًا بسيطًا لكنه مفيد.

سألتُ أمي من المدخل: «أين الضابط كولمان؟»

كانت هي وجدتي تُعِدَّان ما يكفي من سلاطة الكرنب من أجل «كتيبة جنود الهون»، على حد وصف جدي، الذي كان يحب قول العديد من الأشياء المُحيِّرة كهذه.

قالت جدتي: «حسنًا، سيارته فقط هي التي ما زالت هنا، وليس هو. ارتأى جدك أنه من الأسهل عليه أن يصحبه إلى منزل آل وودبيري في شاحنتنا، بدلًا من أن يحاول أن يشرحَ له كيفية الوصول إلى هناك بسيارته.»

وقفتُ على عتبة المطبخ وشاهدتهما وهما تعملان. ثم سألت: «إذَن سيعود إلى هنا؟»

«قريبًا، على ما أظن. فقد ذهبا منذ وقت طويل.»

قالت أمي: «هيا يا أنابل، اغتسلي وابدئي في تقشير هذه البطاطس. فكل هؤلاء الرجال الذين أتوا للبحث عن بيتي سيحتاجون إلى تناول الطعام، وبعضهم سيعودون إلى المنزل مع والدك بالتأكيد.»

لم أتحرك أو أرد، وعندئذٍ استدارت لترمقني بنظرة متفحصة. وقالت: «أنابل؟» مسحت يديها على مئزرها وأتت إليَّ لتتحسَّس خدي. وسألتني: «هل أنتِ بخير؟ أنتِ شاحبة جدًّا.»

أومأتُ بالإيجاب. وقلت: «أنا بخير.»

بدت غير مقتنعة. وقالت: «حسنًا، إذَن اذهبي واغسلي يديكِ وتعالي لتساعدينا.»

كنت أنوي أن أعكف على مراقبة شقيقيَّ لأضمن ألَّا يقتربا إطلاقًا من الحظيرة، لكنهما كانا مُنهكَين جدًّا من البحث، لدرجة أنني وجدتُهما مُستلقيَين على أرضية غرفة الجلوس، محاطَين بمجموعةٍ من قِطع الألعاب التركيبية، يستمعان إلى مسلسل «مغامرات الرجل الخارق» (أدفنشرز أوف سوبرمان) على المذياع.

شعرتُ بأنني كبيرة جدًّا في السن وأنا أشاهدهما.

لكنَّ الضابط كولمان عاد بعدئذٍ مع جدي، وسرعان ما عُدتُ فتاة قلِقة جدًّا من جديد في لمح البصر.

وعند سماع صوت الضابط الجهوري، تسلل شقيقاي إلى المطبخ وزحفا إلى أسفل المائدة كما فعلا من قبل.

حاولتُ جاهدة أن أستمع بوضوح إلى المعلومات التي عرفها الضابط كولمان من آندي، لكن الأمر لم يكُن سهلًا.

فصوتُ نبرة توبي، ومنظره وهو نائم وسط التبن، كتما كل شيء آخَر، كما لو كنتُ محبوسة داخل برطمان مُغلَق بغطاء لا توجد فيه فتحات كافية إطلاقًا للتنفُّس.

جلس الضابط كولمان يشرب القهوة الساخنة ويتناول فطيرة، وأخبرنا في أثناء ذلك ببقية القصة، وأدركتُ السبب الذي جعل آندي يكتم عنه بعض المعلومات.

«قال لي ذات الكلام الذي قاله للعريف من قبل. إنه هو وبيتي كانا ينويان التغيُّب عن المدرسة والالتقاء في الأحراج. لكنَّ ما خفي كان أعظم. فحين ضغطتُ عليه، اعترف بأنهما كانا يعتزمان النزول إلى مُنخفَض «كوب هولو». وكانا ينويان إذا وجدا توبي في كوخه أن يذهبا إلى مكان آخَر. أمَّا إذا لم يكُن موجودًا، فكانا ينويان أن يتفقدا الكوخ.»

فقالت أمي: «آه، يا رباه. لماذا كانا ينويان ذلك بحق السماء؟»

قال الضابط وهو يهز رأسه: «هذا سؤال منطقي. لقد استلزم بعض التحرِّي، لكن والد آندي رجل صارم، ويُمكنني القول إنه «حثَّ» ابنه على التعاون معنا. ولذا، قال لنا آندي إنهما كانا ينويان مضايقة توبي في ذلك اليوم. كانا يُفكران في إضرام النيران في كوخه، ليجبراه على الرحيل.»

فقلت: «أخبرتُكم بأنَّ تلك الفتاة على هذا القدر من هذا السوء»، لكن أمي أشارت لي بأن أصمت.

قالت: «تَحلِّي بالصمت يا أنابل، أو فابدئي بتقشير تلك البطاطس.»

ابتسمَ لي الشرطي ابتسامة صغيرة. وقال: «لا أستطيع أن أفهم شيئًا مؤكدًا من كل هذا. لقد أعطاني العريف أولسكا أكبر قدر ممكن من المعلومات، لكنَّ المسألة تبدو مشوشة مُحيِّرة، أي تلك المسألة الأخرى الجارية. كل ما أريد فعله في الحقيقة هو العثور على الفتاة.»

فسألته جدتي: «ألم يُدلِ آندي بأي معلوماتٍ مفيدة أخرى؟»

فقال الضابط كولمان: «كلا.» ثم أبعَد طبقه وارتشف آخِر ما تبقى من قهوته. وأضاف: «كانت السماء تُمطِر بغزارة شديدة يومَ اختفت الفتاة، لدرجة أنَّ آندي لم يتخيَّل أنها قد تكون موجودةً في أي مكانٍ سوى المدرسة أو المنزل. وحين سألتُه، قال إنه يستبعد أن تكون قد ذهبَت إلى الكوخ وحدها. لكنها هي التي اقترحت فكرة مضايقة توبي وإجباره على الرحيل. كانت مصمِّمة جدًّا عليها. وها هي الآن قد اختفت. وتوبي قد اختفى. وأظن أنني ينبغي الآن أن أكثِّف البحث عنه، وليس عنها.»

وقفَ واعتمر قبعته مرَّة أخرى. وقال لأمي: «أشكركِ على حسن ضيافتكِ يا سيدتي.» ثم قال لجدي: «وعلى مساعدتك»؛ وقال لي: «ومساعدتكِ ...»؛ ثم قال وهو ينحني ليحدِّق تحت المائدة إلى هنري وجيمس: «ومساعدتكما.» وأضافَ أخيرًا: «أنا واثقٌ من أنَّ العريف يستطيع تولِّي مسئولية البحث من الآن فصاعدًا.»

غادر الشرطي. هكذا فجأة.

شعرتُ بالارتياح طبعًا لأنه سيبحث عن توبي في مكان آخَر غير هنا. وكنت واثقة من أنَّ العريف أولسكا سيتدبر أمر الخطوة التالية. لكنه لم يكُن يعرف كل ما أعرفه.

لم يكُن يعرف أنَّ بيتي هي التي رمت ذلك الحجر، بغضِّ النظر عمَّا أظهرته الصورة أو ما ذكرته بيتي نفسها.

لم يكُن يعرف أنَّ توبي لم يختطف بيتي.

لم يكُن يعرف أنَّ ذلك السلك الملطَّخ بالدماء الذي وجدوه في الكوخ لا يعني شيئًا. وأنَّ بيتي هي التي وضعته هناك. كنتُ متيقنةً من ذلك.

معنى هذا أنها ذهبَت بالفعل إلى الكوخ في اليوم الذي اختفت فيه. بينما كان توبي يصطاد تحت جسر الجدول. وبينما كان المطر يهطل بغزارةٍ كأستارٍ كثيفة.

وعندئذٍ ارتفع صوتُ الهمس في رأسي. وظننتُ أنني عرفتُ مكانَ بيتي.

قالت أمي: «البطاطس يا أنابل. من الممكن أن يعودَ والدكِ في أي وقتٍ ومعه بعض الرجال.»

فقلت: «سمعًا وطاعة يا سيدتي.»

كان الحوضُ مليئًا بحبَّات البطاطس الكبيرة، وهذه كانت أسهل بكثيرٍ في تقشيرها من البطاطس الصغيرة، وبذلك تركتُ يدي تؤدِّي العمل بينما كان الهمس يشتدُّ في رأسي.

حاولتُ أن أجد ثغرات في فرضيتي، لكنها كانت صلبة ومُحكمة جدًّا. فقد كانت تحمل إجابةً لكل سؤالٍ راودني. كانت تحمل وعدًا مُطمئنًا يزيل كل شكٍّ انتابني، كنت متيقنةً من أنَّ بِيتي موجودةٌ هناك. كان من المنطقي أن تكون هناك.

شعرتُ برغبةٍ شديدةٍ في إخبار شخصٍ ما في التو واللحظة. وفكَّرتُ في إصلاح الوضع الخاطئ دون مزيدٍ من التأخير أو الالتباس.

غير أنَّ العثور على بيتي لن يُبرئ توبي.

فقد كذبت بيتي من قبل وستكذب مجددًا، ستقول أشياء لا يُمكن لأحدٍ أن يُثبت عدم صحتها. فكيف يُمكن لتوبي أن يثبت أنه لم يؤذِ روث أو جيمس أو حتى بيتي نفسها؟ كيف يُمكن له أن يشرحَ سبب اختبائه إنْ لم يكُن مذنبًا بهذه الأشياء؟

كان ينبغي أن أتركه في كوخه. كان ينبغي أن أترك كل شيءٍ كما هو. فماذا لو اضطر إلى أن يرحل الآن، في ظل حلول الشتاء؟

«عندما تُنهي تقشير تلك البطاطس يا أنابل، اذهبي وأحضري وعاء خوخ من الكرار.»

قلت: «حسنًا يا أمي، سأفعل.»

سأنجِز مهامي المنزلية أولًا. وسأرى بعد ذلك الأخبار التي سيعود بها والدي إلى المنزل أيًّا كانت. ربما سأخبرهم بالحقيقة عندئذٍ.

حين دخلَ والدي من الباب بعد ذلك بساعة، كان يبدو منهكًا للغاية. قال وهو يخلع حذاءه الطويل الرقبة: «لا أعرف مكان الفتاة. ولكن إذا كانت موجودةً في أي مكانٍ قريبٍ من هنا، فمن المؤكَّد أنها مخفيةٌ عن الأنظار ولا تستطيع سماع أصواتنا.»

وبعد ذلك بلحظة، جاء أربعة رجال آخَرين، منهم اثنان غريبان عليَّ، ودخلوا واحدًا تلو الآخَر؛ كانوا مُنهكين بالقدر نفسه. الاثنان اللذان أعرفهما هما السيد إيرل والسيد جيم. لم أستطِع تذكُّر أسماء عائلتَيهما، لكنني كنت أعرف أنَّ السيد إيرل كان ميكانيكيًّا وأنَّ السيد جيم كان بقالًا. وقدَّم والدي الوافدَين الجديدَين: رجلٌ يُدعى ثيودور ليستر من أليكويبا، وآخَر يُدعى كارل أندرسون جاء قاطعًا كل هذه المسافة من نيوكاسل.

رحبنا بهما وعبَّرنا عن سعادتنا بلقائهما، وصبَّت أمي قهوة للجميع بينما كنتُ أضع أدوات الطعام على المائدة.

قال والدي: «لا أعرف ما الذي نستطيع فعله سوى ذلك يا سارة؟ السيد جلينجاري وزوجته مرعوبان وقلِقان جدًّا. لقد جاءت أم بيتي، وأنَّبتهما بقسوةٍ لأنهما سمحا بذلك.»

قالت جدتي: «لكنَّ هذا ليس عدلًا على الإطلاق.»

فقال: «لا يوجد كثيرٌ من العدل في هذا كله أصلًا.»

كان المساء يُخيِّم تدريجيًّا، وكان من المرتقب أن تعود العمة ليلي إلى المنزل قريبًا، وسرعان ما كنت سأحصل على حجة أخرى للذهاب إلى الحظيرة، إن احتجت إلى ذلك.

جلس والدي مع الآخَرين لتناول عشاء من اللحم البقري مع قطع البطاطس والجزر المحمَّصة. طعام مُشبِع. وهذا ما كان توبي في أمسِّ الحاجة إليه، وقد عقدت العزم على أن آخذَ بعضه إلى الحظيرة في أقرب وقت ممكن. قال والدي بينما كان يتناول الطعام: «من المفترض أن يكون العريف قد عاد الآن مع بعض الكلاب البوليسية من وينسبرج. لقد وجدت الكلاب طفلًا صغيرًا عالقًا في فخٍّ للحيوانات البرية في حُفرة منجمٍ فحم قديم، بعدما كان مفقودًا طَوال يومَين. والآن قد أصبحت تحت تصرفنا، وأعتقد أننا سنتوصل إلى شيءٍ ما عمَّا قريب.»

كان ينبغي أن أكون سعيدة بذلك. إذا كانت بيتي موجودة في المكان الذي كنت أتوقع وجودها فيه، فسيعثرون عليها، وهذا مهم. بالطبع كان هذا هو الشيء الأهم حتمًا. وإذا كان كذلك — وكنت أعلم أنه كذلك لأنه من المفترض حتمًا أن يكون كذلك — فإن أسوأ ما في هذا الوضع سينتهي قريبًا، في كل الأحوال.

أو كان يُمكنني أن أقف في الحال وأقول: «أظن أنني أعرف مكان بيتي.»

كدت أفعل هذا. وصلت الكلمات إلى طرف لساني وكادت تخرج، لكني ارتأيتُ أنَّ التحدث إلى توبي في البداية سيكون أفضل.

فعلى أقل تقدير، كان من المؤكَّد أنَّ لديه ما يقوله عمَّا حدث بعد ذلك.

كان بعضُ الضوء ما زال متبقيًا في السماء.

وكان من المفترض أنَّ الرجال سيعودون قريبًا ومعهم تلك الكلاب.

تسللتُ إلى حجيرة المدخل وارتديتُ معطفي وحذائي، وفتَّشتُ في الخزانة وبعثرتُ محتوياتها حتى وجدت معطف صيد قديمًا من الصوف منقوشًا بالمربعات، لم يكُن جدي يرتديه منذ فترة، ودسستُ قفازًا في جيبه، وخرجت متسللة من باب المدخل. سمعتُ من ورائي صوت أمي تناديني، لكني مضيت قُدُمًا، وخرجت ولففتُ حول البيت نزولًا إلى وسط الأحراج بأسرع ما أمكن.

كان الحصانان والأبقار في انتظاري عندما وصلتُ إلى الجزء الخلفي من الحظيرة، ودخلت الممر الأوسط.

قلت للأبقار الحلوبة: «أنتن فتيات صالحات»، وفتحت البوابة المؤدية إلى حجيرتها الكبيرة، وسحبت بعض التبن الطازج من شبكته، ووضعته في المِعْلَف. كان الحصانان منتظرَين بصبرٍ، وكانت دينا مُسنِدةً رأسها الكبير إلى ظَهر بيل. قلت لها: «أنت نعسانة. هيا ادخلي وارتاحي.» أعطيتُها قَدر مغرفةٍ من الشوفان، ووضعتُ بيل في حجيرته وأطعمته هو أيضًا. تيقنتُ من أنَّ دلاء المياه عندهما ممتلئة. وتركتهما وشأنهما.

كان توبي مستيقظًا حين وصلتُ إلى العلية. كان جالسًا في الظل دافنًا رأسَه بين يدَيه.

انتظرتُ أن يرفعَ رأسَه وينظر إليَّ. وعندما نظر إليَّ، صدمني منظر وجهِه الأبيض الحزين.

قال: «لا أعرف لماذا فعلتُ ذلك. لم أقصد إطلاقًا أن أفعل ذلك يا أنابل.»

فقلت: «تفعل ماذا؟»

«كان يجب ألَّا تسمعي تلك الأشياء التي قلتُها.»

وضعتُ يديَّ على رجلَي. وقُلت: «لأنني فتاة؟»

هزَّ كتفَيه وقال: «نعم يا أنابل. لأنكِ فتاة. لكني كنت سأشعر بنفس الشعور لو كان هنري، أو حتى جيمس، مكانك. لو كان بإمكاني أن أمحوَ ما أعرفه من ذاكرتي، لفعلتُ ذلك. في لمح البصر. لكني لا أستطيع. وحشو رأسك به لن يُغيِّر ذلك.»

قلتُ وأنا أحاول الابتسام: «أمي تقول إنَّ رأسي عنيد. وفوق ذلك، أُفضِّل أن أعرف أكثر ممَّا ينبغي على أن أعرف أقلَّ مما ينبغي.»

لم أخبره بأنني حفظتُ قصصه الفظيعة في صناديق، ووضعتُها على رفٍّ في مؤخرة ذهني. لكني مع ذلك كنتُ ما أزال أسمع نُسخةً أهدأ من تلك القصص، من مكانها المظلم في رأسي، وسط كل الهموم الأخرى التي كانت تشغل عقلي، لكني كنتُ عازمةً على ألَّا أفتح تلك الصناديق، إلى أن أكون مستعدةً لسماع قصص توبي مجددًا مثلما ينبغي سماعها. ورأيتُ أنَّ هذا لن يحدث قريبًا على الإطلاق.

أعطيتُ توبي معطفَ جدِّي القديم. وقلت له: «البَسْ هذا.»

فأخذه. وقال: «لماذا؟»

«لأنَّ لديَّ فكرة، وإذا لم ترَها غبيةً جدًّا، فسنذهب حالًا ونُجرِّبها.»

أخبرتُ توبي بما قاله آندي عن خطة بيتي التي كانت تنوي فيها إلحاق ضررٍ بالكوخ، وربما إحراقه ليُصبحَ توبي بلا أيِّ مأوًى.

فرك توبي يده المصابة بيده السليمة. وقال: «لماذا تكرهني إلى هذا الحد؟»

قلت: «لا أظن أنها تكرهك يا توبي، لكنك أنسَب شخصٍ يُمكن إلقاء اللوم عليه. ترمي بيتي حجرًا. فتُلقي اللوم عليك. تضع بيتي سلكًا مشدودًا. فتُلقي اللوم عليك.» أخبرته أنَّ الشرطي وجد السلك الملطَّخ بالدماء في الكوخ.

قال: «هذه التصرُّفات تبدو لي كراهية.»

فقلت: «أعرف. هذا نفس ما شعرتُ به أيضًا، لكني لا أظنها كراهية. أظنها أقرب إلى أن تكون تصرفاتها المعتادة فحسب.»

أخبرتُه بالمكان الذي كنتُ أتوقَّع وجود بيتي فيه، وما ينبغي أن نفعله حيال ذلك.

قلت: «ربما لم أكُن حذِرةً جدًّا إلى هذا الحد حتى الآن، وأنا أقفز في الأنحاء هكذا كضفدعة عمياء. لكني أظن أنَّ مَن سينقذها يجب أن يكون أنت.»

سألني بعض الأسئلة. وتأمَّل الفكرة في صمت. ثم سألني مزيدًا من الأسئلة.

قال: «ليست فكرة غبية. لكنَّ العثور عليها لن يحلَّ أي شيء. كل ما سيحدث أنها ستقول مزيدًا من الأكاذيب.»

قلت: «أنت مُحق. ربما سيلومونك بناءً على ادِّعاءاتها. ربما سيقبضون عليك. أو ربما يجب عليك أن تكتفيَ بمواصلة السير قُدُمًا إلى أن تخرجَ من هنا، وتبدأ حياتك في مكانٍ آخَر. لكن حتى إن لم يُبرِّئ إنقاذُها ذمتَك، فسيظل فِعلًا طيبًا يا توبي.»

أومأ بالإيجاب.

كان شكلُ توبي وهو يرتدي معطف الكاروهات الصوفي الخاص بجدي؛ مختلفًا تمامًا عن شكله المعتاد. كان معطفه الأسود المصنوع من القماش المشمع مُلقًى فوق حزمةٍ من التبن كخفاشٍ ضخم. وبَدَت قبعته، التي كانَت مليئةً بالشعر الذي قصصته، غير مناسبةٍ لأي شيءٍ سوى أن تُحرَق. بدون معطفه وقبعته، كان توبي سيبدو شخصًا جديدًا تمامًا في تلك الليلة.

لكنه بعدئذٍ مَدَّ يدَه إلى بنادِقِه.

فقلت له: «ماذا تفعل؟ لا يُمكن أن تذهب حاملًا تلك على ظهرك. هذا سيفسد كل شيء. حتى إذا حملت بندقيةً واحدة، فسيبدو الأمر غريبًا جدًّا، وإذا حملت الثلاثة، فسيعرف الجميع أنك توبي.»

قبض يدَيه بإحكامٍ شديدٍ جدًّا، لدرجة أنَّ ندوبه صارت بيضاء كالحليب.

سألته: «هل أنت خائفٌ من الدببة؟» كان يُمكنني أن أتفهَّم هذا على الأقل.

فقال: «لا.»

«إذَن، فلماذا تحمل هذه البنادقَ معك إلى كل مكان؟ ألا تصبح حملًا ثقيلًا إلى حدٍّ رهيب؟»

أرخى يدَيه وفركهما معًا كأنه يُدفئهما. وقال: «بلى.»

«إذَن، فلماذا تحملها؟»

انتظرتُ إجابته.

قال: «هكذا فحسب.»

فقلت له: «أنت الآن تتحدَّث مثل جيمس.»

بدا أنه لم يمانع تشبيهه بجيمس. ولم يدفعه هذا التشبيه إلى تقديم تفسير أفضل.

كنت متيقنةً من وجود تفسيرٍ أفضل يكمن في قصص توبي المروعة، وهو قابعٌ في صناديقها التي حفظتُها فيها. وكنت متيقنةً من أنني سأرهف السمع وأدرك ذلك التفسير بوضوحٍ أكبر يومًا ما.

أمَّا الآن، فقد نزلتُ السلَّم.

وعندما تبعني توبي، دون أن يتوقَّف حتى عند أعلاه، لم يكُن حاملًا بنادقه على ظهره.

الفصل التاسع عشر

كان الرجال يغادرون المنزل للتو تزامنًا مع عودتي بالضبط.

قال لي والدي: «أين كنتِ يا أنابل؟ أمكِ تحتاج إليكِ في الداخل.»

«ذهبتُ لأُدخل الحيوانات حجيراتها.»

شغَّل جدي محرِّك شاحنتنا، بينما تكدَّس الرجال الآخَرون في المقطورة المُسطَّحة، ومعهم مجموعةٌ من الكلاب الهجينة المجهولة السلالة.

قال والدي وهو يستدير لينصرف: «حسنًا، جيد. الآن ادخلي وساعدي أمك.»

فقلت وأنا أتبعه عبر الزقاق: «انتظر. يا أبي، انتظر دقيقة.»

فقال وهو يفتح باب مقصورة الشاحنة: «يجب أن نذهبَ الآن يا أنابل. الضوء على وشك الزوال، والكلاب البوليسية في الخارج عند الكنيسة متأهبة للذهاب.»

«أبي، أظن أنني أعرف مكان بيتي.»

فتوقَّف تمامًا فجأةً. أغلق باب الشاحنة.

وقال ناظرًا إليَّ بارتيابٍ لم أستطِع أن ألومَه عليه: «تعرفين مكانها؟ هكذا فجأةً بهذه السهولة؟»

قلت: «كنتُ أملأ دلاء الحصانَين عند الصهريج، وتذكَّرتُ شيئًا ما.» بدا الكذب هنا تافهًا جدًّا مقارنة بأي شيء آخَر. وأضفت: «قال آندي للضابط إن بيتي كانَت تنوي النزول إلى كوخ توبي، وإحداثَ بعض الضرر هناك. لذا خمَّنتُ أنها ربما نزلَت إلى هناك وحدها عندما لم تجِد آندي عند «حجر السلحفاة».»

هزَّ والدي رأسَه بنفاد صبر.

وقال: «أنابل، لقد نزل العريف أولسكا إلى هناك بحثًا عن توبي. وبيتي لم تكُن هناك. ونزل الضابط بنفسِه إلى هناك وتفقَّد المكان. لم تكُن موجودةً هناك. إنها ليست هناك يا أنابل.»

«لكنهم كانوا يبحثون عن توبي. لم يكونوا يبحثون عن بيتي في الحقيقة؛ لأنَّ ذلك كان قبل أن يعرفوا أنها ربما تكون قد ذهبت إلى هناك. لتضايقه.»

فتحَ والدي باب الشاحنة مجددًا. وقال: «لا أفهم ما الذي تقصدينه يا أنابل. هذا الكوخ حجرة واحدة فقط. لا قبو فيه. ولا علية. ولا خزانة. ولم تكُن توجد أي إشارةٍ على أنها موجودة هناك.»

«عدا ذلك السلك.»

«أنابل ...»

«إنها لم ترَ أي شيء من برج الجرس يا أبي. توبي لم يقترف أي جُرم.»

صعدَ والدي إلى داخل الشاحنة. وقال: «عليَّ أن أذهب يا أنابل.»

فقلت: «أبي، إنها في البئر.»

هزَّ رأسه. وقال: «لا توجد بئرٌ عند كوخ توبي.» وبدأ يغلق باب الشاحنة.

فقلت وأنا أمسك ذراعه: «بل توجد بئر. توجد بئر في الخلف وسط الأشجار عند بيت كوب القديم.»

نادَتْني أمي من مدخل البيت: «يا أنابل.»

لكني واصلتُ التحدُّث إلى أبي: «إنها محض حفرة في الأرض. قد يمشي المرء بجوارها مباشرةً دون أن يلحظها.»

خيَّم سكونٌ تامٌّ على أبي. وقال: «أنا متيقِّن من أنَّ أحدهم قد فتَّش كلَّ شبر هناك.»

ذكَّرتُه قائلة: «قالت بيتي إنها كانت خائفةً من توبي. لم يخطر ببال أحدٍ أنها قد تكون موجودةً في أي مكانٍ بالقرب من الكوخ. آندي هو الوحيد الذي كان يعرف أنها كانت تعتزم النزول إلى هناك في ذلك اليوم.»

لم أستطع إخبارَه بالأصوات الغريبة التي كنت قد سمعتُها سَلَفًا في الظلام. تلك التي كانت تُشبه صوت حيوانٍ مذعور.

نادَتْني أمي مجددًا: «يا أنابل!»

رددتُ عليها قائلةً: «أنا ذاهبة مع أبي.»

قال لي: «ادخلي البيت. ونحن سنتفقَّد البئر.»

فتوسلتُ إليه قائلة: «أرجوك أن تدعني آتي معكم. لن أعترض عملكم. أعدُك.»

ظلَّ يتأملني لحظة، ثم لوَّح لأمي بأنه يوافق على ذهابي.

صعدتُ إلى داخل الشاحنة، وجلست بينه وبين جدي الذي، حمدًا للرب، كان سائقًا بطيئًا وحذرًا.

بحلول الوقت الذي وصلنا فيه إلى الكنيسة، من المفترض أنَّ توبي كان يقترب آنذاك من مُنخفَض «كوب هولو».

وبحلول الوقت الذي طلب فيه أبي من سائقي الكلاب ألَّا يُطلقوا سراحها إلى أن يحين الوقت المناسب، من المفترض أنَّ توبي كان متجهًا حينها إلى أسفل المنحدر نحو الكوخ الذي يسكنه.

وبحلول الوقت الذي طلبَ فيه أبي من العريف أن يتبعنا إلى مُنخفَض «كوب هولو»، من المفترض أن توبي آنذاك كان منتظرًا إيانا في الأحراج حيث خيَّم الليل علينا بسرعة.

وبحلول الوقت الذي وجدنا فيه البئر، من المفترض أنَّ توبي كان مستعدًّا حينها للانضمام إلينا، باعتباره رجلًا غريبًا آخَر جاء للمساعدة، فيمتزج وسطنا كالحرباء دون أن يلاحظه أحد.

بينما كنا نسير بالسيارة نحو أسفل الزقاق إلى مُنخفَض «كوب هولو»، تذكَّرتُ مجددًا ذلك الصوت الذي سمعته سلفًا. الصوت الذي كنت أظنه صوت قنفذ.

تخيَّلتُ بيتي عالقةً في عمق هذه البئر الباردة منذ يومَين، والمطر ينهال فوقها، ورأيتُ أنها ربما لا تحتاج إلى مزيد من العقاب على كلِّ ما فعلته. لكني كنت أعرف أنَّ روث ربما تختلف معي في هذا الرأي.

أوقفَ جدي الشاحنة عند أسفل زقاق كوب، ورَكَنها بجوار الكوخ الذي يسكنه توبي. وتوقَّفَت وراءه شاحنة أخرى يقودها العريف، ومُحمَّلة بخمسة رجالٍ آخَرين.

تَرجَّلنا كلنا من الشاحنتَين بسرعة، وتجمَّعنا في الأرض الخالية من الأشجار.

صاح أبي قائلًا: «توجد بئر وسط هذه الأشجار، عودوا إلى الخلف قليلًا بمحاذاة الزقاق، ثم انعطفوا إلى اليسار. انتبهوا إلى خطواتكم أثناء مشيكم.»

أمسكَ بكُمي. وقال لي: «فلتبقي ملاصقة لي يا أنابل، مفهوم؟»

أطعتُه. «أردتُ» فعلًا أن أكون معه. فأنا لم أكُن أعرف ما سأفعله إذا لم تكُن بيتي موجودةً في تلك البئر، وتبيَّن أن تخميني كان خاطئًا. ثم إنَّ توبي كان موجودًا في مكانٍ

قريب، يترقَّب ما سيحدث. كان عليَّ أن أكونَ قريبةً منه. كان عليَّ أن أكون أنا مَن يساعده إنْ لزم الأمر. وكنت أريدُ أن يكون أبي معي.

انتشر الرجال وانطلقوا وسط الأشجار. كان المكان مظلمًا جدًّا لدرجة أنَّ الرجال بدءوا يُضيئون مصابيحهم واحدًا تلو الآخَر، ويحركونها يمينًا ويسارًا وإلى أعلى وأسفل لترشدنا نحو الأمام.

كان العثور على الأساسات المحترقة لمنزل كوب القديم سهلًا، لكنَّ اكتشاف مكان البئر نفسها استغرق وقتًا أطول؛ لأنها لم تكُن سوى بقعة داكنة على الأرض، فيما كانت الحجارة المسطحة المحيطة بها مدفونةً منذ أمدٍ بعيد، تحت بعض الطحالب والعفن.

ومن المنطقي أن تكون فتحة البئر أيضًا قد صارت مغطَّاةً بأوراق الشجر. وكنت أعرف، دون أن أنظر في الداخل، أنها كانت كذلك بالفعل. وأنَّ بيتي قد داستها، دون قصد، فسقطت وأزال جسدها تلك الأوراق، وبذلك صارت الفتحة مكشوفة لنا لنجدها.

تراجعتُ بينما اقتربَ الرجال من فتحة البئر. يا للفظاعة. يا للفظاعة. ما أفظع أن تكون بيتي موجودة هناك. ما أفظع أن يكون أي شخصٍ موجودًا هناك.

لم يخطر ذلك ببالي من قبل. إطلاقًا. وإلَّا كنتُ صرختُ بما أعرف وركضتُ لأعثر عليها.

تقدَّم العريف إلى حافة فتحة البئر، وسلَّط ضوءَ مصباحه نحو أسفلها مباشرة.

قال: «لا أستطيع رؤية أي شيء. جون!»

فانضم إليه والدي ورجلان آخَران، ووقفوا دائرةً حول البئر، وسلَّطوا أضواء مصابيحهم معًا إلى أسفل الحفرة.

قال العريف: «يا رباه، إنها موجودة في الأسفل. بيتي!»

سادت حالةٌ من الهرج والمرج، بينما كان الرجال يتدافعون إلى الشاحنتَين لإحضار مشكاواتٍ وحبالٍ ومجارف.

وقفتُ بعيدًا عنهم، مستندةً بظهري إلى إحدى الأشجار.

شاهدتُ توبي وهو يخرج من وسط الظلام، وينخرط وسط هذه الحالة الفوضوية دون أن يتفوَّه بأيِّ كلمة. لم يلاحظ أحد أيَّ شيء، لكنهم حظوا بمساعدة شخصٍ إضافيٍّ في سَحْب بيتي لإخراجها من تلك البئر.

كان يرتدي قفازَ جدي القديم.

كان يبدو مزارعًا. مثل أبي. ومثل ما سيُصبح عليه هنري أو جيمس يومًا ما.

في النهاية، استغرقَ إخراجُ بيتي بعضَ الوقت.

كانت بئرًا محفورة، أي إنها كانت واسعةً في الماضي بما يكفي لتحويَ رجلًا بمجرفته، لكنها ضاقَت بعدئذٍ بالحجر الذي وضعه ذاك الرجل لتبطينها. كانت بيتي قابعة على عمق حوالي عشرين قدمًا فقط، وكان الجزء الأمامي من عباءتها عالقًا في أنبوب قديم صدئ. وهكذا كانت تبدو كأنها طفلة رضيعة محمولة في لفافة متدلية من منقار أحد طيور اللَّقْلَق، وكان واضحًا أنَّ هذا الأنبوب أنقذها من السقوط إلى قاع البئر، لكنَّ ساقَيها كانتا متدليتَين إلى الأسفل ومُختفيتَين وسط ظلمات البئر، وتساءلنا جميعًا عمَّا إذا كانتا معلقتَين في مياه نوفمبر الباردة.

كان الرجال قَلِقين من أن يُزيحوها من موضعها بالخطأ، فيدفعوها إلى عمق أكبر، أو يُلحقوا بها أذًى أسوأ، أو حتى يغرقوها. لكنهم كانوا يعلمون أنهم يجب أن يُخرجوها من هناك بأسرع ما يُمكن.

نادوها مرارًا وتكرارًا، لكنها لم تُبدِ أيَّ استجابةٍ حين أنزلوا إليها حبلًا، وبذلك كان من المستحيل أن تستطيعَ رَبْطه حول نفسها بأيِّ حالٍ من الأحوال.

كنت واقفةً على أحد جانبَي البئر مع أبي، وكان توبي والآخَرون واقفين على الجانب الآخَر يشاهدون. التقت عيناي بعينَيه عبر تلك الحفرة البشعة. ورأيت أنه، في ضوء المشكاوات، كان يبدو أصغر سنًّا لكن أكثر جدية مما كان يبدو في أي وقتٍ مضى، حين كان ملتحيًا ومرتديًا المعطف الأسود والقبعة.

قال أبي: «يجب أن ينزل شخصٌ ما إلى هناك ويُخرجها.»

فقال العريف: «هذا صحيح، ولكن يجب أن نستخدم حاملًا ثلاثي القوائم ورافعة. فإن حاولنا أن نفعل ذلك بطريقة خاطئة، فقد يسقط معها الرجل الذي سنُنزله في البئر في نهاية المطاف.»

قال أبي: «هل تريد الانتظار ريثما يذهب شخصٌ ويُحضر رافعة؟»

قال العريف: «لا. لا أريد هذا بالطبع. وأنا متيقِّن من أنَّ بيتي لا تريد البقاء في الأسفل هناك ولو دقيقة أخرى.»

تذكرتُ الساعات التي قضيتُها وأنا أقطفُ قرون الصقلاب، وأقصُّ شعر توبي. تذكرتُ حديثي مع الحصانَين وأنا أعطيهما الشوفان. تذكرتُ سعادتي بأنَّ جدي كان يقود الشاحنة ببطء وحذر. تذكرتُ ذلك وشعرتُ بالغثيان.

بالقرب من البئر، كانت توجد شجرة بلوط يتفرَّع منها غصن متين يمتد فوق البئر. تراجعنا كلنا بينما ربط أبي عُقدة سميكة عند أحد طرفَي الحبل، وألقاه من فوق الغصن إلى العريف، الذي شدَّه إلى أسفل ولفَّه بسرعةٍ ليصنع منه حمَّالةً يُمكن ارتداؤها حول الجسد.

قال أبي وهو يفكُّ أزرار معطفه: «سأنزل أنا.»

لكنَّ توبي الذي كان يقف بجوار العريف، أخذ الحبل من يدَيه. وقال: «دَعني أنزل أنا. أنا نحيف، لكني قوي.» ظلَّ مرتديًا قفازه، لكنه خلع معطف جدي تاركًا إياه يسقط على الأرض.

قال له العريف: «لا أعرفُك»، لكنه بدا فضوليًّا فحسب.

فقال توبي: «لستُ من هنا. لكني جئتُ لأقدِّم المساعدة، وسأكون ممتنًّا إذا تركتني أساعدكم.»

بدأتُ أتنفَّس مجددًا، مع أنني أدركت أنَّ يديَّ كانتا مقبوضتَين، في حين كان أبي والعريف يلفَّان الحمَّالة حول توبي ويضبطانها لتلائم جسده، تاركَين طَرفًا طويلًا متدلِّيًا منها ليستطيع أن يربط بيتي به.

سأله العريف: «أأنت متيقِّن من ذلك؟ إنها تُشكِّل حِملًا على الحائط عند الموضع الذي عَلِقَت عنده. لسنا واثقين من تماسُك الحائط، فقد ينهار ويأخذك معه.»

كان الرجال الآخَرون مُلتفين حول البئر. واستطعت أن أرى من خلالهم. رأيتُ توبي يضبط الحمَّالة. رأيته ينظر إلى العريف، ويومئ بالإيجاب.

قال العريف: «خُذ مصباحي. فلو سلَّطنا الأضواء من هنا، لَحجبها جسدُك وأنت تنزل ولن ترى شيئًا، لكني لا أعرف كيف ستربط الفتاة وتظل ممسكًا بالمصباح دون أن تكون لك يدٌ أخرى أو يدان.»

قال توبي: «سأتدبَّر الأمر.» ثم مدَّ يده في جيبه وأعطى أبي مطواته. وقال له: «هلا تحمل هذه عني؟ فأنا سأنزلُ ورأسي للأسفل، ولذا ...»

«ألديك محفظة؟ مفاتيح؟»

سكتَ توبي لحظة. ثم قال: «في معطفي.»

وبينما جثا توبي على ركبتَيه عند حافة البئر، قال له أبي: «لم أعرف اسمك.»

التفتَ توبي برأسه إلى الوراء. وقال: «جوردان.» وبدا أنَّه كان يقول الصدق.

كان شخصٌ ما قد أحضر آل جلينجاري إلى المكان منذ قليل، وقد وصلوا في حالة من الذعر والهلع، وبدا مظهر أم بيتي مفاجئًا للجميع بطراز ثيابها الرائج في المُدُن، ولفات

شعرها الحلزونية المُثبَّتة بدبابيس. بَكَت قليلًا بينما اصطفَّ الرجال كلُّهم بطول الحبل، وأنزلوا توبي برأسه أولًا إلى داخل البئر رويدًا رويدًا. انحنى فرعُ شجرة البلوط قليلًا، لكنه ظلَّ صامدًا، وكان الحبل سميكًا بما يكفي ليتحمَّل بعض الاهتراء من الاحتكاك القوي باللحاء بفعلِ وزن توبي.

أنزلوه بإفلات الحبل من أياديهم تدريجيًّا، حتى صاح توبي بصوتٍ مكتوم من غياهب البئر قائلًا: «مهلًا!»، فردَّدها العريف، رافعًا يده في الهواء. وصاح قائلًا: «لقد وصل إليها. توقفوا وأمسكوه بثبات.»

انتظرنا بينما كان الحبل يهتز بشدة. تخيلتُ توبي يدس المصباح تحت ذقنه وهو يلف الحبل حول بيتي.

سمعتُه يصيح بشيءٍ آخَر.

قال العريف: «إنه لا يستطيع إيصال الحبل إلى تحت ذراعيها. فهي ملفوفة بتلك العباءة بإحكام. ولكن إذا حاول زحزحة العباءة، فقد تنفصل عن ذلك الأنبوب وتسقط.»

كان أبي موجِّهًا مصباحه إلى أسفل البئر، وحاملًا المشكاة عاليًا في يده الثانية. قال: «سيضطر إلى إمساكها وإخراجها بنفسه.»

صاحَ العريف نحو أسفل البئر قائلًا: «هل تستطيع وضع ذراعَيك حولها؟»

خيَّم سكوتٌ طويل. واشتد اهتزاز الحبل. وانحنى الرجال الذين يُمسكونه إلى الوراء ليقاوموا انسحابه نحو الأسفل.

وحينها عرفنا مدى جسامة إصابة بيتي.

فقد صرخت صرخة مدوية من أعماق البئر.

لم تكُن صرختُها كأيِّ شيء سمعتُه من قبل.

ظلَّت جدة بيتي تدور حول نفسها، مُنكِّسة رأسها، وواضعة قبضتَي يدَيها على فمها.

دعوتُ الرب، ولم أصدِّق أنني انتظرتُ، ولو ثانيةً واحدةً، قبل أن أخبرَ والدي بما استخلصتُه من تلك الهمسة الخافتة التي راودَتْني: «إنَّ الصوت الذي سمعتِه لم يكُن صوت قُنفذ.»

وفهمتُ حينها، على نحو غامض وطفيف، السببَ في حمل توبي لتلك البنادق معه أينما ذهب.

ازداد شدُّ الحبل وأحدث أزيزًا مستمرًّا فوق البئر. فصاحَ العريف مجددًا: «أمسكوا بثبات!» ثم جثا على ركبتَيه وانحنى بجسده إلى داخل البئر. كان توبي يصيح قائلًا شيئًا ما، لكني لم أسمع كلمة مما قاله.

قال العريف وهو يرفع ناظرَيه نحو أبي: «الفتاة عالقة. عندما عَلقت عباءتها في ذلك الأنبوب، لا بد أنَّها اصطدمت بقوة بالجانب الآخَر من البئر. يوجد أنبوب ثانٍ بارز من هناك بالضبط خلفها، وهي عالقة فيه.»

انحنى أبي بجسده مقتربًا من الفتحة. وقال: «ماذا تقصد بأنها عالقة فيه؟»

فقال العريف: «لقد اخترقَ جسدها. إنه مغروزٌ في كتفها.»

أغمضتُ عينيَّ. وشعرتُ آنذاك، في تلك اللحظة، بأنني لن أهتم أبدًا بأي هراء تافه مرَّة أخرى.

وصرخت بيتي. وظلَّت تصرخ.

قال العريف: «إنه ينزع جسدها من الأنبوب»، وصاحَ قائلًا للرجال المُمسكين بالحبل: «استعدوا! ها هو سيحمل وزنها.»

لكنهم مع ذلك جفلوا فجأةً معًا، حين حاول الحبل أن يحمل العبء الجديد، وانحنى الفرع من فوق البئر، وصاحَ العريف قائلًا: «الآن ارفعوا، ولكن ببطء!» ثم وقفَ مجددًا وظلَّ يشير لهم بذراعه ليرفعوا، ويرفعوا، ويرفعوا، حتى خرجت قدما توبي ثم ساقاه ثم باقي جسده كله من فتحة البئر إلى ضوء المشكاوات، وكانت بِيتي ملتصقةً بصدره ورقبته، كأنها صرَّةٌ من خرقٍ مبللةٍ وشَعر مُلبَّد وشفتَين زرقاوَين، فيما كانت الدماءُ تنساب من عباءتها، وكانت ساقاها منقوعتَين وواهنتَين، ووجهُها شديد البياض لدرجة أنني لم أفهم كيف أمكن أن تكون حية.

وضعوا بيتي برفق على عُشٍّ من المعاطف في المقطورة المسطحة الموصولة بشاحنة العريف. كانت واعية، لكن بدرجة طفيفة للغاية. وعندما بدأت أسنانها تصطك، ذهلتُ لأنني وجدتُ نفسي مجددًا أتخيَّل حيوانًا بريًّا. فأسنان جرذان الأرض كانت تصطكُّ على هذا النحو عندما كانت الكلاب تحاصرها.

قرصتُ نفسي بقوة عند الجلد اللين تحت ذقني مباشرة.

وبينما كان جَدُّ بيتي يغطِّيها بمعطفه، لاحظتُ أنها كانت ترتدي عباءتها بالمقلوب؛ أي إنَّ البطانة الداكنة كانت في الخارج، واللون الأصفر كان مدفونًا في الداخل. وتصوَّرتها وهي تتسلل عبر مُنخفَض «كوب هولو»، إلى داخل الكوخ الذي يسكنه توبي، وتدس السلك الملفوف تحت أغطية فراشه.

قرصتُ نفسي مجددًا وأشحتُ بوجهي بعيدًا.

كان من المستحيل معرفة مدى جسامة إصابة بيتي، لكننا كنا نعلم أنها تحتاج إلى أن تُنقل إلى مُستشفى بسرعة. فلحمها كان أخضر ومتورمًا بالفعل عند الموضع الذي اخترق فيه الأنبوب جسدها. وصحيحٌ أنها كانت تستطيع هز أصابعها، لكنها بدَت عاجزةً عن تحريك ساقَيها.

قال والدي: «لقد ظلَّت باردةً وساكنةً فترة طويلة. ربما تحتاج إلى تدفئةٍ فقط.»

صعدت والدة بيتي إلى مقدمة شاحنة العريف، بينما جلسَ جدُّها وجدتها ورجلان ممَّن كانوا يُمسكون الحبل في الخلف لإبقاء بِيتي ثابتة.

وعندما عرضَ رجل آخَر أن يحل محل السيدة جلينجاري، لوَّحت له رافضة مساعدته. وقالت: «شكرًا. لكن لا.»

إذا كان يُمكن لأحدٍ أن يُسرِع ببطء، فهذا بالضبط هو ما فعله العريف، عندما شغل محرك الشاحنة وراحَ يتحرَّك ببيتي بعيدًا.

وبهذا ظلَّ بقيتُنا واقفين في بِركة من ضوء المشكاوات، مُحدِّقين بعضنا إلى بعض، بينما كنا نلتقط أنفاسنا ونحاول أن نهدأ قليلًا.

قال أحدُ الرجال وهو يمدُّ يده إلى يد توبي حتى أمسكها: «أنا جِد هُوبكنز. ما فعلتَه كان رائعًا حقًّا.»

وقال رجلٌ آخَر وهو يمدُّ يده ليصافح توبي ويُعرِّفه بنفسه: «هذا صحيح»، ثم شكره كلاهما على ما فعله، واحد تلو الآخَر.

قال له والدي: «لقد حَمَيتنا كلنا من بضعة كوابيس بشعة يا جوردان، وإنْ كنتُ أخشى أن تطاردك هذه الكوابيس بدلًا منَّا. أنا جون ماكبرايد. وهذه ابنتي أنابل.»

فقال توبي: «تُسعدني معرفتكما أنتما الاثنين.» وكان حريصًا على ألَّا ينظر إلى عينيَّ مباشرة.

ظللنا بضع دقائق نلفُّ الحبل، ونغطِّي البئر بالأغصان حتى صارت مُغطاةً كما ينبغي.

ثم قال أبي: «أظن أننا يُمكن أن نعود إلى البيت.»

رددتُ قائلة وأنا أنظر حولي بحثًا عن توبي: «أجل.» رأيتُه واقفًا بالقرب من الكوخ، معطيًا ظهره لي.

قال أبي للآخَرين: «اسمعوني كلكم. سأوصلكم بالشاحنة إلى شاحناتكم، ويُمكنكم أن تعودوا إلى بيوتكم من هناك.»

فهمستُ وأنا أومئ برأسي نحو توبي: «وماذا عنه؟»

قال أبي: «جوردان؟ الغريب الذي طلب منا إنزاله إلى داخل بئر لينقذ فتاة لم يقابلها من قبل؟ سيأتي إلى البيت معنا.»

الفصل العشرون

ركب توبي في مؤخرة الشاحنة مع الكلاب وأربعة رجال آخرين، بعضهم من تلالنا، والبعض الآخَر من أماكن أبعد. وعند الكنيسة، ترجَّلوا من الشاحنة واتجهوا نحو شاحناتهم الخاصة. صاحَ والدي بكلمات الشكر لهم من النافذة، ولوَّحوا له مُبتسمين وعادوا إلى حياتهم بقصةٍ سيتحاكى بها أطفال أطفالهم حتى قرنٍ من الزمان.

ومن هناك إلى المزرعة، كان توبي راكبًا وحدَه في مؤخرة الشاحنة بعدما أصرَّ على ذلك. وعندما استدرتُ ونظرتُ من خلال نافذة المقصورة، رأيتُه جاثمًا متكوِّمًا مع الكلاب على الجانب الآخَر من زجاج النافذة، ومرَّة أخرى كان مرتديًا معطف جدي القديم وقد أغلقَ أزراره بإحكام، وكان ما يزال مرتديًا قفازه، لكنه كان يشعر بالبرد القارس دون شكٍّ بسبب الرياح السوداء، وبسبب ما رآه داخل تلك البئر وما فعله.

حين وصلنا إلى البيت، تردَّد توبي، لكني وقفتُ أنا وأبي في الزقاق وانتظرنا انضمامه إلينا، بينما انطلقت الكلاب إلى مخزن الحطب. قال والدي: «تفضَّل بالدخول وتناول معنا شيئًا. لا يُمكن أن أعيدَك إلى بيتك جائعًا بعد ما فعلتَه للتو.»

أسرعَ شقيقاي إلى الباب ليرحِّبوا بنا. كانا قد أخذا حمامهما حديثًا، وكانا متوردَين ودافئَين، وشَعرهما مبللًا داكنًا منسدلًا حول وجهَيهما، وأردتُ أن أشدَّهما إلى حضني وأبكي. لكني لم أفعل. لو أنني حاولت فعل ذلك، فمن المؤكَّد أنهما كانا سيصارعانني ويطرحانني أرضًا وينعتانني بأنني فتاة.

لكني كنتُ أحبُّهما حُبًّا لم يكُن يحتاج إلى إثبات.

أخذ والدي معطف توبي، وعلَّقه في الخزانة التي كان موجودًا فيها أصلًا، في صباح ذلك اليوم نفسه للتو.

ثم قال له: «قفازك؟»، لكنَّ توبي دسَّ يدَيه تحت ذراعَيه، وقال بنبرةٍ رقيقةٍ ناظرًا إلى الأرض: «ما زالت يداي باردتَين جدًّا.» وكان هذا منطقيًّا. أضافَ: «سأظلُّ مرتديًا إياه بعضَ الوقت، إنْ لم تمانع.»

فقال له والدي مبتسمًا: «من الصعب أن تأكل وأنت مرتدٍ قفازك، لكني أعرف شعور المرء حين تكون يداه باردتَين.»

كان الجميع قد تجمَّعوا في المطبخ حين سمعوا صوتنا ونحن ندخل. قال والدي لهم جميعًا: «هذا جوردان. جوردان، هذان أبي وأمي، دانيال وماري. وهذه أختي، ليلي.»

تقدَّمت العمة ليلي نحوه ومدَّت يدها إليه، وابتسمت له ابتسامة نادرة منها. قالت بنبرة رقيقة لم أعهدها منها قبل ذلك: «تشرفتُ بمعرفتك.»

تردد توبي لحظة ثم خلع قفازه وصافحها. قال: «سررتُ بمعرفتكِ»، وارتدى قفازه مجددًا.

قال والدي وهو يومئ برأسه نحو الولدَين: «وهذان جيمس وهنري. جوردان، بِمَ ينبغي أن يناديك، السيد ...»

فقال: «جوردان فحسب، دون ألقاب.»

وقال الولدان معًا في آنٍ واحد: «هل عثرتم على بيتي؟ هل ماتت؟»

فقالت العمة ليلي: «صه يا أولاد!»

أضافَ والدي: «وهذه زوجتي سارة.»

وقفَ توبي مع أبي ومعي، في العتبة الواسعة بين المدخل والمطبخ، وانحنى بالفعل، كما لو كان فارسًا.

قال لها: «مرحبًا.»

كانت أمي قد وقفت ساكنة تمامًا بلا حراك حين سمعت صوت توبي. والآن، بعدما أتى بهذا التصرف الغريب، مسحت يدَيها بمئزرها وتقدمت نحوه. قالت له: «اسمك جوردان؟»

فقال: «أجل.»

تفرَّسَت في وجهه، وظننتُ أنها ربما عرفت هُويته الحقيقية.

ثم قالت له وهي تقوده إلى المائدة: «تفضَّل. اجلس.»

سخَّنت أمي بعض الطعام المتبقي من العشاء، وأثناء ذلك حكى والدي ما حدث.

وساعدتُه في ذلك قليلًا.

لم يقُل توبي شيئًا على الإطلاق. حتى عندما شرح والدي كيف أنزلوه في البئر، وقالت العمة ليلي: «كان هذا تصرفًا شجاعًا جدًّا منك يا جوردان» بنفس النبرة الرقيقة التي تكاد تكون موسيقية ... وأطلق الولدان وابلًا من الأسئلة عن شكل البئر من الداخل، وعمَّا إن كانت تحوي ثعابين وحريشات، وعمَّا إذا كانت البئر تمتد حتى الصين.

سكت الولدان حين وصل والدي إلى الجزء المتعلق ببيتي.

لم يتفوَّه أحدٌ بكلمة بينما كان والدي يصف الموقف، ولكن حين انتهى، استأذنت جدتي بهدوء وانصرفت لتنام.

قال جدي: «سأقول أنا أيضًا طابت ليلتكم.» ثم التفتَ إلى توبي. وقال: «آملُ أن تأخذ معك سلة من التفاح عند رحيلك.»

فقال توبي: «شكرًا لك. سأفعل.»

سكبت أمي مزيدًا من القهوة له ولأبي.

فسألتُها: «هل لي أن أحصل على بعضٍ منها أنا أيضًا؟» لكنها تجاهلتني.

وقالت لأبي: «هل ستُصبح بيتي بخير؟»

«لا أعرف. لكنَّ العريف نقلها إلى المستشفى؛ ومن ثمَّ فأنا متيقن من أننا سنعرف منه بعض المستجدات قريبًا.»

سألته العمة ليلي: «وماذا عن توبي ذلك. هل وجدوه؟»

رمقتُ توبي بنظرةٍ سريعة ثم أبعدت عينيَّ عنه. وعندئذٍ وجدتُ أمي ناظرةً إليَّ في اللحظة نفسها.

قال والدي: «لا، على حد علمي. لكن يبدو واضحًا أنَّ بيتي نزلت إلى مسكن توبي لإلحاق بعض الأذى به، وسقطت في بئر كوب القديمة وحدها هكذا دون تدخُّل من أحد.»

قالت العمة ليلي: «فأين هو إذَن؟»

فقالت أمي وهي تضع الأطباق وأدوات الطعام لأبي وتوبي ولي: «يكفي الكلام عن ذلك. دعونا نفرح فقط بالعثور على بيتي.» وضعت طبقًا كبيرًا من اللحم البقري والبطاطس والجزر على المائدة. وقالت لتوبي: «هلا تتفضَّل بتناول الطعام.»

وعندما تردَّد كذي قبل، أخذَت طبقه وغَرَفَت له. قالت له: «الآن فلتأكله كله وهو ساخن.»

حبستُ أنفاسي، لكن توبي خلع القفاز من يده اليُمنى ببساطة وبدأ يأكل. رجوتُ ألَّا يكون أحد آخَر غيري قد لاحظ حين أعاد توبي يده اليسرى، وهي ما زالت مكسوَّةً بالقفاز، إلى حجره، وقطع اللحم بيدٍ واحدة بحافة شوكته.

قامت العمة ليلي عن المائدة، وقالت: «حسنًا، من بعد إذنكم جميعًا، لديَّ عمل في الصباح الباكر.» ثم التفتت إلى توبي وابتسمت مجددًا. قالت له: «سُررتُ جدًّا بمعرفتك يا جوردان. آمل أن ألقاك مجددًا فيما بعد.»

نهضَ توبي جزئيًّا من كرسيه. وقال: «وأنا أيضًا.»

قالت وقد أدرَكَت شيئًا ما بعدما فاتها: «حسنًا. لم تخبرنا يا جون، كيف اكتشفتم أنَّ بيتي كانت موجودةً في البئر. هل الكلاب البوليسية هي التي عثرت عليها؟»

أشار والدي بشوكةٍ نحوي، وقال: «تلك الكلبة البوليسية. تلك المحققة البوليسية التي تعيش بيننا هي التي اكتشفت ذلك.»

كانت العمة ليلي هي الوحيدة ممَّن أعرفهم التي كانت تستطيع أن ترفع حاجبًا واحدًا فقط، مما كان يجعلها تبدو مرتابة وحكيمة في آنٍ واحد. سألتني رافعةً حاجبها: «وكيف تمكنتِ من ذلك يا أنابل؟»

هززتُ كتفي. وقلت: «كلُّ ما في الأمر أنني قضيتُ النهار أفكِّر فيما قاله آندي، هذا كلُّ ما في الأمر.» نظرتُ إليها مباشرة في عينَيها. وأضفتُ: «وكنت أعرف أنَّ توبي لم يقترف أيَّ جُرم، مما سهَّل عليَّ أن أكتشف ما حدث بالفعل.»

زمَّت العمة ليلي شفتَيها ورفعت ذقنها. قالت: «لا أفهم سر ثقتك في ذلك الرجل يا أنابل. لقد آذى فتاتَين صغيرتَين — روث وبيتي — وربما أخريات.»

قال والدي: «حانَ وقتُ النوم يا أولاد»، فأثار ذلك احتجاجاتهما المعتادة، وردَّة الفعل المعتادة كذلك من العمة ليلي على تلك الاحتجاجات.

نَبَحَت بعلو صوتها وهي تتجه نحوهما وتشير لهما بالانصراف: «حالًا.» ففَرَّا راكضَين وهي تقترب منهما. لأنهما كان يعرفان، كبقيتنا، أنَّ العمة ليلي لم تكُن تتورع عن العض.

صرنا آنذاك أربعة فقط. سكبت أمي لنفسها فنجانًا من القهوة، وجلست إلى المائدة تراقبنا ونحن نأكل.

سألَت توبي: «من أين أنت يا جوردان؟»

رمقني بنظرة سريعة، ثم التفتَ إليها. وقال: «من ميريلاند، أصلًا. لكني أعيش في هوبويل الآن.»

«وسمعت أن بيتي كانت مفقودة؟»

أومأ توبي بالإيجاب ببطء. وقال: «مثل هذه الأخبار تنتقل بسرعة.»

فسألته أمي: «وماذا تعمل؟» سمعتُ في صوتها نبرةً من التشكيك المتزايد، لكني قلتُ لنفسي إنني ربما كنت أتوهم ذلك فحسب. فهُوية توبي الحقيقية كانت واضحةً لي جدًّا، لدرجة أنني لم أفهم كيف أنَّ الآخَرين لم يلاحظوها.

قال: «أنا نجَّار.»

بدت هذه إجابة صادقة، مثلها مثل «جوردان» و«ميريلاند».

قالت أمي، بينما تستند بمرفقَيها على المائدة، وتضع يدَيها حول فنجان قهوتها: «لا بد أن زوجتك قلِقة عليك الآن.» كانت تنظر إليه بثبات من خلال بعض البخار المتصاعد من القهوة.

كنت متيقنة من أنها لم تستطِع رؤية يده اليسرى؛ ولذا يستحيل أن تكون قد رأت خاتم زواج.

قال له أبي: «يُمكنك أن تتصل بها إن أردت.»

قال توبي بنبرة خافتة: «لست متزوجًا.» بدا منزعجًا جدًّا حين قالها؛ ومن ثمَّ توقفت أمي عن استجوابه، لكنها ظلَّت مُحدقة إليه بضع ثوانٍ.

وقالت: «اترك مكانًا في بطنك للتحلية. فأنا أعددتُ فطيرة جوز.»

رنَّ جرس الهاتف بعد ذلك بلحظة، لكننا لم نكُن متفاجئين بقدرِ ما كُنا سنتفاجأ لو كنا في ظروف عادية.

قال أبي: «إنه العريف. لقد وعدني بالاتصال حين يطرأ أيُّ جديد.»

ذهبَ إلى غرفة الجلوس، واستطعنا أن نسمعه يتكلم، لكنا لم نسمع ما كان يقوله بالضبط.

تنهدت أمي. وقالت: «أرجو أن تكون بخير. فلا أحدَ يستحق ما حدث لها.»

فقال توبي: «هذا لو لم تكُن قد فعلَت ما فعلَته.»

فرفعتُ عينيَّ نحوه بحِدَّة.

وأمالت أمي رأسها نحوه وتفرَّست فيه بفضول. ثم سألته: «وما الذي فعلَته بالضبط؟»

كان القصدُ من سؤالها واضحًا مع أنها لم تنطقه حرفيًّا: «كيف لرجل غريب من هوبويل أن يعرف «ما فعلته بيتي أو ما لم تفعله»؟»

لكنَّ أبي أنقذ توبي من الإجابة. قال وهو يجلس متثاقلًا إلى المائدة مرة أخرى، ويمرِّر يده خلال شَعره: «حسنًا، لقد بدءوا للتو يكتشفون الأضرار التي يُحتمَل أنها لحقت بجسد

بيتي، لكنهم يعرفون القليل منها بالفعل. كتفها ممزقة تمامًا من ذلك الأنبوب، وسيبدءون في علاجها من التيتانوس وعدوى أخرى جسيمة جدًّا. هم الآن يدفئونها. وينقلون لها دمًا.»

تنهَّدَت أمي تنهيدة طويلة. وقالت: «لا عظام مكسورة؟»

هزَّ أبي رأسه بالنفي. وقال: «لا، وهذا مذهل، لكنَّ قدمها اليمنى مصابة ببعض الغرغرينا. كانت ساقها محشورة بشدة تحت تلك العباءة. وعندما حاولت تحريكها، بدأت العباءة تتمزق، فتوقَّفت. لكنهم يعتقدون أنها ستُصبح بخير. ربما قد تفقد إصبعًا من قدمها. لا يُمكن معرفة ذلك الآن، فما زال الوقت مبكرًا.»

شعرتُ بالغثيان. قلتُ: «إذَن، فهل قالت شيئًا عمَّا حدث لها؟»

أشاحَ بوجهه بعيدًا. وقال: «أجل. قليلًا. تحدَّثت عن توبي. قالت إنه دفعها لتسقط في تلك البئر.»

«لكن ...»

«مهلًا يا أنابل. أنا لا أقول إلا ما قالته. لا داعي إلى أن تجادليني في ذلك.»

«لكنها تكذب!»

«دَعي والدكِ يتكلم يا أنابل.»

«تقول إنَّ توبي ضبطها وهي تتلصص خفية في مُنخفَض «كوب هولو»، في صباح أمس قبل أن يشتدَّ المطر. فأمسكها. ووضعها في الكوخ.»

كان توبي قد نكَّس رأسه، وكان واضعًا كلتا يدَيه في حجره. حدَّقتُ إليه، وأنا أخشى ما قد يدور في ذهنه. رأيت مواضع في شعره لم أتقِن قصها. وجدتُ خصلة صغيرة بارزة فوق قمة رأسه. ولاحظت أنَّ شَعره كان متفاوت الطول.

«قالت إنه كان غاضبًا لأنها وشت به. بخصوص رمي الحجرِ الذي أصاب روث. وبخصوص السلك المشدود. وإنه، بعدما حزم أغراضه، جرَّها إلى الأحراج، ودفعها إلى أسفل البئر دون أن يتفوَّه بكلمةٍ واحدة. هكذا فقط.»

قالت أمي: «ورحل هاربًا؟»

فقال أبي: «ورحل هاربًا.»

كان هذا هو كل ما كنت أخشاه. فكيف كان يُمكن لتوبي أن يُثبت أنه لم يفعل شيئًا ما؟

لا بد أنَّ السيدة جريبل ستكون عاكفةً بحلول هذا الوقت على نَشْر الخبر، عبر كل خطوط الهاتف المثبتة على لوحة مفاتيحها كأذرع الأخطبوط، والتي تمتد إلى منازل كثيرة في كل أنحاء هذه التلال.

وهكذا ففي غضون ساعةٍ واحدة، سيكون توبي وحشًا قاتلًا وتكون بيتي فتاةً بريئةً مسكينة.

في أثناء الصمت الذي أعقبَ ذلك، كنت أشاهد أمي وهي تمرِّر إصبعها بطول خطوط الألياف الخشبية في سطح المائدة، كما لو كانت تقرأ خريطة.

قال والدي: «حسنًا، بالتأكيد أودُّ أن أشكرك على مساعدتك الليلة يا جوردان. وقتما تكون جاهزًا، يمكنني إعادتك إلى حيث تركتَ سيارتك. لدينا بعض التفاح في ...»

قاطعته أمي قائلة: «جون.»

فسكت فجأة. وسألها: «ماذا؟»

نقلت أمي نظرها من جوردان إلى والدي.

وقالت: «ليس لديه سيارة.»

ابتسمَت لوالدي ابتسامة طفيفة، لكنها كانت حزينة، ربما لأنَّ الارتياح الذي كنا قد شعرنا به كلنا عند إنقاذ بيتي سرعان ما تبدَّل، وحلَّ محلَّه مزيدٌ من الهم.

«كيف تعرفين ذلك؟»

التفتَتْ إلى توبي. وقالت له: «دعني أرَ يدَيك.»

أطلقتُ النَّفَس الذي كنت حابسةً إياه طوال اليومَين الماضيين.

قال لها والدي: «سارة؟» وبدا مرتبكًا جدًّا، لدرجة أنني لم أكُن أعرف ما إذا كان يُفترض أن أضحك أم أبكي.

اعتدلَ توبي في جلسته. ورفع يدَيه من حِجره. وبيدِه اليُمنى العارية نزعَ القفاز من يده اليُسرى. كانت الندوب على يدِه اليُسرى مُميزةً لهُويته بوضوحٍ تام لا يقبل الجدل، كبصمة الإصبع.

قال والدي وهو يميل ليقترب منه: «جوردان؟»

فقالت أمي: «هذا ليس اسمه.»

قال توبي: «بل اسمي. اسمي توبياس جوردان. أنا نجَّار من ميريلاند. ولم أدفع بيتي إلى أسفل تلك البئر.»

الفصل الحادي والعشرون

كان من الممكن أن أتهرَّب من الموقف عندئذٍ.

فتوبي هو الوحيد الذي كان يعرف أنني مَن خبَّأته. والثيابُ التي كان يرتديها كانت مُطابقة تقريبًا للثياب التي كان كلُّ الرجال يرتدونها، وما كان والدي ليلاحظ اختفاءَها من الخزانة إلَّا بعد فترة. وكنت سأحظى بوقتٍ كافٍ وزيادة لأتدبَّر أمر البرطمانات والكاميرا والمقص، وبقية الأشياء التي كانت ما تزال في عليَّة التبن. وكنت أعرف أنَّ توبي لن يتخلى عني أبدًا. كان سيقول إنه سرق الثياب من أحد حبال الغسيل، وقص شعره ولحيته، وتسلَّل إلى داخل حظيرتنا من تلقاء نفسه.

قلت: «توبي لم يهرب. لقد جعلتُه يأتي معي. ولم يختبئ. أنا التي خبأته. في حظيرتنا. وقصصتُ شعره وأعطيتُه بعض ثيابك ليرتديها يا أبي. وما كان ليفعل أيًّا من ذلك لو لم أجعله يفعله.»

ورغم أنَّ أمي اكتشفت هُوية توبي الحقيقية بالفعل، فقد بدت مصدومةً من هذه الاعترافات. وكان والدي أيضًا عاجزًا عن الكلام.

قال توبي: «كانت تحاول مساعدتي. لا يُمكن أن تكوني غاضبة منها.»

فقالت أمي: «يُمكنني بالتأكيد. لكني لست غاضبة. لست غاضبة الآن. لكن ذلك سيحدث عما قريب.»

قال والدي وهو يحدِّق إليه فاغرًا عينَيه: «لا أستطيع أن أصدِّق أنك توبي. تبدو ... مختلفًا جدًّا.»

«لكنه في الحقيقة ليس مختلفًا يا أبي.»

قال أبي: «كلا، هو مختلف.»

قال توبي: «أجل، هذا صحيح. لكن هذا ليس له علاقة بذاك. لم أفعل ما تدَّعي بيتي أنني فعلته. لم أفعل أي شيء منه.» وقف ودفع كرسيه إلى الوراء. وأضاف: «ولكن من الأفضل أن أرحل قبل أن أوقعكم كلكم في مشكلات أسوأ.»

وبينما هممتُ بالاعتراض، قالت له أمي: «اجلس. أنا شخصيًّا أحتاج إلى بضع دقائق لأفهم الأمور. سحقًا. كان الضابط مُحقًّا. المسألة مشوِّشة ومُحيرة.» دسَّت خصلة شاردة من شَعرها خلف أذنها. وأضافت: «ثم إنني أعددتُ فطيرة وسنأكلها حتى وإنْ كانت القيامة ستقوم بعدها.»

نهضت أمي من المائدة وبدأت توزِّع قطع الفطيرة على أطباق، وكانت هذه المرَّة تحمل فوقها قشدة مخفوقة، كما لو كنا في عيد الميلاد المجيد.

ثم قالت وهي تضع الفطيرة على المائدة: «انتظروا القهوة.» فانتظرنا. كانت تستخدم نبرتها الحازمة التي لا تقبل الجدل. وهذه هي النبرة نفسها التي كنتُ قد استخدمتها في كلامي مع توبي لنأتي إلى هنا، إلى هذه المائدة.

أعطتني كوبًا من الحليب، ومزيدًا من القهوة للرجلين. وقالت: «حسنًا، هيا. تلك الفطيرة لن تأكل نفسها.»

أكلَ توبي قطعته ببطءٍ. أطال تناولها لوقتٍ طويل بعدما أنهينا قطعنا. جلسنا وظللنا نشاهده كأنه زرافة أو كائنٌ من المريخ. حتى أنا وجدت صعوبة في تصديق أنَّ توبي كان جالسًا إلى مائدة مطبخنا، يأكل فطيرة، بعدما ظلَّ كل هذه السنين يتجنَّب الاحتكاك بنا سوى مرات عابرة مقتضبة، وبعد سنوات قضاها لا يتحدث تقريبًا، ولا يسمح قَط لأي كائن بأن يراه دون الثياب السوداء التي تغطيه.

قال والدي أخيرًا حين أنهى توبي آخِر قضمة مُغمضًا عينَيه: «ساعدني لأفهم ما حدث. لا أفهم كيف استطاعت أنابل ... أن «تُهرِّبك» خلسة أمام أعيننا. العريف يبحث عنك منذ أمس.»

هزَّ توبي كتفَيه. وقال: «كنت أصطاد تحت جسر الجدول طَوال الجزء المُمطر من اليوم، ثم ذهبتُ إلى بيت آل ترنر لأحصل على بعض اللحم المقدَّد، ثم عدتُ إلى مسكني بعد حلول الظلام ...»

فقلت: «وذلك بعدما كان العريف أولسكا قد ذهبَ إلى الكوخ ورحل.»

أضافَ: «علَّقتُ أغراضي المبللة وخلدتُ إلى النوم. لم أكُن أعرف شيئًا عن اختفاء بيتي حتى طرقت أنابل بابي قبل شروق الشمس، وأخبرَتني بما يجري وبأنه يجدر بي الذهاب

معها.» كاد يبتسم لأمي، لكنها لم تبدُ ميَّالة إلى رد الابتسامة بعد. وقال لها: «كانت نبرتُها تبدو كما كانت نبرتكِ الآن للتو.»

وهنا لم يستطع والدي إلا أن يقابل ذلك بابتسامة عريضة، لكنها قصيرة. وقال وهو يكاد يُحدِّث نفسه: «أعرفُ تلك النبرة.»

فقالت أمي: «ستعرفها على نحو أفضل إن لم تنتبه إلى كلامك.»

«إذَن، فقد كنت في الحظيرة منذ ...»

«وقت مبكِّر جدًّا من صباح اليوم.» مرَّر توبي يده السليمة على لحيته وأسفل حلقه. وأضافَ: «يبدو أنَّ ذلك كان منذ وقت طويل.»

قال لي والدي: «نزلتِ إلى هناك في الظلام وحدك لتُحضريه؟»

أومأتُ برأسي وأنا منقسمة بين شعور بالفخر وإحساس بالذنب. قلت: «لم أستطِع النوم وكنت أعرف أنَّ ذلك كان يبدو سيئًا جدًّا. ألا تظن أنَّ الضابط كان سيأخذ توبي معه لو لم أفعل أنا ذلك؟»

كانت هذه حجة دامغة لم يُكلِّف أحد نفسه عناء دحضها. فجميعنا كان يعلم رأي الناس في توبي، بمَن فيهم العمة ليلي وآل جلينجاري.

قالت أمي: «ثم؟»

«خبَّأتُه في علية التبن. أخذت له بعض الطعام والماء. وكتابًا. وبعض الثياب. وصابونة. واستعرتُ مقصك لأهذب له شعره.»

قالت بإمعان في التفكير: «وهكذا وُلِدَت شخصية جوردان.»

قلت: «لم نخطط لذلك هكذا. ولم نخطط للنزول إلى مُنخفَض «كوب هولو» مرَّة أخرى أيضًا. لكني تذكَّرتُ صوتًا سمعتُه في الظلام الليلة الماضية، بجوار الكوخ. حسبتُه آنذاك صوتَ قنفذ. لكن عندما أخبرَنا الضابط بما قاله آندي، عن أنَّ بيتي كانت تعتزم النزول إلى هناك، فكرت، وقلت لنفسي ... ماذا لو أنها قد فعلت ذلك بالفعل؟ ماذا لو كان هذا هو المكان الذي توجد فيه؟ وفكَّرتُ بإمعان أكبر في صوت القنفذ. وتذكَّرتُ البئر.»

جلسنا صامتين قليلًا، ونحن ننظر بعضنا إلى بعض.

ثم عقد والدي ذراعَيه على صدره. وقال: «مَن قرَّر أن يشارك توبي في جهود الإنقاذ؟»

فقلتُ وقد تمزقتُ مجددًا بين الشعور بأنَّ ذلك كان تصرفًا ذكيًّا والإحساس بأنه لم يكُن كذلك: «أنا. كنت متيقنةً تمامًا من أنه بذلك سيندمج مع الغرباء الآخَرين، وسيستطيع مراقبة ما ستئول إليه الأمور. ومن ثَم يواصل المُضيَّ قدمًا في طريقِه إن اضطر إلى ذلك. أو يمكث إذا أمكن.»

نظرتُ إلى كلٍّ منهم واحد تلو الآخَر. وقلت: «لكنَّ هذا ليس ممكنًا، أليس كذلك؟»

تنهَّد والدي. وقال: «لا أعرف يا أنابل. المسألة كلها فوضوية، من أولها إلى آخرها. ويوجد شيء آخَر.» عرفتُ من نظرته العابسة أنَّ هذا الشيء لا يمكن أن يكون جيدًا. أضاف: «أخبرني العريف عندما اتصل للتو بأنهم كثفوا جهود البحث.»

بادله توبي النظرة العابسة، وكان من الواضح أنه متحير. قال: «لكننا وجدنا بيتي.»

فقال والدي: «لا يبحثون عن بيتي. بل يطاردونك.»

ظللنا طوال الساعة التالية نتحدَّث عمَّا ينبغي فعله، وعن طريقة تمكننا من كتمان هذا السر الذي أصبح سرَّنا جميعًا الآن، حتى وجدنا طريقة لإصلاح الوضع.

ولكن سرعان ما بدأت تأثيرات اليوم السلبية تُدركنا، أنا بالذات. فأنا كنت ألفُّ على قدمٍ وساق منذ ساعات الصباح الأولى، وشعرتُ بأنني مُثقَلة كجوالٍ من الصخور. وحتى توبي نفسه، الذي كان أكثر تعوُّدًا على قلة النوم وكثرة الحركة، كان مُنهَكًا تمامًا.

قال: «ما زلت أرى أنني ينبغي أن أغادر الآن. يُمكنني أن أكون على بُعد عشرين ميلًا من هنا بحلول الصباح.»

فقال والدي: «وهذا بالضبط هو المكان الذي يبحثون فيه. ولا أرى أنك تستطيع المشي عشرين ميلًا بحالتك هذه.»

كانت أمي قد أحضرت بطانيتَين ووسادة، وكانت في هذه اللحظة تُسلمها إلى توبي.

قالت: «لن يكون الجو دافئًا جدًّا في علية التبن، لكني أظن أنه المكان الوحيد الآمن لك الآن.»

فقال: «العلية ستكون مناسبة. الرائحة طيبة هناك في الأعلى. وأنا أحب الحمام.»

«وهاك بعض الخبز والجبن للصباح. يُمكن أن تحضر أنابل القهوة إليك قبل ذهابها إلى المدرسة.»

صدمتني فكرة الذهاب إلى المدرسة. لكني كنت أعلم أنني مضطرة إلى الذهاب. كان ينبغي ألَّا نفعل أي شيء يلفت الانتباه إلينا أو إلى مزرعتنا. كان ينبغي أن يسير كل شيء كالمعتاد.

قلتُ وأنا أسلِّم توبي معطف جدي: «طابت ليلتك.»

وأضافَ والدي: «إذا رآك أي أحد، فلتقُل فقط إنني استأجرتك لإصلاح بعض الكسور في الحظيرة.» وكان هذا تفسيرًا منطقيًّا تمامًا.

لكن كل شيء بدا لي أسهل ممَّا أستطيع استيعابه، وأنا متجهةٌ إلى فراشي.

عندما استيقظت، أدركت أنني أطلت النوم. فالضوء كان ساطعًا سطوع أواخر الصباح، والمنزل كان هادئًا. نزلتُ مسرعة إلى المطبخ حيث وجدت جدتي تشطر بعض ثمار القرع الجوزي نصفَين، وتضعها مقلوبة على وجهها على ورقة خبز.

قلت لها: «ما الخطب؟»

فقالت مبتسمة: «لا شيء إطلاقًا. ارتأت أمك أنكِ كنتِ تحتاجين إلى النوم وقتًا أطول قليلًا.»

شعرتُ بالحرج لأنني لم أكُن أعرف ما كانت تعرفه، أو ما يُمكنني قوله بأمانٍ دون إحداث مشكلة. كان قول الحقيقة متشابكًا جدًّا مع الأسرار، لدرجة أنني لم أستطِع قول أي شيء دون إفشاء سرٍّ ما. لذا اكتفيتُ بالجلوس لأتناول فطوري من الحبوب، في انتظار أن تتضح معالم اليوم.

قالت أمي وهي تدخل من الباب حاملةً سلَّةً من البيض: «عجبًا، انظروا مَن التي استيقظت.» ثم ارتدَت مئزرًا وربطَته وقالَت لي: «مخفوق أم مقلي؟»

فقلت لها: «تناولتُ بعض الحبوب بالفعل.»

«إذَن اذهبي واستعدي للمدرسة.» لكنها غمزت لي وهي تقول ذلك. ثم أضافت: «سأصعد إليكِ في غضون دقيقة.»

وبينما كنت ما أزال أتساءل عن مغزى تلك الغمزة، دخلَت غرفتي وأغلقَت الباب.

قالت بهدوء: «اعتنى والدك بتوبي هذا الصباح. لقد أعطاه فطورًا.» جلست أمي على حافة فراشي بينما كنت أرتدي ثيابي. وأضافت: «وعندما عاد، أخبرني ببعض الأشياء.» ثم ربتت على السرير بجوارها. وقالت: «تعالي اجلسي دقيقة يا أنابل.»

ففعلتُ ذلك، وعندئذٍ استغرقَت لحظة لتنتقي كلماتها. ثم قالت: «والدكِ يظن أنَّ توبي ربما يكون ... مضطرب الفكر قليلًا.»

«بخصوص ماذا؟»

«أنتِ تعلمين أننا دائمًا ما كنا نظنه غريب الأطوار. وأنا متيقنة من أنكِ أيضًا كنتِ تظنينه كذلك. فقد كان يمشي طوال اليوم لكنه لا يذهب إلى أي مكان. ولم يكُن يتكلم إلا إذا اضطر إلى ذلك. وكان يعيش في كوخ قديم لتدخين اللحم، في حين أنه ربما كان يُمكن أن يعيش في مكانٍ أفضل.»

«لكني كنت أظن أنكِ تحبينه.»

«أجل أحبه. دائمًا ما كنت أحبه. أنا متيقنة من أنه مرَّ بأشياء فظيعة أوصلته إلى حالته تلك، وسأساعده دائمًا ما دمتُ قادرة. لكن الليلة الماضية، بعدما ارتدى تلك الثياب

النظيفة، وهذَّب شعره ولحيته، وجلسَ إلى المائدة، وتحدَّث بجمل تامة؛ لم يعُد يبدو غريب الأطوار. لكنه غريب الأطوار فعلًا يا أنابل، وأريدك ألَّا تنسي ذلك.»

فسألتُها: «هل حدث شيء في الحظيرة صباح اليوم؟»

هزَّت رأسها بالنفي. وقالت: «لا، لكن والدكِ قضى بعض الوقت معه، وذَكَّرني بأن المرء ينبغي ألَّا يحكم على كتابٍ من غلافه؛ ولذا فأنا أيضًا أذكِّركِ بذلك. توبي مضطربُ الفكر. وعليكِ أن تتذكري ذلك، بقدرِ ما تحبينه.»

حيَّرني كل هذا الكلام عن اضطراب الفكر وأغلفة الكتب. فقلت لها: «لا أفهم. دائمًا ما كنتِ تقولين إنَّ الناس ينبغي ألَّا يخافوا من توبي، لمجرد أنه كان يبدو مخيفًا. والآن تقولين إنني ينبغي أن أخاف من توبي، مع أنه نزل إلى أسفل تلك البئر لإنقاذ بيتي، ولأنه صار يبدو جيدًا؟»

حدَّقت أمي إليَّ وهي ساكنة تمامًا كالعمود. وقالت: «أنابل، لم أقُل إنكِ ينبغي أن تخافي منه.» نظرَت إلى يدَيها في حِجرها وتنهَّدت. ثم أضافت: «أنا فقط قلِقة من قضائكِ الوقت وحدكِ مع رجلٍ لا نعرفه جيدًا في الحقيقة، رجل غريب الأطوار، وفقًا لكل ما يُقال عنه. يا أنابل، إنه ببساطةٍ «غريب الأطوار».»

«لكن ...»

«ألستِ تعرفين يا أنابل أنه يحمل تلك البنادق طوال الوقت؟»

«بلى. وما المشكلة في ذلك؟»

«ألقى والدكِ نظرةً على تلك البنادق. وتبيَّن يا أنابل أنَّ واحدةً فقط منها هي التي تعمل على نحوٍ سليم. أمَّا الاثنتان الأخريان، فعاطبتان. إنهما لا تصلُحان لأيِّ شيء. لكنه مع ذلك ظلَّ يحملهما طوال سنوات، بالرغم من ثقلهما. ألَا ترين هذه علامةً على اضطراب الفكر؟»

فكرتُ في القصص المروعة التي أخبرني بها توبي. تذكَّرتُ الطفل الرضيع الذي كان عمره بضع لحظاتٍ فقط.

نظرتُ إلى أمي في وجهها مباشرةً. وقلتُ: «لا أرى أنَّ هذه علامةٌ على اضطراب الفكر. هي علامةٌ على شيءٍ لا نفهمه فحسب. توبي لديه أسبابه، ولا أرى أنَّ هذا يجعله غريبَ الأطوارِ إطلاقًا. أو إذا كان يجعله كذلك، فعندئذٍ سأكون أنا أيضًا غريبةَ الأطوار، وأنتِ كذلك.»

نهضتُ وواصلت الاستعداد للمدرسة، بينما ظلَّت أمي جالسةً على السرير تشاهدني. نهضَت بعد ذلك، وغادرَت الغرفة دون أن تتفوَّه بأي كلمةٍ أخرى.

كانت المدرسة مختلفةً في ذلك اليوم لسببَين.

الأول أنني فوجئتُ عندما دخلت بأنَّ الجميع وقفوا ليحيوني بالتصفيق. حتى شقيقاي انضما إليهم، مع أنهما بدوَا محرجَين قليلًا من ذلك. لم يكُن أيُّ أحدٍ قد صفَّق لي من قبل، وشعرتُ بالأسف لأنني كنت أنال التصفيق آنذاك على شيءٍ ربما كان يُمكن أن أفعله بوتيرةٍ أسرع، وعلى نحوٍ أفضل ممَّا فعلته.

والثاني أنَّ المدرسة كانت أفضل كثيرًا بدون بيتي، وآندي أيضًا، ولم أكُن حزينةً لغيابهما. لكنها كانت أسوأ كذلك لأنَّ روث أيضًا قد رحلت، ولأنَّ بعض الأمهات، اللواتي كُنَّ لا يعرفْنَ توبي كما كنت أعرفه، أبقينَ أصغرَ الأطفال في المنازل خشيةَ أن يكون توبي متربصًا بين الشجيرات، منتظرًا أن يرميَ أطفالَهن في أقرب بئر.

لم يكُن عددنا يتجاوز العشرين؛ ولذا حظيت السيدة تايلور بوقتٍ كافٍ وزيادة لتُخرجنا إلى السبورة بالتناوب، وتشرح لنا بعض عمليات الجمع وقواعد اللغة.

وفي أثناء أحد دروس الحساب، بدأت أدرك الخطوة التالية التي ينبغي أن أتخذها. فمنطق الأرقام كان مهدئًا ونشَّط خلايا عقلي المُتعَب.

تراءى لي أنَّه إذا كان إثبات براءة توبي مسألة، فمفتاحُ حلِّها هو آندي.

كان يعرف كلَّ شيء؛ هُوية مَن رمى الحجر، ومَن ربط السلك المشدود، والسبب في ذهاب بيتي إلى مُنخفَض «كوب هولو»، وكل ذلك.

وتراءى لي أنه إذا كان دفع آندي إلى قول الحقيقة مسألة، فلم أكُن أعرف حلها.

لكني تذكَّرتُ كم أنَّ البوح بسرِّي كان أسهل، حين أدركتُ أنَّ أمي كانَت تعرف جزءًا منه بالفعل: أنَّ جوردان كان توبي في الحقيقة. وحالما زال غطاء الزجاجة، تدفَّق بقية ما فيها.

ومن ثَم؛ إذا كان الحل هو إزالة غطاء أسرار آندي، ينبغي إذَن أن أعرف السبيل إلى إقناع آندي بأننا نعرف بالفعل الحقيقة التي كان يكتمها.

قضيتُ بقية النهار أفكِّر في ذلك. وبحلول نهاية اليوم الدراسي، صارت عندي بذور فكرة وليدة في رأسي.

الفصل الثاني والعشرون

كنت أحتاج إلى بعض الوقت لأترك فكرتي الجديدة تختمر في رأسي، قبل أن أفعلَ أي شيءٍ حيالها.

فقد ظللت طوال الأيام الماضية أتقافز من مشكلة إلى أخرى، كأني حبة فشار في حلة. وقد تعبت من ذلك.

كنت قبل بضعة أسابيع فقط قد بدأتُ أتلهَّف لتغييرٍ ما، وأشعر بالسأم من حياتي، رغم أنني كنت أحبها. ويبدو أنَّ الإثارة كانت تنتظرني آنذاك في مكانٍ ما، ككعكة سليمة تنتظر أن آكلها.

أمَّا في تلك اللحظة، فلم أكُن أريد سوى أن أبقى ساكنةً وهادئةً، وأمعن في التفكير لقليلٍ من الوقت فحسب.

لم يكُن «حجر السلحفاة» بعيدًا عن مبنى المدرسة. وكانت الغزلان التي اعتادت أن تسلك الممشى للخروج من مُنخفَض «حفرة الذئاب»؛ قد نحَتَت في الأرض ممراتٍ ضيقة أخرى مؤديةٍ إلى رُقَع السرخس التي كانت تُحبها.

سلكتُ أول هذه الممرات، وشعرت بالامتنان مجددًا؛ لأنَّ بيتي لم تكُن متربِّصةً بي. تساءلتُ عمَّا إذا كان يُفترض أن أشعر بالذنب تجاه ما حدث لها، لكني لم أشعر بذلك. صحيح أنني ربما تباطأت في الإسراع للعثور عليها، لكني لم أرمِها في تلك البئر. بل هي التي أوقعت نفسها في كل ذلك.

كنتُ وحدي تمامًا آنذاك. فشقيقاي قد رحلا منذ وقت طويل. وكانت كل الطيور والحيوانات الصغيرة قابعةً في مخابئ مرئية، في انتظار أن تعرف نياتي.

لكني لم أكُن أحمل أي نية.

كان «حجر السلحفاة» قائمًا وسط الأرض الفضاء الخالية من الشجيرات، كأنه قمرٌ كبير وسط مجرةٍ من نجوم أوراق القَيْقَب الصفراء. كان منظره جميلًا وقد امتدت عروق الكوارتز عميقةً واضحة عبر قوقعته الصلبة المائلة إلى الاحمرار. لطالما كنا نتساءل عن ذلك الحجر؛ عن مصدره، وعن السبب في عدم وجود سواه في هذه التلال.

كنتُ قد شعرت بالغضب من قبل؛ بسبب الكثير من تصرُّفات بيتي الخسيسة، ولكن عندما رأيت الندوب التي أحدثتها على الحجر وتذكرتُ سببها، اجتاحني حنقٌ حقيقي.

مرَّرتُ يدي على الحجر، متوقعة أن أجد إيحاءً ما بالنعومة. لكن بدلًا من ذلك، أخبرني الحجر نفسه ببضعة أشياء عن العمر والصمود في وجه الزمن، وبدا أنَّ الأشجار الواقفة على حافة الأرض الفضاء وافقته الرأي بهدوء.

قلت لنفسي مَن أنا لأقلقَ على حجرٍ موجودٍ هنا منذ أمدٍ بعيدٍ، قبل ميلاد أيٍّ منا أصلًا، وسيبقى هنا فترةً طويلةً بعد رحيلنا كلنا؟

كنت قد جئتُ إلى هنا لأفكر في مسائل جادة، وفي الكيفية التي يُمكن أن أسهم بها في مجريات الأحداث. أحداث مهمة. لكني، بدلًا من ذلك، وجدتُ الحجر يجعلني أدرك للمرة الأولى أنَّ حياتي، مهما طالت، لن تساويَ أكثر من ومضةٍ عابرة. لا، ولا حتى ذلك. ولا حتى ومضة عابرة. ولا حتى تنهيدة.

وفي طريق عودتي عبر الأحراج، فكرتُ في الرجال الذين حفروا الحفر القريبة من هنا. وربما كان معهم صبيان أيضًا، صبيان ليسوا أكبر كثيرًا من عمري الآن.

تخيَّلتُ تلك الحفر، والذئاب محصورة فيها تزمجر وتئن لإطلاق سراحها. تخيلتُ العظام التي خلَّفَتها وراءها. وأجنة الجراء الصغيرة التي لم تولَد، وآذانها التي تشبه بَتَلات الورد.

فكَّرتُ في بيتي ووالدها «الغائب»، والسبب في أنها كانت تعتزم إلحاقَ ذلك الأذى بتوبي.

فكرتُ في القصص البشعة التي أخبرني بها، وملمس ندوبه الناعم الفظيع.

وارتأيتُ أنَّ ثمة أشياء قد لا أفهمها أبدًا، مهما حاولتُ جاهدة. لكني سأحاول.

وأنَّ ثمة أناسًا قد لا يسمعون صوتي الصغير الوحيد أبدًا، مهما كان ما أريد قوله.

وحينئذٍ خطرت ببالي فكرة أفضل، وكان هذا هو ما خرجتُ به في ذلك اليوم: إذا كان مُقدَّرًا لحياتي أن تكون مجرد نغمة واحدة في مقطوعة لا نهاية لها، فكيف لا أصدح بها لأطول وقت ممكن وبأعلى صوت مُستطاع؟

عندما عدت إلى البيت، وجدتُ أمي وجَدَّتي في غرفة الجلوس، حيث كان حِجرُ كلٍّ منهما مليئًا بثيابٍ تعملان على إصلاحها.

ألقيتُ التحية وسألت: «أين الولدان؟»

فقالت أمي وهي ترمقني بنظرةٍ ذات مغزًى: «في الخارج، في علية التبن مع جوردان.»

قلتُ: «مع ...» لكني كبحتُ التعبير عن ذهولي.

فقالت جدتي وهي مُنكبة بوجهها على عملها: «جوردان. يا له من رجل لطيف لأنه مكث ليساعد والدكِ في إصلاح كسور الحظيرة.»

فسألتُ: «هل لي أن أذهب وأساعد أنا أيضًا؟»

قالت أمي: «لوقتٍ قصير. وأعيدي شقيقَيكِ معك وأنتِ عائدة.»

«هل أعطيتم جوردان غداءً ما؟»

فرفعت أمي عينَيها نحوي وهي تبتسم. وقالت: «لا يا أنابل. والدُكِ طلب منه أن يساعده في العلية طوال النهار، لكننا لم ندعُه للمجيء في وقت الغداء.»

ضحكت جدتي ضحكة مكتومة.

قلت: «كنت أسأل فحسب.»

فقالت أمي: «وأنا كنتُ أجيبُ فحسب. والآن اذهبي إلى هناك وعودي بسرعةٍ لمساعدتنا في إعداد العشاء.»

تبعتُ صوت الطَّرق بالمطرقة وصياح الأولاد من البيت حتى الحظيرة. وعند أبواب الجُرن العلوية الكبيرة، وجدتُ والدي وتوبي يُصلحان جدارًا منقوصًا من بعض الألواح، بينما كان شقيقاي يتأرجحان جيئةً وذهابًا على حبلٍ معقود.

راودني آنذاك شعورٌ ما، وأظن أنه كان شعورًا بالغيرة من أنهم يمارسون حياتهم بأفضل نحو، وبكل سهولةٍ من دوني.

قال لي والدي: «ما الذي أخَّركِ؟ الولدان هنا منذ نصف ساعة أو أكثر.»

فقلت: «أمضيتُ بعض الوقت عند «حجر السلحفاة».»

نظر والدي وتوبي إليَّ، مثلما نظر إليَّ الحصانان عندما قاطعتُ انهماكهما في تناول العشب.

قلت: «المكان هناك هادئ.» وبدا هذا الرد مُقنعًا لكليهما.

الْتَفتُّ بناظريَّ إلى الولدين اللذين كانا أشدَّ صخبًا من الغربان حين ترى صقرًا. وسألتُ والدي قائلة: «هل أخفيتم الأشياء التي كانت موجودة في العلية؟»

فأومأ والدي بالإيجاب. وقال: «دفنتُ الشَّعر في الأحراج. ولففنا البنادق بمعطف توبي ودسسناها تحت حزمة من التبن. وأخفينا الملاءات وأغطية النوم أيضًا. الكاميرا في قبعته، خلف حزم التبن. وقد أمرتُ الولدَين بأن يبقيا خارج العلية.»

كانت هذه الجملة الأخيرة هي الأكثر إثارة للقلق، من بين كلِّ ما كان يُمكن أن يقوله. فإخبار الولدَين بعدم فعل شيءٍ ما هو أشدُّ ما يغريهما بفعله، كأن تعطيَ الكلب شريحة لحم وتأمره بألَّا يأكلها.

قلت: «عندي فكرة.»

ذهلت عندما توقَّف هذان الرجلان البالغان عن الطَّرق، ووضعا مطرقتَيهما جانبًا حين سمعا هاتَين الكلمتَين البسيطتَين منِّي.

قال والدي: «دعونا نخرج.» تبعتُه أنا وتوبي إلى الخارج من البابَين الجانبيَّين الكبيرَين. ثم قال: «ما الفكرة؟»

فكرتُ بُرهةً في الخيط الذي قد تبعته وأنا في المدرسة. والقرار الذي اتخذته عند «حجر السلحفاة»، وأن أستخدم ذلك الخيط لإصلاح ما يُمكن إصلاحه.

قلت: «أظن أنني أعرف طريقةً لنجعل آندي يعترف ببراءتك يا توبي.»

انتظرا مُترقِّبَين سماع المزيد.

فأضفتُ: «رآك آندي وبيتي فوقهما على تلك التلَّة في ذلك اليوم. رأياك هناك في الأعلى ممسكًا كاميرا.»

«إذَن؟»

«إذَن سنقول لآندي إنك التقطتَ صورةً لبيتي وهي ترمي الحجر.»

هزَّ توبي رأسه بالنفي. وقال: «لكني لم أفعل ذلك. لقد حدث الأمر بسرعة كبيرة. وغاصا بعد ذلك وسط الأدغال. وكلُّ ما استطعتُ تصويره كان لقطة للطريق في الأسفل. إنها تُظهركِ أنتِ. وروث وهي مصابة.»

قال والدي: «نعرف ذلك يا توبي. رأينا الصورة. إنها جعلتك تبدو مذنبًا. لكن آندي لا يعرف ذلك. كل ما يعرفه أنك كنت هناك على التلة ومعك كاميرا. سنقول له إنَّ الصور قد عادت وإنَّ إحداها تُظهِر بيتي وهي ترمي الحجر. وإذا انطلى ذلك عليه وظنَّ أنَّ كذبته الكُبرى قد اكتُشفت، فلن يكون لديه سببٌ للكذب بشأن بقية ما حدث.»

قلت لتوبي: «وأنت لم يكُن لديك سببٌ يجعلك ترمي بيتي في تلك البئر.»

ثم قلت لوالدي: «علينا أن نذهب ونتحدَّث إلى آندي في أسرع وقت ممكن. هاتِ العريف معنا ليسمعَ بنفسِه حقيقة ما حدث.»

وفي هذه اللحظة، بعثرَ الولدان مخططاتنا المُحكَمة كأنها حفنة من الحبوب.

استدرنا كلنا وهُما يخرجان مُسرعَين من الحظيرة، ويتسابقان نحونا.

صاحَا قائلَين: «انظروا ماذا وجدنا!»

كان جيمس رافعًا قبعة سوداء عاليًا في قبضته.

وكان هنري ممسكًا بكاميرا.

حدَّقنا إليهما، ونحن عاجزون تمامًا عن الكلام.

قال هنري: «توبي كان في حظيرتنا. ربما ما يزال موجودًا هنا، مختبئًا.» خفضَ صوته فجأة. وقال: «ربما ما يزال موجودًا في الحظيرة في مكانٍ ما. يا أبي، هل تظن أنه ما يزال في الحظيرة؟»

ماذا كان يُفترض أن نقول؟

لم نستطع إخبارهما بأنَّ توبي كان واقفًا أمامهما مباشرة. ذلك أنهما كانا ثرثارَين.

ولم نستطِع أن نطلب منهما ألَّا يقولا أيَّ شيءٍ عمَّا اكتشفاه. فما كانا ليريا أي مبررٍ إطلاقًا لإخفاء معلوماتٍ كهذه عن الشرطة، في ظل وجود بحثٍ جارٍ عن رجل، سواءٌ أكانا يحبان توبي أم لا.

سألهما والدي: «أين وجدتما هذه الأشياء؟»

قال جيمس وهو يتراقص في مكانه: «في العلية. خلف بعض حزم التبن.»

وقال هنري: «لماذا يترك توبي قبعته وكاميرته في علية حظيرتنا؟ هذا ليس مفهومًا. إلا إذا كان ما يزال موجودًا هنا في مكان ما.»

فقال والدي وهو يأخذ الكاميرا من يدي هنري: «ما رأيكما أن نترك العريف يهتم بذلك؟ الآن عودا إلى المنزل واغتسلا.»

«لكن ...»

قال وهو يأخذ القبعة من جيمس: «هيا اذهبا. سنلحق بكما في غضون دقيقة.»

لوى جيمس قسمات وجهه من الضِّيق والاستياء. وقال: «ولماذا لا تذهب هي أيضًا؟»

«ستلحق بكما مباشرةً. والآن هيا.»

شاهدنا الولدَين وهما يمشيان نحو آخِر الزقاق بخُطًى متثاقلة، تعبيرًا عن غضبهما.

خلع توبي قفازَيه وفرك يده المصابة.

قال والدي: «هذا ليس جيدًا.»

وقال توبي: «ينبغي أن أرحل.»

قلت: «علينا الذهاب إلى آل وودبيري بسرعة.»

فقال والدي: «بدأ الموقف يتعقَّد للغاية يا أنابل. أظنُّ أننا ينبغي أن نُخبر العريف بكل شيء، ونتركه يتصرَّف مع آندي.»

«وإذا لم يُفلح ذلك؟»

ظللنا نفكر لحظة.

قال والدي: «أظن أنك يُمكن أن تبقى مختبئًا يا توبي ريثما نحاول. وإذا لم يعترف آندي، فيُمكنك أن تهرب.»

فقلت: «ويسير بقدمَيه إليهم مباشرةً وهُم يبحثون عنه؟»

هز توبي كتفَيه. وقال: «سأرحل بهدوء.»

قال والدي: «لن ترحل إلى أي مكان الآن.»

قلت: «أي ضرر قد يقع إذا تحدثنا إلى آندي؟ يُمكن أن نذهب إليه الآن فورًا، ونخبره بأننا وجدنا صورةً له هو وبيتي على التلة حينما أُصيبَت روث، ونرى ما سيقوله.»

قال توبي: «وهذا سيوقعكِ في ورطةٍ إذا لم يعترف. سيتبيَّن أنكِ تكذبين لتجبريه على قول الحقيقة. وسيتساءل الناس عن السبب الذي دفعكِ إلى ذلك.»

قال والدي: «دعهم يتساءلوا. فنحن نُدافع عنك منذ البداية. ولن يُثقِلَنا أن يظن الناس أننا لم نزَل نحاول مساعدتك للخروج من هذه الورطة.»

قال توبي ببطء: «وهذا يثير سؤالًا مهمًّا. لماذا تدافعون عني منذ البداية؟»

رفع والدي رأسه مندهشًا. وقال: «لأنك لم ترتكب أي جُرم.»

فكَّر توبي في ذلك بُرهة طويلة، وهو يفرك ندوبه، وسمعتُ قصصه تحاول الخروج من صناديقها المحفوظة فيها.

ثم انتصبَ توبي أخيرًا وأخذ القبعة من بين يدي والدي، وعندئذٍ عرفتُ ما سيحدث.

قال وهو يوجِّه كلامه إليَّ مع أنه كان يتحاشى النظر إلى عينيَّ: «شكرًا على كلِّ ما فعلتِه. لكنَّ هذه لعبة لا أريد مواصلة لعبها بعد الآن.»

اعتمر القبعة.

وهكذا تلاشت شخصية جوردان فورًا.

قلت وأنا أتبعه إلى داخل الحظيرة: «ما الذي تنوي فعله؟»

لكنه لم يردَّ عليَّ. ولم يردَّ على والدي، الذي طلب منه البقاء إلى أن نتمكن من توضيح الأمور. بدا أنه لم يكُن يسمعنا بينما كان يصعد السلم إلى العلية.

قلت: «هذا الرجل عنيد جدًّا لدرجة تؤهله إلى أن يكون فردًا من العائلة.»

فقال والدي: «من طرف أمك.»

وقفنا نشاهد بينما نزل توبي مرَّة أخرى مرتديًا معطفه الأسود الطويل، ومُعلِّقًا بنادقه على ظهره مجددًا.

قلت: «توبي، لا يمكن أن ترحل هكذا بهذه البساطة. إنها ليست لعبة.»

لكنه اكتفى بالتوقف لحظة ليُعطيني معطف جدي، ويُعطي والدي القفاز الذي كان يرتديه.

سألتُه: «هل أنت راحلٌ حقًّا؟ هكذا بهذه البساطة؟»

لكنه لم يردَّ.

كان من الصعب عليَّ أن أصدِّق ما يحدث، بعد كل المحاولات التي بذلناها، لكني أدركت أنه كان عازمًا حقًّا على الرحيل.

قال والدي وهو يمد الكاميرا إلى توبي: «كاميرتك»، لكنه رفضها بإشارة من يده. ولم يكُن ما استطعتُ رؤيته من وجهه آنذاك سوى شحوبٍ لم أرَ مثله من قبلُ.

استدار بعد ذلك وغادر الحظيرة، وخرج عبر المرعى الخلفي، واختفى وسط غياهب الأدغال.

الفصل الثالث والعشرون

كان من الممكن أن تنتهي القصة هنا.

لكنَّ العمة ليلي كان لديها شيء تريد قوله عمَّا حدث تاليًا.

صاحت قائلة عندما وصلَت إلى المنزل من مكتب البريد، وسمعَت بما وجده الولدان في العلية: «لماذا لم تبلغ الشرطة يا جون؟ أو العريف على الأقل. من الممكن أن يكون ذاك الرجل المجنون ما يزال موجودًا هنا، وأنا عن نفسي لن أنام إلى أن يُقبَض عليه.»

كان أبي جالسًا في الكرسي عند الموقد لا يفعل شيئًا، بينما كنت أنا وجدتي نُجهز الطاولة.

رد قائلًا: «ليلي، لقد ترك الكاميرا لنا لنعثر عليها. إنها كاميرتنا. أمَّا هو، فقد رحل منذ وقت طويل.»

«والقبعة؟»

لم تكُن لديه إجابة عن هذا السؤال.

«وهل صعدتم إلى العلية لتفتشوها كما ينبغي؟»

هز والدي رأسه بالنفي.

«جون! ربما ما يزال موجودًا في تلك العلية، مختبئًا، أو ربما لم يرحل سوى اليوم للتو بعدما صعد الولدان إلى هناك.»

كانت جدتي حتى تلك اللحظة تتجنب التدخل في المسألة، لكنها تدخلت أخيرًا وقالت: «صحيحٌ أننا دائمًا ما كنا نحب توبي كثيرًا يا جون، لكني أظن أنَّ ليلي مُحقة.»

فقالت العمة ليلي: «شكرًا لك يا أمي. أنا متيقنة من أنَّ سارة لديها نفس الرأي.»

لكنَّ أمي، التي كانت مشغولة عند الموقد، لم تعلِّق.

انتظرَت العمة ليلي مُترقِّبةً رد والدي، لكنه بقي في كرسيه، ممعنًا في التفكير.

فقالت أخيرًا: «حسنًا، ما دُمتَ لن تفعل ذلك، فسأتصرف أنا.»

هممتُ بالاعتراض، لكن والدي رفع يده. وقال: «لا تتدخلي يا أنابل، وليكُن ما يكُون.»

سمعناها من الغرفة الأخرى تُخبر السيدة جريبل بأن توصل مكالمتها، ثم سمعناها تُحادث شخصًا ما في ثكنات الشرطة في بيتسبرج، طالبةً منهم أن يُسرعوا. ويحضروا الكلاب البوليسية.

لم يخطر ببالي من قبل أن تبحث الكلاب البوليسية عن توبي. بل كل ما خَطَر ببالي أنها ستبحث عن بيتي فقط.

تبادلتُ نظرةً مع أبي. رأيتُ فيها أنه أدرك ما أدركته: أنَّ المكان مليء بآثار حديثة ستتعقبها الكلاب. وليست هذه الآثار حول البئر في مُنخفَض «كوب هولو» فقط. وهي ليست في حظيرتنا فقط. فالآثار في شاحنتنا أيضًا. وفي هذا المطبخ، حتى هذا الكرسي الموجود هناك بالضبط.

عندما عادت العمة ليلي بعد إنهاء مكالمتها، قالت: «الضابط كولمان سيأتي إلى هنا الليلة. وسيأتي مزيد من الرجال في الصباح، إذا ارتأى ذلك.» وكانت تبدو مفعمة بالرضا.

قالت لها أمي باقتضاب: «إذَن، فلتُطعميهم أنتِ يا ليلي. وتُنظفي بعدما يأكلون.»

فقالت العمة ليلي وهي تقعد في كرسيها: «وهذا ما سأفعله بكلِّ سرور إذا لم يكُن لديَّ عمل خاص بي يجب إنجازه. يا سارة، كنت أظن أنكِ ستكونين الأكثر قلقًا على سلامة أطفالك. أكثر قلقًا من أيٍّ منا.»

أخرجت أمي قطعة لحم مشوية من الفرن، ووضعتها بقوة أشد من اللازم فوق الموقد.

وقالت: «أنا قلِقة جدًّا. لا تتخيَّلي لحظةً أنني لستُ كذلك.»

وصل الولدان وسط ترقُّب عشاءٍ وشيك، وحديثٍ عن مجيء الشرطة قريبًا.

سألَ جيمس: «هل سيقتلون توبي؟» كان يبدو خائفًا، وكنتُ سعيدة بذلك.

قالت العمة ليلي وهي تلوح بيدها بنفاد صبر: «آه، صه يا ولد. لم يقُل أحد أي شيء عن القتل.»

قالت أمي: «هذا صحيح. لكن عندما يلاحق رجال مسلَّحون ببنادق رجلًا مسلَّحًا ببنادق. ماذا سيحدث في رأيك؟»

صاحت العمة ليلي متعجبة كما لو كانت تُحدِّث مجموعة من الحمقى: «سيقبضون عليه! سحقًا، لسنا في ألمانيا. لن يُطلق أحد النار على أي شخصٍ إلَّا إذا اضطر إلى ذلك.»

دخل جدي من شرفة المدخل الأمامية التي غالبًا ما كان يجلس فيها مساءً، لمشاهدة الغروب. قال وهو يأخذ مكانه عند رأس الطاولة: «ما سبب هذا الكلام عن الألمان وإطلاق النار على الناس؟»

قالت العمة ليلي: «لا شيء يا أبي. محض هراء. الضابط كولمان عائد إلى هنا ليتيقَّن من أنَّ توبي ليس مختبئًا في مكانٍ ما هنا. هذا كل شيء.»

«لأنَّ الولدَين وجدا قبعته في الحظيرة؟»

أومأت العمة ليلي بالإيجاب.

فقال: «أرى ذلك تافهًا قليلًا. لكني لستُ مَن فقدَ عينًا. ولستُ مَن كان قابعًا أسفل تلك البئر.»

تمتمتُ قائلة: «هذا ليس عدلًا»، لكني كنت أعرف أنه ليس لديَّ أي شيء آخَر لأقوله عن أيٍّ من ذلك.

قالت العمة ليلي بقليلٍ من تلك النبرة المنغمة الغريبة في صوتها: «سمعتُ أنَّ جوردان بقي ليساعد في إصلاح الحظيرة. لكنه لن يبقى حتى العشاء، أليس كذلك؟»

أذهلني أننا كنا قد نسينا هذا الجزء من الأحداث. أنَّ شخصيةً باسم جوردان كانت موجودة أصلًا، ولو لوقتٍ قصير.

قال والدي: «اضطر إلى أن يعود أدراجه. لكنه أخبرنا بأن ننقل إليكِ تحيته للوداع.»

ابتسمت العمة ليلي مثل فتاة صغيرة.

قالت: «كان يبدو رجلًا لطيفًا جدًّا.»

فقلت بصوتٍ أعلى قليلًا مما ينبغي: «أجل كان كذلك.»

نظر الجميع إليَّ.

فقلت: «ماذا؟ كان رجلًا لطيفًا.» وشغلتُ نفسي بإغلاق زرٍّ مفكوك في طرف كُمِّي.

سألَت العمة ليلي: «أين القبعة إذَن؟»

خيَّم صمت تام.

قال والدي وهو يبتلع ريقه من التوتر: «أي قبعة؟»

نقلت عمتي نظرها من والدي إلى شقيقيَّ.

فهز هنري كتفَيه. وقال: «سلَّمناها لأبي.»

قال والدي: «أجل، تلك القبعة. تركتها في الحظيرة. ليست بأنظف قبعة في العالم!»

فقالت العمة ليلي: «أجل، أظن ذلك.»

قالت أمي: «حسنًا، هذا يكفي. حان وقت العشاء. ولا أريد سماع كلمة أخرى عن توبي أو قبعته، أو عساكر الشرطة أو الكلاب البوليسية، أو أي شيء آخَر. أتسمعون؟»

أطعناها.

انكببنا كلنا حول الطاولة.

وقالت العمة ليلي دعاء ما قبل الطعام.

كان الطعام جيدًا وقد أكلتُه، لكني لم أشعر بأنه سدَّ أيًّا من جوعي إطلاقًا.

سألَت العمة ليلي: «ما آخِر أخبار بيتي؟»

فقالت أمي: «ما تزال لا تستطيع التحدث كثيرًا. صحيح أنَّ الغرغرينا لم تكُن متفاقمة جدًّا إلى الحد الذي يُحتِّم بتر إصبع قدمها، لكن حالتها سيئة. العدوى التي أصابت كتفها لا تخف حدة، بل يخشون أنها تسوء في الواقع، وهي أيضًا مُصابة بحُمَّى شديدة جدًّا؛ ولذا يحتجزونها في المستشفى.» كانت أمي قد عكفَت من قبل على رعايتنا كلنا كالممرضة في أثناء العديد من الحوادث والأمراض؛ ولذا قلَّما كانت تنزعج من مثل هذه الأشياء، أمَّا أنا، فاضطررت إلى أن أترك شوكتي وأتوقف عن الأكل.

قلت: «ليتنا وصلنا إليها في وقتٍ أبكَر.»

كانت أمي تعرف شعوري تجاه بيتي. فقالت لي: «أنتِ فتاة صالحة يا أنابل.»

فقال جيمس: «وماذا عني؟»

قال والدي: «وأنتَ أيضًا «فتاة صالحة».»

ردَّ جيمس قائلًا: «آخ يا أبي!» ولوى قسمات وجهه من الضيق.

كان يُفترض أن أضحك، كما ضحك هنري. لكني لم أستطِع.

بعدما انتهينا من العشاء وتنظيف الأطباق، خرجت وجلست على الدرجات الخلفية في بِركة من ضوء شرفة المدخل. لم يكُن يوجد بعوض يطاردني في ذلك الوقت من العام، ولا خفافيش تصطاده. لم يكُن يوجد شيء يدفعني إلى العودة إلى الداخل، سوى فكرة عودة الضابط كولمان.

لم أكُن أريد رؤيته. لم أكُن أريد التحدث إليه عن توبي أو بيتي أو أي شيء آخَر.

كنت أكره فكرة أنَّ أبي وأمي قد يضطران إلى الجلوس عند طاولة المطبخ أمام شُرطي، والكذب عليه.

ولم أكُن أرغب بالطبع في مشاهدته وهو يفتش الحظيرة.

لكنَّ التفكير في ذلك ذكَّرني بكل الأشياء التي كنت قد أخذتُها إلى هناك.

والأشياء التي ربما كانت ما تزال موجودة في علية التبن.

أحصيتها على أصابعي.

كان والدي قد استعاد البرطمانات والملاءات وأغطية النوم، ومقص أمي، والمنشفة، والصابونة وما إلى ذلك. وقد دفن ملابس توبي القديمة في برميل حرق النفايات، تحت كمية هائلة من رماد متراكم طوال شهر كامل.

وكان توبي قد ترك الكاميرا معنا.

وأعاد معطف جدي وقفازه.

وأخذ بنادقه.

لكني كنت أعرف أنني غافلة عن شيء ما. ملعقة شاردة يا تُرى؟ أم برطمان مربى؟

وعندئذٍ تذكرتُ.

كانت رواية «جزيرة الكنز» ما تزال في الحظيرة.

إذا وجدوها، يمكنني القول إنني أنا مَن كنت أقرؤها في العلية. ولكن كان من الأفضل ألَّا يجدوها أصلًا.

كنت أعرف طريقي إلى هناك جيدًا دون مشكاة أو مصباح يدوي، وكنتُ بارعة في الركض وسط الظلام؛ لذا انطلقتُ إلى هناك فورًا دون تردُّد.

نَبَحَت عليَّ الكلاب المستلقية في كوخ الحطب، لكنها لم تُكلِّف نفسها عناء القيام من أسِرَّتها. وكانت الدجاجات كلها نائمة تمامًا في أعشاشها، بينما كنت أركض مسرعةً بجوارها. سقطت بعض أوراق الأشجار خلال الهواء المظلم، لكن ذلك لم يفزعني. ولم يُبطئني غياب ضوء القمر.

قلت وأنا أتسلل إلى داخل الحظيرة من خلال بوابة حجيرات الخيول: «مرحبًا يا بيل. مرحبًا يا دينا.»

قلَّدتُ صوت الأبقار بهدوءٍ بينما كنتُ مارَّةً بجوارها، لأطمئنها بأنني أنا الوافدة، ثم صعدتُ الدرج مسرعةً ووصلتُ إلى الجرن.

وعندئذٍ توقفت.

فتحت فمي لأسمع بوضوح أكبر.

كان يوجد صوت شيء ما.

صرير الحظيرة كدأبِ الحظائر القديمة.

لا، صوت شيء آخَر.

جرذ كان ينبش في مهاد التبن على مقربة منِّي.

ناديتُ هامسة: «مرحبًا؟»

سقطت ساقُ تبنٍ من الأعلى مُنجرفة مع الهواء.

فنظرتُ ورأيتُ هيئة شخصٍ غير واضحة الملامح في العلية.

«توبي؟ هل هذا أنت؟»

رجوتُ أن يكون هو. ورجوت ألَّا يكون هو. ولكن عندما نطق اسمي، انتابني شعور بالارتياح طغى على أيِّ شعور آخَر.

«رباه، ما الذي تفعله هنا مجددًا يا توبي؟» صعدتُ السلم بسرعة إلى العلية، وأشرت له بالابتعاد عن الحافة. «كدتَ تقتلني من الفزع. هل عدتَ إلى الأبد؟ هل ستبقى رغم كل شيء؟»

كان يرتدي معطفه وقبعته، وبدا مجددًا، خصوصًا في الظلام، كأنه شخصية من قصة خيالية.

قال: «ليس إلى الأبد. بل دقيقة واحدة فقط.»

قلت: «دقيقة واحدة فقط؟» شعرتُ بمزيجٍ من الحيرة وخيبة الأمل، وكانت هذه هي حالتي طَوال الوقت تقريبًا آنذاك. فما دام قد عاد، لماذا ينوي الرحيل مجددًا؟ سألته: «هل نسيت شيئًا؟»

أومأ بالإيجاب. وقال: «نعم نسيت.»

«ماذا؟ مطواتك؟» تذكرته وهو يسلمها إلى أبي ليحفظها له قبل نزوله إلى تلك البئر.

قال: «لا. مطواتي بحوزتي.»

«هل تريد الكاميرا؟ إنها كاميرتك يا توبي. يُمكنني أن أحضرها إليك بسرعة، قبل أن يصل الضابط إلى هنا.»

فانتصب عندئذٍ. وسألني: «هل أبلغتِ الشرطة؟»

فقلت وأنا أسمع نبرة من الألم في صوتي: «بالطبع لا. هل تظن أنني يُمكن أن أفعل ذلك؟»

هز رأسه بالنفي.

قلت: «عمتي ليلي هي التي أبلغتهم، عندما أخبرها شقيقاي الثرثاران بما وجداه.»

جلس توبي على حزمة من التبن وخلع قبعته.

وقال: «هُم قادمون إذَن.» لم يكُن هذا سؤالًا.

قلت: «لن يأتي سوى الضابط الذي كان هنا من قبل. ولكن يا توبي، عليك أن تُصبح جوردان مرَّة أخرى أو ترحل من هنا. فهو قادم ليفتش الحظيرة وبعدها سيقرِّر ما إذا كان سيُكثف جهود البحث غدًا، بمزيدٍ من الرجال. وسيحضر أيضًا كلابًا بوليسية.»

فرك توبي يده المصابة. وقال: «وكلاب بوليسية.» لوى رقبته مطقطقًا إياها.

تنهَّدتُ. وقلت: «أعتقد أنها ستعرفك، بغض النظر عن اسمك.»

قال: «أجل. إنها تستطيع التعقب في الماء. ولو حتى في فيضان. بل وتستطيع أن تتعقَّب المرء وإن كان محمولًا.»

«لم أكُن أعرف ذلك. وأتمنى ألَّا تتمكن الكلاب من ذلك، مع أنني لا أظن أنني أستطيع حملك في كلتا الحالتين. لكنها لن تصل إلى هنا قبل الصباح إذا جاءت أصلًا؛ لذا فما يزال لديك وقتٌ للرحيل من هنا. ابحث عن شخص ليُقِلَّك بسيارته إلى أن تبتعد عن هنا. يمكنني إحضار معطف جدي مرَّة أخرى. وقفازه. سوف يوصلك شخصٌ ما، وأنا متيقنة من ذلك.»

رفع توبي يدَيه. وقال: «توقفي يا أنابل.»

فتوقفت.

أنزل يدَيه إلى حِجره.

وأدركتُ أنه لم يُجِب عن سؤالي إطلاقًا.

قلت له: «إذا لم تكُن عائدًا من أجل مطواتك، فما الذي عدتَ من أجله؟»

تمنيتُ آنذاك أن أستطيع رؤية وجهه بوضوح أكبر وسط الظلام.

قال: «عندما رحلتُ من هنا، قصدتُ الاتجاه مباشرة نحو الغرب. وقد انطلقت في ذلك الاتجاه بالفعل، ميلًا أو اثنين. لكنَّ الأمر كله كان أسرع ممَّا ينبغي.»

أمالَ رأسه إلى الوراء وابتلعَ ريقه بصعوبة. ثم أضافَ: «ظللتُ أفكِّر فيما تركته ورائي. ولذا استدرتُ ومشيتُ عائدًا إلى الكوخ. لآخذ معي بعض الصور. كان ذلك صعبًا، سواءٌ انتقاء الصور التي سآخذها أو نزعها عن الحائط.» سكت فجأةً ومرَّر ظَهر يده على جبينه.

وقال: «عدت إلى هنا لأقول لكِ وداعًا يا أنابل. كان رحيلي بالطريقة التي رحلتُ بها وقحًا.»

أعجبني رجوعه كل هذه المسافة ليودعني وداعًا لائقًا. ولكن لم يعجبني أنه كان يرى تصرفه وقحًا.

قلت وأنا أنظر إلى قدميَّ: «لستَ مضطرًّا إلى الشعور بأنك مَدين بشيء.»

رفع يده مجددًا. وقال: «لا. ليس هذا ما أشعر به.» تنهَّد. وقف على قدمَيه. واعتمر قبعته مرَّة أخرى. وأزاح بنادقه إلى أعلى كتفه. وقال: «أنابل، كنت أتمنى أن تكون عندي بنت مثلكِ.»

مدَّ لي يده وصافحتها، كما لو كنا نعقد ميثاقًا.

وبعدئذٍ نزل السلم، ومشى عبر الجرن، وخرج من البابَين الكبيرَين المفتوحَين.

خطر ببالي شيئان وأنا واقفة في تلك العلية، أحاول تذكُّر الغرض الذي كنت قد أتيتُ من أجله.

أحدهما أنَّ توبي لم يقُل وداعًا بعد كل ذلك، وأنا أيضًا لم أقُل وداعًا.

والثاني أنه كان يحمل بندقيتَين فقط.

لم أرَه من قبل إطلاقًا دون البنادق الثلاث.

تذكرت عندئذٍ ما اكتشفه والدي؛ أنَّ بندقية واحدة فقط من تلك البنادق الثلاث ما زالت تعمل، وأنَّ الأخريين قد صارتا عاطبتَين منذ أمدٍ بعيد.

لم يذكر توبي قَط السبب الذي كان يدفعه إلى حمل كل تلك البنادق الثقيلة، طَوال سنواتٍ وسنوات.

لكني كنت أعرف. كان توبي يحمل تلك البنادق بسبب ثقلها.

لكنني لم أعرف لماذا قرَّر فجأةً أن يخفِّف الحِمل.

كانت رواية «جزيرة الكنز» في انتظاري خلف حزم التبن.

قضيتُ لحظةً هناك، وظللت أبكي طويلًا حتى استطعت أن أتنفَّس مجددًا، ثم فتحتُ مصراعَي النافذة بقدرٍ أوسع، وانحنيتُ بجسدي خارجًا لأطلَّ على المرعى.

لم أستطِع أن أبلغ ببصري مسافة بعيدة، لكنَّ توبي كان أشدَّ قتامةً من عشب المرعى، وخِلتُ أنني رأيته وهو يدخل الأحراج. أو ربما لم أرَه.

لقد رحل على أي حال، ولم أكُن أتوقَّع رؤيته مجددًا.

أغلقتُ المصراعَين، وتأبطتُ الكتاب، وغادرت العلية، ثم خرجت من الحظيرة، مُتجهة نحو البيت.

الفصل الرابع والعشرون

قال هنري حين سمعني وأنا أدخل من باب المدخل، ورأى ما كنت أحمله في يدي: «عجبًا، هذه رواية «جزيرة الكنز» الخاصة بي.»

فقلت وأنا أعطيه إياها: «أجل، إنها هي.»

فقلَّبها في يده وهو يتفحصها من وجهها وظهرها. وقال: «ماذا كنتِ تفعلين بها في الخارج في ذلك الظلام؟»

فقلت وأنا أخلع حذائي: «كنت أقرأ للكلاب. لقد أعجبتها القصة، لا سيما الجزء الذي تأتي فيه شخصية «بلاك دوج» للبحث عن «بونز».»

«كم أنتِ مضحكة يا أنابل!»

كان جيمس قد خرج إلى المدخل لعله يجد شيئًا أكثر إثارة للاهتمام من مسلسل «موكب أمريكا» (كافالكيد أوف أمريكا)، الذي كان أبي وأمي يستمعان إليه خلال الأشهر الباردة. وكان صوت المذياع يصدح خارجًا من غرفة الجلوس.

قال جيمس: «مهلًا، هذه روايتي»، وانخرطا فورًا في مشاجرة على الكتاب القديم.

قلتُ وأنا أمرُّ بهما: «أنتما الاثنان تُشكلان زوجًا ظريفًا»، لكني توقفت عندما تطاير شيء ما من بين صفحات الكتاب، وسقط عند قدمي.

قال جيمس: «ما هذا؟»

فقلت وأنا أدسه في جيبي: «رسالة من الكلاب. مكتوب فيها: «اذهبا إلى الفراش.»»

قال هنري: «أنتِ مشاغبة.»

وقال جيمس: «بل اذهبي أنتِ إلى الفراش.»

قلت: «أظن أنني سأفعل ذلك.»

غسلتُ أسناني بالفرشاة وغسلت وجهي، ثم قضيتُ لحظةً أمام مرآة الحمام. كانت لحظة رائعة، لكنَّ شكلي كان كما هو دائمًا.

قلتُ «طابت ليلتكم» لأبي وأمي، وجدي وجدتي، وحتى العمة ليلي، التي كانت تعتبر مسلسل «موكب أمريكا» «مثالًا للبث الإذاعي الهادف». على عكس مسلسل «ريد سكيلتون»، ومسلسل «الظل» (ذا شادو)، مع أنها أحيانًا ما كانت تجلس في المطبخ، عند طرف الطاولة الأقرب إلى غرفة الجلوس، عندما كنا نستمع إلى مثل هذا «الهراء»، على حد قولها.

بعدما صرتُ جالسة بأمان في غرفتي، أخرجتُ من جيبي الصورة التي كانت قد سقطت من الكتاب، وتفحَّصتُها في ضوء المصباح الموضوع بجوار فراشي.

كانت الصورة مشوبة ببعض الظلال، وبخطوطٍ متعرجةٍ ناتجةٍ من إمساكها بخشونة، لكني مع ذلك استطعت رؤية سطح بِركة صيد مكسوَّة بأشعة الشمس، كما لو كنت أنظر إليها من الجسر الممتد فوقها.

في البداية لم أكُن أعرف لماذا التقط توبي صورة لتلك المياه الراكدة، أو لماذا ترك لي مثل هذه الصورة لأجدها.

ولكن عندما بسطتُ الصورة على سطح الطاولة، وميَّلتُها قليلًا فقط في ضوء المصباح، رأيت في الماء انعكاسًا ضبابيًّا للرجل المُمسِك بالكاميرا على الجسر.

كانت صورة ذاتية. من النوع الذي كان توبي يسمح بالتقاطه لنفسه. كانت تُظهِر شكله، لكن بصورةٍ غير مباشرة، متحولًا بفعلِ الماء.

لم يكُن يوجد شيء على ظهرها سوى أثر الندبة الناجمة عن اقتلاع الصورة من حائط الكوخ. ربما لو كان لديه قلم لكَتَب شيئًا ما.

بينما كنت أدسُّ الصورة تحت مرتبتي، سمعت عجلات سيارةٍ تسحق الحصى في الزقاق. وتلاها صوت بابٍ يُغلَق بقوة. وأتى من بعده صوت شخصٍ يقرع الباب بعد ذلك بلحظة.

كان الضابط كولمان قد وصل.

اهتزَّ البيت بهجرةِ كلِّ مَن فيه إلى المدخل، ودخول الشرطي الضخم، وحماس شقيقيَّ، اللذين من المؤكد أنهما، وسط هذه الجلبة، قد نسيا أنَّ توبي لم يمسسهما بأيِّ سوء من قبل.

رجوتُ أن يتذكرا ذلك قريبًا.

لم تكُن نافذة غرفة نومي مواجهة للحظيرة؛ لذا أُعفِيتُ من إغراء مشاهدة الضابط وهو يسير نحوها على ضوء كشافه، ومعه والدي بالتأكيد.

أخذتُ وقتًا طويلًا حتى استغرقت في النوم، لكني نمتُ قبل عودتهم.

نمتُ نومًا طويلًا وعميقًا جدًّا، لدرجة أنني شعرتُ بأنني إنسانةٌ غريبة على نفسي، حين أيقظتني أمي في صباح اليوم التالي. وبدا أنَّ أيًّا كان ما حلمت به في نومي تلك الليلة قد أخذني من حياتي، وظللت بضع لحظاتٍ أحاول العودة.

قالت لي أمي وأنا أفتح عيني: «كنتِ متعبة بالتأكيد.»

فقلت وأنا أتثاءب بعلو صوتي وأمد ذراعيَّ فوق رأسي: «أجل، على ما أظن. هل عليَّ الذهاب إلى المدرسة اليوم؟»

التقطَت من الأرض جوربًا مُلقًى في غير موضعه، ورمَتْه في سلة ثيابي. ثم قالت: «أظن أنكِ ستفرحين بالعودة إلى المدرسة.»

«سأفرح بذلك، حين ينتهي كل هذا.»

«انتهى يا أنابل. الجزء الذي يخصك انتهى. لن تكوني جزءًا ممَّا سيحدث تاليًا.»

لم يعجبني ما أوحى به ذلك الكلام.

جلسَت أمي على حافة فراشي.

فسألتها: «ما الذي يجري؟»

«الضابط كولمان فتَّش الحظيرة. لم يعثر على أي شيء.»

«بالطبع. فتوبي قد رحل منذ وقت طويل.» لم أخبرها بعودته، ولم أكُن متيقنة من أنني قد أخبرها بذلك أبدًا. كنت أشعر، مع وجود صورته تحت مرتبتي، بأنني كالأميرة في قصة «الأميرة وحبة البازلاء».

قالت: «نعم، لكنَّ الضابط كولمان ذهب بعدها إلى الكوخ ليتفقده مجددًا. ووجدَ شيئًا هناك بالفعل.»

تذكرتُ أنَّ توبي قد عاد إلى هناك قبل ذلك ليأخذ صوره.

أضافت أمي: «لقد ترك توبي إحدى بنادقه هناك. ومن المؤكد أنها لم تكُن موجودة هناك حين فتَّش الضابط كولمان الكوخ في المرَّة الأولى، بعد فقدان بيتي.»

فانتصبت في جلستي.

أردفَت: «لكن هذا هو الجزء الغريب حقًّا يا أنابل. البندقية التي تركها بندقيةٌ سليمة عاملة، وما تزال معبَّأة بالذخيرة. البندقية السليمة الوحيدة التي كانت لدى توبي. لقد أخذ البندقيتَين العاطبتَين الأخريَين، لكنه ترك السليمة التي تعمل. وهذا غير مفهوم إطلاقًا.»

تساءلت في قرارة نفسي، وقلتُ هل خاف من أن يضطر إلى استخدامها، إذا ألحقوا به أذًى يا تُرى. أم أنه كان يُخفِّف حمولته فحسب.

لم أقتنع بأيٍّ من الإجابتَين. ولكن لم تكن لديَّ إجابةٌ ثالثة.

كانت أمي تراقبني بفضول.

فركتُ عينيَّ لأستفيق. وسألتها: «هل ترك أي شيء آخَر؟»

«لا. بل أخذ شيئًا ما في الحقيقة. بعض الصور من جدران كوخه.»

«هذا الجزء مفهوم.»

عدلَت أمي طرف بطانيتي. ثم قالت: «صاروا يعرفون الآن أنه كان في حظيرتنا في وقتٍ ما؛ لأنه ترك كاميرته وقبعته هناك. وهذا، بالمناسبة، يُمثِّل مشكلةً أخرى؛ لأنَّ القبعة لم تكُن موجودةً في الحظيرة حين فتشوها الليلة الماضية.» مررت يدَيها خلال شَعرها. وأضافت: «هذا جنون يا أنابل. إنَّ تذكُّر ما يُفترض أننا نعرفه وما يُفترض أننا لا نعرفه؛ لا يفتأ يزداد صعوبة.»

فقلت: «وهذا تحديدًا ما جعلني أخلد إلى الفراش قبل مجيء الضابط كولمان إلى هنا الليلة الماضية.»

أومأَت بالإيجاب. وقالت: «أشعر بالأسف على والدكِ. فقد اضطر إلى الذهاب إلى الحظيرة، والتظاهر بالاندهاش بأنَّ القبعة لم تكُن موجودةً حيث تركها. والآن صار الضابط كولمان مقتنعًا بأنَّ توبي ما يزال قريبًا من هنا. وهو مقتنعٌ أيضًا بأنه مضطرب. وخَطِر.»

قلت: «لكننا نعرف أنه ليس كذلك.»

«أجل. ولذا قال والدك للضابط كولمان بأنَّ بندقيتَي توبي الأخريَين عاطبتان، لئلَّا يعتبروه مسلحًا.»

قلت: «ويطلقوا النار عليه.» أرخيتُ ظهري. وأضفتُ: «أرجو أن يكون على بُعد أميال من هنا الآن.»

«وأنا أيضًا. لكنهم سيطاردونه بكلاب بوليسية.» كانت هذه الجملة الأخيرة كافية.

تصورتُ الكلاب تشد مقاودها، وتنبح باهتياجٍ مسعورٍ وهي تجرُّ ساستها عبر الأدغال طلبًا لتوبي.

قلت: «أنتِ محقة. أريد الذهاب إلى المدرسة.»

تنهَّدَت أمي. وقالت: «ليت ذلك كان ممكنًا يا أنابل. لكنَّ الضابط كولمان أصدر أمرًا بأن يلزَم الجميع بيوتهم، ويوصدوا الأبواب عليهم إلى أن يعثروا على توبي.»

فانتصبتُ في جلستي مجددًا. وقلت: «ماذا؟»

«يريدون ألَّا يتأذى أي أحد، سواءٌ بفعلِ توبي أو عن طريق الخطأ. ويريدون ألَّا يجد أي مكان يختبئ فيه.»

«لا يُمكنهم أن يوصدوا كل خُن دجاج وكل كوخ نفط، أليس كذلك؟»

«بلى لا يستطيعون، لكنهم لا يخشَون أن يأسر توبي حفنةً من الدجاج ويأخذها رهائن.»

قلت وأنا أقوم منتفضة من فراشي: «رهائن؟» ثم أضفتُ: «هم المخبولون. يا أمي، لقد بدأ كل ذلك بسبب ادِّعاء بيتي كذبًا أنَّ توبي آذى روث. وادِّعائها كذبًا أنه رماها إلى أسفل تلك البئر. الكل يتصرف بناءً على ادِّعاءاتها. هذا ليس صحيحًا. أنتِ تعلمين ذلك.»

«أنابل، يُمكنكِ أن تقفي هنا وأنتِ لا تزالين في ثياب النوم وتقولي كلَّ ما تشائين، لكني لا أعرف ما يُمكننا فعله. المسألة خارجة عن إرادتنا. بيتي لن تغيِّر قصتها. ما الذي قد يجبرها على تغييرها؟ الجميع يظنها الضحية. وأنا لا أستطيع لومهم على ذلك في الحقيقة. فهي تبدو كأنها ضحية بالفعل. وتوبي يبدو شريرًا، سواءٌ ما إذا كان كذلك أم لا.»

«إذَن، سنكتفي بالجلوس هنا في المنزل خلف الأبواب الموصدة، وننتظر أن يقبضوا عليه؟»

«أجل مع الأسف. النساء والأطفال يبقون في الداخل. والرجال يشاركون في المطاردة.»

لم أكُن أعرف ما إنْ كنت قادرة على تحمُّل مفاجأة بشعة أخرى أم لا.

فسألتها متخوِّفة: «الرجال يشاركون في المطاردة؟ أتقصدين أنَّ أبي مضطر إلى الذهاب ومطاردة توبي؟»

أومأت أمي بالإيجاب. وقالت: «ليس مضطرًّا إلى ذلك في الحقيقة. لكنه هو مَن أصرَّ على أنَّ توبي ليس مسلحًا. ربما يكون خطرًا، ولكن ليس بقدرِ خطورته لو كانت لديه بندقية سليمة. ولهذا يطلبون من كل رجلٍ بالغ الانضمام إليهم. فنحن أدرى بهذه الأدغال من أفراد الشرطة، وستستغرق الكلاب البوليسية وقتًا طويلًا في الاستكشاف قبل أن تعرف المسار الصحيح. لذا ففي هذه الأثناء، يوجد عدد قليل من أفراد الشرطة وجيشٌ من المتطوعين، يحملون صفارات بدلًا من البنادق. لا أحد يريد أن تصل المسألة إلى إطلاق النار. ولا أحد يريد أن يضع توبي يدَيه على سلاح سليم.»

«صفارات؟»

«لكي يبلغ بعضهم بعضًا إذا رأوه.»

حاولت تصوُّر الوضع. حفنة من المزارعين يحملون صفارات.

كنت متيقنة من أنَّ قلة منهم على الأقل سيُسلحون أنفسهم بشيء أقوى، بغض النظر عمَّا قاله الضابط.

فقد كنتُ أسمع في كل عام عن صائد غزلان أطلق النار على رفيقه بالخطأ؛ لذا كان من السهل أن أتخيَّل ما يُمكن أن تئول إليه مطاردة كهذه.

قلت: «أنا سعيدة لأنَّ جيمس وهنري أصغر سنًّا من أن ينضما. وكذلك الأولاد على شاكلة آندي، الذين كانوا سيُطلقون النار على أي شيء يتحرك أمامهم.»

«وجدُّكِ أيضًا؛ فهو أكبر سنًّا من أن يستطيع فعل أي شيء سوى الجلوس في شاحنته مع دورق قهوة حافظ للحرارة.»

أخرجتُ بنطالًا وسترة من خزانة ثيابي. وقلت: «ربما ينبغي أن يربطوا العمة ليلي بمقود، ويجعلوها تشم أحد قفازي توبي.»

فقالت أمي وهي تحاول كبح ابتسامتها: «اصمتي يا أنابل.»

وصمَتُّ آنذاك، لأستمع إلى صدى ما قد قلتُه للتو.

قلت: «أتعرفين ... ينبغي أن نخفي معطف جدي. المعطف الذي كان توبي يرتديه. والقفاز أيضًا. فرائحتهما ستكون كرائحته تمامًا.»

ابتسمت أمي هذه المرة. وقالت: «هل تظنين أنَّ الكلاب البوليسية ستصل إلى حجيرة المدخل في منزلنا؟»

هززتُ كتفي. وقلت: «مَن يعرف؟ ربما يحدث ذلك. فالكلاب البوليسية تستطيع التعقُّب خلال الماء. وحتى الفيضانات. ويمكنها أن تشم أثر المرء حتى وإنْ لم يكن ملامسًا للأرض، وكان محمولًا على ظهر شخصٍ آخَر.»

«كيف تعرفين ذلك؟»

«توبي أخبرني.»

عبست أمي. وقالت: «كيف عرف ذلك يا تُرى؟»

«لا أعرف، لكنه كان في مطبخنا يوم أمس للتو؛ ولذا فأثرُ رائحته ممتدٌّ من الكوخ الذي كان يسكنه إلى الحظيرة، ثم إلى المنزل، ومنه إلى الحظيرة مجددًا ثم بعيدًا إلى داخل الأحراج.»

نهضت أمي. وقالت: «سحقًا. الوضع يصبح أسوأ وأسوأ.»

لم يقُل أيٌّ منا شيئًا آخَر بينما كنت أرتدي ثيابي. وأمشط شَعري بالفرشاة. وأبدأ ترتيب فراشي. ثم قلت أخيرًا: «سيكتشفون ذلك. سيكتشفون أنَّ توبي كان هو جوردان.»

فقالت أمي: «أتظنين ذلك؟» سوَّت غطاء سريري. وأضافت: «أعتقد أنهم سيكتشفون ذلك. إذا جاءت الكلاب البوليسية إلى باب بيتنا. لكنَّ أثر الرائحة الأحدث يمتد من الحظيرة ويبتعد إلى وسط الأدغال. لذا من المفترض ألَّا تقترب الكلاب من المنزل.»

فقلت: «ما زلتُ أنوي إخفاء معطف جدي وقفازه هنا في خزانة ثيابي.»

قالت: «حسنًا. أظن أنَّ ذلك لن يُحدِث أي ضرر.»

ونزلنا نحن الاثنتان إلى الطابق السفلي، لنبدأ أحد أغرب الأيام التي قضيناها على الإطلاق، محبوستَين داخل البيت كأننا سجينتان.

الفصل الخامس والعشرون

ماتت بيتي جلينجاري في الساعة العاشرة وثماني عشرة دقيقة من صباح ذلك اليوم.

لم نعرف ذلك إلَّا بعدها بساعة.

كان هنري هو مَن رد على الهاتف.

قال وهو يمد سمَّاعة الهاتف إلى أمي: «إنها السيدة جريبل.»

أخذت أمي السماعة، واضعةً يدها على الجزء المخصص للفم. وقالت: «ماذا تريد؟»

قال هنري: «لا أعرف. ربما يكون لديها مكالمة لكِ، لكنها لم ترِد أن توصلها مباشرة.»

وضعت أمي السماعة على أذنها، ومالت بوجهها نحو الجزء المخصص للفم. وقالت: «مرحبًا يا آني؟»

استطعتُ سماع صوت السيدة جريبل، لكني لم أتبيَّن ما كانت تقوله. مجرد تمتمة، أعلى من المعتاد؛ بدت في عجلة من أمرها لكنها غير متلهفة، كدأبها دائمًا عندما يكون لديها خبرٌ ما.

استمعت أمي إليها لحظةً ثم شهقت فجأةً، وطارت يدها الأخرى إلى خدها.

قالت: «آه، كلا. ولكن كيف يُعقَل ذلك؟ وا أسفاه! كيف يُمكن ذلك؟»

لم تكُن أمي بكَّاءة، ولم تبكِ آنذاك، لكن النظرة التي خيَّمَت على وجهها كانت أسوأ من الدموع.

حسبتُ أنَّها سمعت خبرًا بمقتل توبي.

شعرتُ بأنَّ جسدي صار ساخنًا وباردًا جدًّا في آنٍ واحد. كان هنري واقفًا بالقرب منِّي. كانت رائحته أشبه برائحة شراب القيقب والكلاب. كنت أرغب بشدة في تبادل الأدوار معه.

قالت أمي بصوت متقطِّع: «سأخبره. إنه في الخارج هو وجون مع الكلاب البوليسية، لكني سأخبره حين أراه. سأفعل يا آني. شكرًا لكِ على إخبارنا. إلى اللقاء.»

أعادت أمي تعليق السماعة ببطءٍ على حاملها.

سألتُها: «هل مات؟»

فقالت وهي تستدير لتنظر إليَّ: «لا. بل بيتي التي ماتت. ماتت من العدوى. استشرَت في كل أجزاء جسدها ولم يستطيعوا إيقافها.»

وجلست في أقرب كرسي.

اقتربَ هنري مني شِبرًا. استطعتُ سماع صوت أنفاسه.

قال جيمس وهو يدخل راكضًا من حجيرة المدخل، حيث كان يصنع سيفًا من الورق المقوَّى: «مرحبًا. ألا تريد أن تلعب لعبة القراصنة معي يا هنري؟»

قال هنري: «بالتأكيد. حالًا. ولكن دعنا أولًا نذهب للعثور على جدتي. أظن أنها تحتاج إلى أن نساعدها في شيء ما.»

نظر إليَّ نظرة طويلة، كأنه يراني للمرة الأولى، ثم خرج من الغرفة، وتبعه جيمس كظِلٍّ صاخب. قال له جيمس: «شيء مثل ماذا؟ هل تحتاج منا أن نحمل لها شيئًا ما؟ يا هنري، هل تريدنا أن نحمل شيئًا ما؟»

ظلَّ صوت الصبي يبتعد شيئًا فشيئًا.

جلستُ على الأرض ووضعتُ رأسي في حِجرها.

فملَّسَت على شَعري كما لو كنت قطة.

كانت إحدانا ترتجف. وربما كلتانا.

قلت: «كان بإمكاني أن أعثر عليها في وقتٍ أبكَر.»

توقَّفَت يدها تمامًا عن الحراك.

وقالت بنبرة صارمة: «إياكِ أن تفعلي ذلك.»

ثم دفعَت رأسي عن حِجرها، وانحنت لتنظر إليَّ في عينيَّ مباشرة.

قالت لي بنفاد صبر: «هل تظنين أنكِ الرب؟ هل تظنين أنكِ تتحكمين في مجريات الأمور؟ حسنًا، هذا ليس صحيحًا. ومن الغرور أن تظني ذلك.»

ذهلتُ جدًّا لدرجة أنني لم أجِد شيئًا لأقوله.

«بيتي ماتت، وهذا شيءٌ بشع. «بشع». لكنكِ لستِ مَن فعلتِه يا أنابل.»

أسندت ظهرها. وأضافت: «بل لولا أنكِ أرشدتِهم إلى تلك البئر، لماتت وهي قابعة هناك، وحيدة وخائفة. وربما ما كنا لنعثر عليها إطلاقًا.»

تخيَّلتُ بيتي قابعة في البئر المروعة الباردة المظلمة، بإصابتها البالغة. تخيَّلتُ أنها تحتضر، وحدها تمامًا.

تصوَّرتُ شخصًا يأتي إلى تلك البئر، بعد سنوات، ويملؤها بالتراب، فيدفن عظامها عميقًا في تلك البئر التي ستكون قبرها بمحض المصادفة.

قالت أمي وقد فتحت ذراعَيها: «تعالي.»

كانت دافئة.

قالت: «أحيانًا ما تسير الأمور على ما يُرام. وأحيانًا لا يحدث ذلك.»

سمعتُ صدى توبي في صوتها. صدى شيء قاله ذات مرَّة. شيء عن الشعور بالذنب أو اللوم.

بكَتْ جدتي حين سمعت الخبر. بغض النظر عن أنها لم تكُن تعرف بيتي.

وبكيتُ أنا أيضًا؛ فمنظر دموعها وصوتها أثارا دموعي.

أمَّا جيمس، فلم يبكِ. إنما ضحك عندما سمع بموت بيتي.

قال وهو يلوح بسيفه فوق رأسه: «لا تكوني سخيفة.»

أخذت أمي بعض الوقت لتقنعه بجسامة الأمر، ثم أصبح جادًّا جدًّا، وذهب مع هنري ليصنعا بطاقة مكتوبًا عليها مواساة لآل جلينجاري.

وبينما كانا يغادران الغرفة، استدار هنري في المدخل. وسألني: «هل تريدين المجيء معنا؟»

باغتتني الطريقة التي قال ذلك بها، والطريقة التي نظر إليَّ بها. قلت: «سأكون جاهزة في غضون دقيقة.»

قالت أمي: «طلبت مني آني جريبل أن أخبر العريف بما حدث لبيتي إذا رأيته.»

قالت جدتي وهي تجفِّف عينَيها: «يُمكنكِ أن تكوني متيقنة من أنَّ جميع مَن في المقاطعة سيعرفون ذلك قبل أن يعرفه هو. آني ستحرص على ذلك.»

قالت أمي بهدوء: «إنها تصفها بأنها «جريمة قتل».»

توقفت جدتي عن البكاء. وقالت: «إنها هكذا بالضبط. إذا صحَّ أنَّ توبي قد دفع تلك الفتاة المسكينة في بئر، فهي هكذا بالضبط.»

تشبثتُ بكلمة «إذا» بكلِّ قوتي، لكني كنت أعرف أنَّ معظم الناس ليسوا صبورين كجدتي.

فهي ربما كانت مستعدةً للانتظار حتى التيقُّن من ذلك، لكني لم أكُن واثقةً من وجود صبرٍ كهذا لدى العريف، أو الشرطة، ناهيك عن آل جلينجاري بالطبع.

ارتأيتُ أنَّه إذا كانت مساعدة توبي مهمة من قبل، فقد صارت أهم من أي وقت مضى. فالآن قد زادت احتمالية إطلاقهم النار عليه. أو ربما سيقيِّدونه بكرسيٍّ كهربائي ويصعقونه حتى يفارق الحياة.

دعوتُ الرب أن يكون توبي قد ترك هاتَين البندقيتَين القديمتَين أخيرًا، ورمى معطفه وقبعته، واستعار معطفًا وقبعة آخَرين من بيت غير موصَد، ووصل إلى طريقٍ ما لعله يصادف سائق شاحنة كريمًا يُقِلُّه ويأخذه إلى أوهايو، أو ربما أبعد، ثم يُنزله هناك فيستقر ويبدأ حياة جديدة.

لكني لم أظُن أن يكون قد فعل ذلك.

لم أكُن متيقنة حتى من أنه قد ترك تلك التلال بعد. فهو لم يكُن يبدو خائفًا على الإطلاق. كل ما كان يشعر به هو الحزن على اتهامه بشيء لم يفعله، والتعب من عبء ما فعله، لكن لم يبدُ أنه يرغب في فعل أي شيء يُذكَر حيال أيٍّ من هذَين الشعورَين. ربما كان مقتنعًا بأنَّه لا يستطيع فعل شيء.

شعرت كأنني أختنق.

ظللت أتمشى جيئة وذهابًا من نافذة إلى الأخرى، مثلما كان جيمس يفعل في عشية كلِّ عيد ميلاد مجيد، ورغم أنه لم يكُن يرى أي شيءٍ سوى انعكاس صورته في الزجاج المُعتم، فإنه يبقى موقنًا من أنَّ «بابا نويل» موجود في الخارج في مكانٍ ما، وهو آتٍ بسرعة نحو مزرعتنا.

بدلًا من «بابا نويل» كنت أنظرُ بحثًا عن مزارعين بصفارات، أو شرطيين ببنادق، ولكن لم أرَ أي أحد.

كان الحصانان في المرعى هما أول مَن عرف بقدومِ شيءٍ ما، كأنهما حارسان. رفعا رأسَيهما فجأةً، في اللحظة نفسها، وحدَّقا إلى الأحراج المؤدية إلى الأسفل نحو مُنخفَض «كوب هولو».

وسمعنا الكلاب أيضًا، حتى من خلال الأبواب والنوافذ الموصَدة، قبل أن نراها بوقتٍ طويل. لكنَّ كلابنا هي التي كانت تُحدِث كل الضجيج.

أمَّا الكلاب البوليسية، أو بالأحرى الكلبان البوليسيان لأنَّهما كانا اثنين فقط، فكانا منشغلَين جدًّا عندما ظهرا في نطاق الرؤية، حيث كانا يمشِّطان الأرض أمامهما بوجهَيهما

الطويلَين المتدلِّيَين؛ كان أحدهما متجهًا إلى الأعلى من أسفل حديقة المطبخ، والآخَر سائرًا عبر مرعى الخيول.

قالت جدتي من نافذة حجيرة المدخل: «إنهم قادمون إلى هنا. وجون معهم.»

كان معطف جدي وقفازه موجودين بالفعل في الأعلى، داخل خزانة ثيابي.

أدركت أنَّ رائحتي ستكون كرائحتهما. بالنسبة لهذَين الكلبَين، ستكون رائحتي كرائحة توبي. أو هذا ما كنت أرجوه على الأقل. هممت بالابتسام وأنا أفكِّر في ذلك. قلت لنفسي فليدخلوا. فمن سيُصدق كلبًا يخلط بيني وبين حطَّاب مجنون؟

لكني مع ذلك شعرتُ بارتياح حين ربطهما السائسان في عمودَي حبال الغسيل.

صاحت جدتي وقد التفتت إلى الوراء قائلة: «يا سارة، من الأفضل أن تُعِدِّي بعض القهوة. فنحن على وشك استقبال ضيوف.»

كان السائسان هادئَين ككلبَيهما — لم يتحدثا إلَّا قليلًا جدًّا في الحقيقة، وحتى عندما كانا يتحدثان، كان صوتهما خافتًا جدًّا — وكانت تصرفاتهما متشابهة جدًّا؛ إذ كانا ينظران في أرجاء المطبخ بفضول، ويتوقفان كثيرًا ليدقِّقا النظر في بعض التفاصيل التي يجدانها مثيرة للاهتمام.

عندما جاء شقيقاي إلى المطبخ، نظر إليهما السائسان كأنهما أرنبان. غاص جيمس أسفل الطاولة مجددًا، وشَدَّ ساق بنطال هنري لكي ينزل معه، هامسًا: «تعال يا رفيقي»، لكنَّ هنري فضَّل البقاء بجواري.

نظرتُ إليه بفضول. فبادلني النظرة، دون أن يبتسم.

كان والدي والعريف أولسكا قد دخلا مع سائسَي الكلبَين.

قال العريف: «قرَّرنا أن ننتظر هنا حتى يلحق بنا الآخَرون قبل أن نخرج مجددًا. لقد مشَّطنا المنطقة المحيطة بالكوخ بالفعل. المنطقة تعج بالكثير من الروائح لدرجة أننا ظللنا نلف في دوائر، لكنَّ الكلبَين استقرا في النهاية على هذا الاتجاه.»

لم يُكلِّف الرجال أنفسهم عناء خلع معاطفهم.

قالت أمي: «اجلسوا. لدينا خبر.»

عندما سمع العريف أنَّ بيتي قد ماتت، قال: «يا إلهي»، ودفن رأسه بين يدَيه.

أمَّا سائسا الكلبَين، فلم ينتبها إلى الخبر تقريبًا. لا بد أنهما قد مرَّا بمثل هذه المواقف مئات المرات. مواقف أطفالٍ مفقودين. ومجرمين هاربين. لا بد أنهما، بعد فترة من معايشة مثل هذه الأحداث، قد أصبحا واقعيَّين ككلبَيهما ولا يركِّزان إلا على المطاردة.

لقد حُرِما من فرصة العثور على فتاة مفقودة. وسيفعلان كل ما بوسعهما للعثور على قاتلها.

جال والدي ببصره من أمي إليَّ، وكانت عيناه مليئتَين بالأسئلة. وكأنَّ لسان حاله يقول «ماذا ينبغي أن نفعل الآن؟» «كيف يُفترض بنا أن نعرف ما ينبغي أن نفعله الآن؟»

أنا أيضًا لم أكُن أعرف ما ينبغي فعله. لكني كنت أعرف أنني لا يُمكن أن أبقى دقيقة أخرى دون أن أفعل شيئًا. كنت أعرف أنني لا يُمكن أن أكبرَ وأعيشَ حياةً طويلة، وأنا أعلم أنني لم أفعل ما كان بوسعي. فورًا. قبل أن يفوت الأوان مجددًا.

تسللت إلى خارج المطبخ ودخلت غرفة الجلوس، تاركة البقية يحاولون معرفة خطواتهم التالية.

أمَّا أنا، فخطواتي التالية كانت واضحة، لكني وقفتُ في هدوء بضع لحظات لأقلِّبها في رأسي، وأنا أتخيَّل نفسي لا أفعل ولا أقول إلَّا ما فكرتُ في فعله أو قوله.

رأيتُ أنني، مهما فعلت، لن أجعل الوضع أسوأ إطلاقًا مما هو عليه.

أغلقت الباب الواصل بين المطبخ وغرفة الجلوس بحرص.

التقطتُ سماعة الهاتف، وأدرتُ ذراعه بأقصى هدوء ممكن.

قلتُ بنبرة خافتة في الجزء المخصص للفم: «السيدة جريبل؟»

فقالت: «سارة؟»

«لا، أنا أنابل يا سيدة جريبل. هلَّا توصليني بآل وودبيري من فضلك؟ الأمر مهم جدًّا.» كنت أعرف أنَّ ذلك سيثير شهيتها الفضولية.

«أنابل، هل تعرف أمكِ أنكِ تستخدمين الهاتف؟»

فقلت: «بالطبع. هل تريدين محادثتها لتتيقني بنفسك؟ إنها تساعد جدتي في بعض المهام المنزلية الآن، ولكن يُمكنني إحضارها إليكِ إذا أردت. لكن يجب أن نُسرِع. فالأمر في غاية الأهمية.»

حبست أنفاسي.

سمعتُ نبرة الترقُّب في صوتها وهي ترد قائلة: «حسنًا. أيُّ آل وودبيري تريدين؟»

لم يخطر ببالي سؤال كهذا قبل أن أهاتفها. قلت: «الذين لديهم ابن اسمه آندي.»

فقالت بنفاد صبر: «كلهم لديهم أبناء اسمهم آندي.»

«آندي الصغير. ذاك الذي يدرس معي في المدرسة.»

حينها سُرِرت، للمرة الوحيدة في حياتي، بأنَّ السيدة جريبل قد كرَّست نفسها لمعرفة كل شيء عن كل شخص في هذه التلال؛ لأنَّ ذلك نفعني في هذا الموقف.

أوصلَت المكالمة.

عندما ردَّت السيدة وودبيري، تمنيتُ في قرارة نفسي أن تبقى السيدة جريبل مُنصِتةً إلى المكالمة.

قلت: «السيدة وودبيري، أنا أنابل ماكبرايد. هل لي أن أحادث آندي دقيقة من فضلك؟»

قالت: «حسنًا، إذا كنتِ تتصلين لتخبريه بما حدث لبيتي، فهو يعرف بالفعل. من المؤكد أنها كانت فتاة لطيفة، أليس كذلك؟ أسفي عليها!»

قلت: «لا، اتصالي ليس متعلقًا بهذا.» مع أنَّه كان كذلك.

قالت وهي تُعلِّق السماعة فوق الهاتف فصدرت عنه صلصلة حادة: «حسنًا، دعيني أحضره.»

كنت ممتنة لأنَّ الشرطة أصدرت أمرًا ببقاء النساء والأطفال في المنازل. فهذا جعلني متيقنة من أنَّ آندي لن يكون بعيدًا عنها.

سمعتُ صوتها تناديه. مرَّة. ثم الثانية.

وبعدها بدقيقة، قال بصوت فاتر رتيب: «مرحبًا؟»

كنت أنوي القفز إلى صميم الموضوع مباشرة، لكنَّ نبرة صوته جعلتني ألين. قلت: «آندي، معك أنابل. إنني آسفة جدًّا على بيتي.»

خيَّم سكوتٌ لحظي على المكالمة. ثم قال: «وأنا أيضًا»، فتفاجأتُ، مع أنني لم أشك قبل ذلك إطلاقًا في تعلُّقه الغريب بها. باغتَتني نبرة الحزن في صوته وكادت تشتتني عن هدفي.

فقلت ببطء وأنا أتوقف لأستجمع أفكاري مجددًا: «كنت أريد سؤالك عن شيء ما. لقد عادت إلينا للتو بعض الصور التي التقطها توبي، وإحداها تُظهِر بيتي.» جعلني نُطق اسمها أتوقف. لقد كان ذلك أصعب مما ظننت.

قال آندي: «ما علاقة ذلك بي؟» كان يبدو فضوليًّا وقلِقًا، واستطعتُ أن أستشفَّ ذلك بسهولة.

«إنها صورة لك أنت وبيتي، وأنتما واقفان على التلة المقابلة لمبنى المدرسة. كانت بيتي ترمي حجرًا على السيد أنسل الذي كان واقفًا في الأسفل.»

إذا صحَّ توقعي بأنَّ السيدة جريبل كانت تُنصِت للمكالمة آنذاك، فسأكون متيقنةً من أنَّها لن تتركها حينئذٍ، مهما كانت المكالمات الأخرى التي تنتظرها كثيرة أو مُلِحة.

استطعتُ سماع صوت أنفاس آندي، لكنه لم يقُل أيَّ شيء.

قلت: «قَول الحقيقة لن يؤذِيَ بيتي الآن.»

ردَّ آندي قائلًا: «لماذا تهتمين بذلك؟» كان واضحًا أنه ما يزال قلِقًا، لكنه صار غاضبًا أيضًا. وأضافَ: «لا يُمكن أن تعاقبيها على أنها رمت ذلك الحجر الغبي. لقد ماتت بالفعل. فما المهم في ذلك؟»

أخيرًا. كان ذلك هو أول جزء أردتُ أن تسمعه السيدة جريبل. تنفَّستُ الصعداء.

قلت: «لأنهم يظنون أنَّ توبي قتلها. هذا هو السبب. وأنت تعرف أنه لم يدفعها إلى تلك البئر.»

قال آندي بنبرة أشد حدة من ذي قبل: «لقد قالت إنه دفعها. عندما نقلوها إلى المستشفى، قالت إنه دفعها.»

فقلت: «وقالت من قبل أيضًا إنه رمى ذلك الحجر، وهذه كانت كذبة. لقد اعترفتَ بهذا بلسانك للتو.»

««هذا لأنها كانت خائفة». لم تكُن تقصد إيذاء روث.»

أغمضتُ عينيَّ. وقلت لنفسي «أرجو. أرجو أن تكوني مُنصِتة.»

قلت: «آندي، أعرفُ أنك كنت تحب بيتي. لكنك أنت مَن قلت إنها نزلت إلى الكوخ لتزعج توبي، لدرجة أنها كانت تفكِّر في إحراق الكوخ لإجبار توبي على الرحيل. لماذا لا يُمكنك أن تعترف بأنها سقطت في تلك البئر بالخطأ؟»

«وما جدوى ذلك؟ ما الفارق إنْ كانت قد سقطت بالخطأ؟ إنها هي التي ماتت، في حين أنه أفلت بلا أي عقاب أو ضرر.»

فقلت وأنا أحاول إبقاء صوتي منخفضًا: «لكنهم الآن يظنونه قاتلًا! وسيقتلونه.»

قال بهدوء: «أتمنى أن يفعلوا ذلك. أتمنى أن يقتلوه مرتَين.»

«آندي، لا يُمكن أن تتمنى ذلك.»

ردَّ بإنهاء المكالمة.

ثم سمعت السيدة جريبل أيضًا تُنهي الاتصال.

وضعتُ السماعة في موضعها مجددًا، وجلستُ على الأرض أرتجف من شدة الإرهاق.

جاءت أمي تبحث عني بعد ذلك بلحظات. قالت لي: «مَن الذي كنتِ تحادثينه هنا؟ هل أنتِ على ما يُرام يا أنابل؟»

فقلت: «أشعر بأنني لستُ بخير. هل يُمكنني الذهاب والاستلقاء على الفراش؟»

وضعت يدها على جبهتي. وقالت: «لستِ مُصابة بالحمى.»

قلت: «لستُ مريضة. أشعر أنني لست بخير فحسب.»

فقالت: «اذهبي إذَن.» ثم مدَّت يدها لتساعدني للوقوف على قدمي. وأضافت: «الرجال خارجون مجددًا مع الكلبَين البوليسيَّين.»

عندما وقفت، وضعَت ذراعَيها حولي وأسندت ذقنها فوق رأسي.

قالت بنبرة وديعة: «سينتهي هذا قريبًا. بأي طريقة.»

الفصل السادس والعشرون

سرعان ما نشرت السيدة جريبل هذا الخبر الثاني.

صحيح أنَّ الناس كثيرًا ما كانوا يشتكون من تنصُّتها، ويقسمون أنهم لا يصغون إلى نميمتها، لكن القصص التي كانت تنشرها كانت تثبت صحتها على الدوام (باستثناء إحدى المرات في يوم كذبة أبريل، حين أعطاها شخصٌ ما حكايةً زائفة عن عربة قطار مليئة بمجموعة من الغجر ينصبون مخيمًا في بلدة بوكتاون)، وشاع وصفها آنذاك بأنها مُنادية المقاطعة.

وهكذا، بحلول وقت العشاء، صار الجميع يعرفون أنَّ توبي ليس مسئولًا عن فقدان روث لعينها. وأصبح البعض يشك في صِدق ادِّعاء بيتي بأنَّه دفعها في البئر. لكنَّ الشك وحده لم يكُن كافيًا.

قال العريف: «يحق لأيِّ هيئة مُحلفين أن تشك إذا شاءت. ولكن تظل الشرطة مُلزَمة بالعثور على الرجل.»

كان جالسًا في مطبخنا مع والدي وجَدِّي، وحتى جيمس، الذي كان جالسًا إلى الطاولة وليس تحتها للمرة الأولى في حياته.

كانت الكلاب قد قادت فريق البحث إلى داخل الحظيرة ثم إلى خارجها، وبعدئذٍ عبر المراعي وحول المنزل، ثم إلى آخِر الزقاق وعادت إلى أوله مرَّة أخرى، وبعدها إلى داخل الأدغال والبساتين، قبل أن تستقر أخيرًا على مسار يمتد بعيدًا عن تلالنا، غربًا، نحو أوهايو، التي لم تكُن بعيدة جدًّا عنَّا.

تعقَّبت الكلابُ الرائحةَ ميلَين، أو ربما أكثر، ثم أعلن الضابط كولمان أنَّ هذا أثر مؤكَّد، ومن المستبعد أن ينقلب في الاتجاه المعاكس.

قال أبي وهو يحكي ما حدث: «عندئذٍ صَرَفنا وطلب منَّا العودة إلى المنزل. ما يزالون يتعقبون الأثر، وسيظلون هكذا إلى أن يتلقوا عونًا من المزيد من الكلاب والرجال.»

كان العريف أولسكا يبدو منهكًا، وغير آسفٍ إطلاقًا على انتهاء دوره في عملية البحث. قال: «من المؤكد أنهم سيدركون توبي في غضون يوم أو اثنين، إلَّا إذا وجد سيارة تُقِلُّه.»

فسأله والدي: «هل تظن أنهم سيدخلون أوهايو لمواصلة تعقُّبه؟»

«أجل، أظن ذلك، أو سيُسلمون زمام المسألة إلى شرطة أوهايو. ولكن عندما يسمعون نشرة آني الأخيرة — وسيسمعونها حتمًا، إنْ لم يكونوا قد سمعوها بالفعل — سيكونون مستعدين للتنحي قليلًا عن المطاردة.»

استدار لينظر إليَّ. وقال: «أظن أنَّ تنصُّت السيدة جريبل على تلك المكالمة التي أجريتها مع آندي كان مفيدًا.» لم يكُن مبتسمًا وهو يقول ذلك، لكنه لم يكُن موبِّخًا أيضًا. وأضاف: «أستطيع تخيلها وهي تفعل ذلك.»

فقال والدي لي: «أمَّا أنا، فأتخيَّلك و«أنتِ» تفعلين ذلك.»

قلت له: «هل أنت غاضب؟» كنت مستعدة لتقبُّل غضب الناس مني، مع أنَّ ذلك لم يكُن مهمًّا كما كان من قبل.

قال أبي: «لستُ غاضبًا.»

وقال جدي: «وأنا لستُ غاضبًا إطلاقًا.» ابتسم لي من طرف الطاولة الآخَر الذي كان قاعدًا عنده. وأضاف: «فالنباهة وروح المبادرة خصلتان جيدتان، إذا أردتِ رأيي.»

قالت أمي وهي تزلق مقلاةً من شرائح لحم الخنزير إلى داخل الفرن: «والاجتهاد أيضًا. يا أنابل، هذه الجزرات لن تُقشِّر نفسها.»

فقال هنري وهو يقوم من كرسيه: «سأقشرها أنا.» لم ينظر إليَّ وهو يأخذ مكاني المعتاد عند الحوض، لكني كنت أعرف أنه كان يراني على أيِّ حال. كان لدينا اليدان ذاتهما. والأصابع الطويلة ذاتها. وكنا نمسك السكين بالطريقة ذاتها.

قال جيمس: «كيف لهنري أن يساعد وأنا لا؟»

فقالت له أمي: «أنت محق تمامًا.» وأعطته قِدرًا صغيرًا. وقالت: «يُمكن أن تبدأ بوضع كوب من الحليب في هذا القِدر.»

دخلت العمة ليلي المنزل آنذاك بالضبط لترى هنري وجيمس يساعدان في إعداد العشاء، بينما كنتُ أنا جالسةً إلى الطاولة مع الرجال.

قالت: «هل أنا في المنزل الصحيح؟» خلعت معطفها وعلقته في خزانة غرفة الوحل. وسألتني: «أنابل، هل شُلَّت ساقاكِ؟»

فقال لها والدي وكأنها حصانة هائجة: «اهدئي يا ليلي. لقد كان يومًا طويلًا.»

فقالت: «وكأنني لا أعرف ذلك بالفعل. هل لديك أي فكرة عن عدد الرسائل والطرود التي تأتي عبر مكتب البريد ذاك؟ من العجيب أنَّ الناس يستطيعون إنجاز أي شيء آخَر هنا، مع كل هذه الرسائل التي يكتبونها.»

صبَّت لنفسها فنجانًا من القهوة وجلست إلى الطاولة في مكان أمي.

كنت أظن أنَّ خبر موت بيتي قد فاتها بطريقة ما؛ ولذا أخبرتُها. «بيتي جلينجاري ماتَت صباح اليوم، يا عمتي ليلي.»

فقالت: «سمعتُ هذا بالفعل من عشرة أشخاصٍ على الأقل اليوم. فأنا لا أعمل في مكتب بريد تمبكتو. إنْ كان يوجد شيء كهذا أصلًا.»

أردتُ أن أرميها بشيء. قلت: «كنت أظن أنكِ ربما لا تعرفين.»

«لماذا، لأنني لا أشهق وأتعرض للإغماء ككل السُّذَّج الآخَرين؟» نظرت إليَّ من فوق نظارتها. وأضافت: «الرب يُسيِّر الدنيا بطُرُق غامضة يا أنابل. لديه أسبابه التي لا نعرفها.»

دخلت جدتي المطبخ في تلك اللحظة ذاتها وسمعت ذلك. فقالت: «أسباب لماذا؟»

«لأخذِ بيتي إلى دارها الأبدي.»

هزت جدتي رأسها. وقالت: «لا أعرف من أين لكِ بهذا القلب الجامد يا ليلي.»

«ليس جامدًا. لكنه ليس ليِّنًا أيضًا. يوجد هنا من القلوب اللينة ما يكفي وزيادة بالفعل.»

ارتأيتُ أنني إن استمعت إلى العمة ليلي دقيقةً أخرى، فسأتحول إلى حجر. فقلت: «بما أنَّ الولدَين يساعدان في إعداد العشاء، فهل لي أن أصعد إلى غرفتي بعض الوقت؟»

قالت أمي: «لوقت قصير. سأناديكِ حين أحتاج إليكِ.»

قال جيمس: «أستطيع تهيئة الطاولة.»

فقالت جدتي بنبرة مُدلِّلةٍ حنونٍ وهي تنكش شَعره: «بالطبع تستطيع. مَن قال عكس ذلك؟»

صعدتُ إلى غرفة نومي، ومن هناك، كنت أسمع الآخَرين في الطابق السفلي. صوت القدور والمقالي. أطباق وأدوات مائدة. أصوات أشخاص. واحتكاك الكراسي بالأرض.

كل ذلك جعلني أشد شعورًا بالوحدة.

تبيَّن لي بعدما استدرجتُ آندي إلى الاعتراف، على أمل أن تكون الشرطة أكثر تساهلًا مع توبي إذا قبضوا عليه، أنَّ ذلك لم يُجدِ نفعًا كبيرًا.

أخذتُ معطف جدي من خزانة ثيابي، وارتديتُه منزلقًا على جسدي بكل سلاسة. كان يَسع داخله شخصَين بحجمي.

استلقيتُ على فراشي، وطويتُ ركبتيَّ داخل المعطف، وغرقت في نوم عميق.

لم أسمع أمي وهي تدعوني إلى الأسفل لأتعشى.

ولم أسمعها وهي تفتح باب غرفة نومي، وتطفئ النور.

ولم أشعر بها وهي تشد الغطاء على جسدي.

ولم أستيقظ بعدئذٍ في تلك الليلة على صوت رنين الهاتف.

ولأنني نمتُ في مثل هذا الوقت المبكر، فقد استيقظتُ قبل الآخَرين كلهم تقريبًا بوقتٍ طويل.

وجدتُ أمي في المطبخ، تُحضِّر القهوة، لكني لم أجد أحدًا مستيقظًا سواها. كانت الدنيا مظلمة خارج النوافذ.

وقفتُ أتأملها بُرهةً. كانت تبدو مختلفة، غير داريةٍ بوجود أحدٍ غيرها، كانت متجهة بذاتها إلى الداخل، مثلما كنتُ أنا على الممشى عندما التقط توبي صورة لي.

خَطَر ببالي أن أعود إلى الفراش قبل أن تراني.

ربما كان الحزن البادي عليها، مع أنني لم أكُن أرى وجهها، هو الذي حثَّني على أن أعود إلى فراشي، بسرعة، لعلِّي أحظى بساعة أخرى — أو ربما اثنتَين — قبل أن أعرف سببه.

كنت ما أزال مكتسية بثيابي التي كنت أرتديها في اليوم السابق، وكنت ما أزال مرتدية معطف جدي.

ولا بد أنَّني بدوتُ سخيفة جدًّا عندما استدارت نحوي، مُمسكة بكوب من القهوة، وتوقفَت بَغتة فاندفعت القهوة إلى حافة الكوب وانسكبت على الأرض.

قالت وهي تمد يدها لتلتقط خِرقة: «أنابل، لقد أفزعتني. ما الذي أيقظك في هذا الوقت المبكر جدًّا؟»

«لم أعُد أستطيع مواصلة النوم.» جلست إلى الطاولة. وسألتها: «هل وجدوا توبي بعد؟»

فقالت: «هل سمعتِ رنين الهاتف؟»

هززتُ رأسي بالنفي، وأنا أشعر بقلبي ينقبض. وسألتها: «مَن الذي اتصل؟»

غسلت أمي الخرقة، وقعدَت أمامي على الجانب المقابل. ثم وضعت كوبها على الطاولة بحرص.

قالت: «اتصل العريف. كان قد تلقَّى خبرًا من الضابط كولمان للتو، وارتأى أننا قد نريد معرفة ما حدث.»

لم أكُن أدرك كَم كانت أمي جميلة، حتى رأيتُها في تلك اللحظة وهي تستجمع قواها لتخبرني بأنَّ توبي قد مات.

أبقيتُ يديَّ داخل كُمَّي معطف جدي، بينما كانت تحكي لي أنهم لحقوا به قُبيل الحدود المؤدِّية إلى أوهايو مباشرة، حيث كان نائمًا تحت جسر نهر ماهونينج.

أخبرَتْني بأنَّ الكلاب البوليسية، عندما وصلت إليه، استلقَت وسط أوراق الشجر المتساقطة على طول حافة النهر، ولم تهتمَّ بالرجل نفسه، الذي نهضَ واقفًا عندما صاح أفراد الشرطة مُنادين باسمه.

قالت إنه ربما أراد أن يكون واقفًا على قدمَيه عندما يحين الجزء التالي؛ لأنهم عندما أمروه بأن يستلقي مجددًا على وجهه ويضع يدَيه خلف ظهره، رفض.

وعندما أشهروا مسدساتهم وأمروه بذلك مرَّة ثانية، حرَّك إحدى بندقيتَيه الطويلتَين بسرعةٍ من على ظهره ليُشهرها، فأطلقوا النار عليه.

قالت بهدوء: «لم يكونوا يعرفون أنَّ بندقيته عديمة الجدوى. لم يكونوا يعرفون أيَّ شيءٍ عمَّا حدث هنا. كلُّ ما كانوا يعرفونه أنهم من المفترض أن يقبضوا على رجلٍ خَطِر ويقتادوه إلى الحجز.»

أخرجتُ يديَّ من كُمَّي المعطف الطويلَين، وجففتُ بهما وجهي.

قلت: «لماذا فعل ذلك؟ لماذا أمسك بندقيته هكذا؟ لم تكُن تعمل أصلًا. وما كان توبي ليطلق النار عليهم بأيِّ حال. ما كان ليفعل ذلك إطلاقًا.»

تنهَّدت أمي. وقالت: «أنا أيضًا لا أظن ذلك. ولا أعرف لماذا فعل ما فعله. باستثناء أنه ربما قد سئم هذه الدنيا يا أنابل.»

«بعد كل هذا الوقت من التعايش مع حزنه الشديد؟ قرَّر أنه لا يستطيع البقاء في الدنيا «الآن»؟ عندما أصبحنا أهله وعائلته؟»

هزَّت أمي رأسها. وقالت: «لا أعرف يا أنابل. ولكن تذكري شعورك حين تكون يداكِ باردتَين جدًّا حتى إنهما تصبحان خدرتَين. تذكري أنكِ لا تدركين حجم الألم فيهما إلَّا عندما يبدأ الدفء يدبُّ فيهما.»

ظللتُ بعض الوقت أنظر إلى يديَّ وأنا أفكِّر فيه. قلت: «قال إنه كان يتمنى أن تكون لديه ابنة مثلي.»

ابتسمت أمي. وقالت: «أي شخصٍ سيتمنى ذلك.»

تذكَّرتُ الليلة التي أخذتُ فيها توبي إلى الحظيرة لأخبئه. وقلت لها: «هل كنتِ تعرفين أنه يخشى الأماكن المرتفعة؟»

هزَّت رأسها بالنفي.

«لكني عيَّرته بذلك حتى حملته على تسلُّق سلم العلية، ولم يتردد قَط في تسلُّقه بعدئذٍ. أصبح يتسلقه بكلِّ سهولة.»

قامت أمي وصَبَّت لي كوبًا صغيرًا من القهوة، ووضعت عليه الكثير من القشدة والسكر. وقالت: «يبدو أنكِ كنتِ تعرفينه بقدرٍ أكبر مما ظننتُ.»

«لقد عرفني قبل أن أعرفه.»

احتسينا قهوتنا في صمت، بينما تسللت أشعة الشمس من خلال النوافذ، حاملةً معها كل الألوان.

الفصل السابع والعشرون

ظللتُ جالسة عند طاولة المطبخ، وانتظرتُ استيقاظ بقية أسرتي، فردًا تلو الآخَر. عَزَّوْني كلهم بالترتيب، وصولًا إلى جيمس، وأعربوا لي كلهم، لا سيما هنري، عن بالغ أسفهم على موت توبي.

كلهم واسوني ما عدا العمة ليلي، التي كانت جالسة تشاهد، وهي تحتسي القهوة مُرتدية رداءها المنزلي الوردي المصنوع من القطن الخفيف، وقالت: «لا أفهم كيف لفتاة مثلكِ أن تشعر بأي شيء تجاه رجلٍ كهذا سوى الرُّعب منه.»

لم أردَّ عليها، لكن هنري ردَّ.

قال: «كانت صديقته»، لكن العمة ليلي زفرت تعبيرًا عن ازدرائها.

ثم قالت: «ولماذا ترتدين هذا المعطف؟ إنه شبيه جدًّا بالمعطف الذي كان جوردان يرتديه عندما جاء ليساعد في العثور على بيتي.»

بدا أنَّ أمي كانت تهمُّ بقول شيء ما، لكنها نظرت إلى والدي، فهز رأسه ليمنعها، ثم أومأ الاثنان لي، وكأنَّ لسان حالهما كان يقول: «هيا افعليها. لا بأس.»

انحنى جدي إلى الأمام ليُلقي نظرةً عن قرب، ثم رجع مجددًا وهو يومئ برأسه. قال: «هذا معطفي القديم. ويبدو جميلًا جدًّا عليكِ يا أنابل. باستثناء أنَّ كُمَّيه ربما يكونان أطول مما ينبغي.»

أخرجتُ القفاز من جيب المعطف الأيمن ووضعتُه على الطاولة.

قال جدي: «وقفازي المُفضَّل. لقد كنت أبحث عنه.»

قالت العمة ليلي ببطء: «وجوردان كان لديه قفاز كهذا بالضبط. استغربتُ أنه كان يرتديه على طاولة العشاء في تلك الليلة.»

جاء هنري ليتفحَّص القفاز. وقال: «لم يكن لديه قفاز كهذا. بل كان لديه هذا القفاز نفسه. لقد رأيتُ بقعة التوت تلك على الإبهام عندما كان يدق ألواحًا جديدة في الحظيرة بالمطرقة. أتذكَّر أنها كانت شبيهة بقارة أفريقيا.»

كان جيمس هو الوحيد على المنضدة الذي لم ينشغل عن فطوره بالقفاز الذي قبع بجوار طَبقي، بهدوء وصبر في انتظار أن يُرتدى مجددًا.

قالت العمة ليلي: «لكن لماذا تحملين قفاز جوردان بحوزتكِ؟ هل نسيه؟»

قال جدي: «هذا قفازي أنا يا ليلي. وهذا معطفي. ولا أعرف ماذا كان جوردان يفعل بهما، ولست مهتمًّا. والآن ناوليني السكر يا ليلي، والقشدة يا أنابل، وإلَّا فسأضطر إلى أن أشرب هذه القهوة سادة.»

كان هنري يحدِّق إليَّ. وكان والداي يشاهدان في صمت. وكانت جدتي تفرد المربى على قطعة من الخبز المحمص. وسرق جيمس شريحة لحم من طبق هنري، دون أن يلاحظه أحد.

قالت العمة ليلي: «لكن لماذا ...؟»

فقاطعها هنري فاغرًا عينَيه كالبومة: «هذا لم يكُن جوردان. بل كان توبي.»

ترك جدي شوكته. وقال: «مَن عساه كان توبي؟»

فقال هنري: «جوردان. لقد خلع القفاز من يدٍ واحدة فقط. أعني عندما كنا نتعشى. لئلَّا نرى ندوبه.»

قالت العمة ليلي وهي تنظر بعبوسٍ داخل فنجان قهوتها: «لا تكُن سخيفًا. فجوردان رجل لطيف جدًّا.»

قالت جدتي بإمعان في التفكير: «أتقصدين هذا الشخص الذي ظهر فجأة. مرتديًا ذلك المعطف وذلك القفاز.» نظرت جدتي إليَّ بفضول. وسألتني: «أنابل، لماذا ترتدين هذا المعطف؟»

نظرتُ إلى والديَّ مرَّة أخرى، وأخذت الخطوة الأخيرة. قلت: «لأنني كنت أشعر بالبرد الليلة الماضية، في غرفتي، التي خبَّأت فيها المعطف، لئلَّا تجده الكلاب البوليسية في حجيرة المدخل.»

كان الجميع بحلول ذلك الوقت قد صاروا منتبهين، حتى جيمس. قال: «لماذا كانت الكلاب البوليسية ستدخل غرفة الوحل يا أنابل؟ هذا هراء.»

فقال هنري: «لأنها كانت تتعقَّب رائحة توبي.»

وقالت العمة ليلي: «آه، سحقًا! توبي لم يدخل هذا البيت قط. ولا مرَّة واحدة. ولم يرتدِ معطف جدك بالطبع.»

قال هنري: «جوردان هو توبي. أليس كذلك يا أنابل؟»

أومأتُ بالإيجاب. وقلت: «بلى يا هنري، هذا صحيح. وأنتِ مُحقة أيتها العمة ليلي، لقد كان رجلًا لطيفًا جدًّا.»

سادت بعدئذٍ حالة من الالتباس والفوضى، وعندئذٍ تركتُ والدي يجيب عن الأسئلة، بينما تغيَّر وجه العمة ليلي من الأبيض إلى الأحمر ثم عاد أبيض مجددًا.

دسستُ يديَّ في جيبَي معطف جدي الفسيحَين، وبينما كنت أشاهدها تحاول جاهدةً أن تستوعب المفاجآت التي كانت تُكشَف لها لأول مرَّة، اكتشفتُ أنا مفاجأة جديدة بنفسي.

توبي، الذي كان على دراية تامة بالشعور بالخزي، قد ترك لنا شيئًا استطاع أن يُشعر الجميع بهذا الشعور، حتى العمة ليلي نفسها.

وجدتُ ذلك الشيء، باردًا وصلبًا، في قاع الجيب الأيسر. حاولت إخراجه، لكنه كان عالقًا في بطانة الجيب.

قلتُ وأنا أقف: «يوجد شيء ما في هذا الجيب.»

فسكت الجميع.

فككتُ أزرار المعطف لأحاول إخراج ما في الجيب بكلتا يديَّ.

واستطعت انتزاعه أخيرًا، فتبيَّن أنه نجمة ذهبية تحمل وجهًا منقوشًا في وسطها، داخل إكليل من الزهور. وكان يوجد أعلاها نسرٌ مستقرٌّ على شريطٍ يحمل كلمة «بسالة». قلَّبتُها.

ثم سألت العمَّة ليلي ببطء: «بمَ كنتِ تصفين توبي؟ وَحش؟ مجنون؟»

سلَّمتُ النجمة إلى والدي، فنظر إليها عن قُرب وقرأ ما كان منقوشًا على ظهرها بصوتٍ عالٍ. ««من الكونجرس إلى توبياس جوردان.»» رفعَ عينَيه إليَّ، وكان شاحبًا كالعمة ليلي. ثم قال: «أنابل، هذا وسام شرف ممنوح من الكونجرس.»

قالت العمة ليلي فجأةً بجِدَّة: «دعني أرَ ذلك.» تفحَّصت الوسام بحثًا عن مَهرَب، لكنها لم تجد مَهربًا بالطبع. قالت: «حسنًا، كيف كان يُفترض أن نعرف أنَّ الرجل كان بطل حرب؟»، وسلَّمَت الوسام إلى جدي، الذي أمسكه بعناية كأنه مصنوع من الزجاج.

قلت: «لم يكُن كذلك. كان سيُخبرك بذلك بنفسه لو لم تقتله الشرطة الليلة الماضية.»

ذهبتُ إلى المدرسة في ذلك اليوم، لكن لا أتذكر أي شيء عمَّا حدث فيها آنذاك.

لا بد أنَّها شهدت جلبة كبيرة عن موت بيتي، ولا بد أنَّ بنجامين قد عاد إلى المقعد الذي كان آندي قد احتلَّه معظم الشهر. توقعتُ أنني لن أرى آندي في المدرسة فترة من الوقت. لن أخاف منه بعد ذلك أبدًا على أي حال.

أتذكر أنَّ هنري انتظرني في فناء المدرسة عند نهاية اليوم الدراسي، بدلًا من أن يركض إلى المنزل مباشرةً مع جيمس.

سألني: «هل تريدين المشي معنا؟»

هززتُ رأسي بالنفي. وقلت: «لا بأس. أنا بخير. اسبقاني أنتما الآن. سأراكما في المنزل.»

في الحقيقة، لم أكُن لأمانع أن يرافقني أحد آنذاك، خصوصًا أخي الذي بدا أنه صار يعتبرني إنسانة حقيقية بالفعل.

لكني كنت عازمة على الذهاب إلى مكان ما، وأردتُ الذهاب إليه وحدي.

لم يكُن متبقِّيًا سوى ساعتَين على الغروب في نهار نوفمبر القصير، وكانت وجهتي بعيدة بعض الشيء، لكني توقفت لبرهة على الممشى الذي كانت بيتي قد واجهتني عنده أول مرة، والذي تحادثنا عنده محادثة قصيرة آنذاك قبل أن أتركها وأرحل. أخبرتُها بأنني أحاول أن أسامحها وأسامح نفسي أيضًا، لكني لم أكُن متيقنةً ممَّا إذا كنت سأقدر على ذلك، وهي لم تردَّ عليَّ على أي حال.

وذهبتُ إلى حيث كانت حفر الذئاب موجودة ذات يوم، وقضيتُ بعض الوقت هناك أيضًا.

غير أنَّ الذئاب التي ماتت هناك كانت صامتة هي الأخرى. ولم أدرك إلَّا وأنا واقفة هناك، أرهِفُ السمع، أنني كنت أسمع ترجمة صيحاتها بالفعل طوال الأسابيع الماضية.

تمنيتُ أن تساعدني لأفهم قصص توبي يومًا ما، إذا تشجعتُ ذات يوم على أن أخرجها من صناديقها مرَّة أخرى.

كان الكوخ الذي كان توبي يسكنه قد بدأ يفتقده بالفعل.

وجدتُ أنَّ عنكبوتًا قد ترك كيسًا من البيض في شبكةٍ، فوق المكان الذي كان توبي ينام فيه، وتصورتُ البيض يفقس عندما يحلُّ الدفء في الربيع القادم، فتتساقط العناكب الصغيرة على مرقد توبي المصنوع من أغصان الصنوبر.

كان يوجد أيضًا أثر لأحد حيوانات الراكون في أحد أركان الكوخ، بالقرب من مَنفَسِ دخان النيران التي كان توبي يستخدمها، وأدركتُ أنني لن أستطيع العودة إلى هنا مجددًا.

استغرقتُ وقتًا طويلًا في نزع الصور المتبقية عن الجدران.

كان استخدامه عصارة أشجار الصنوبر للصقِ الصور ينمُّ عن شيئَين: إمَّا أنه لم يكُن يملك شيئًا آخَر ليستخدمه، أو أنه كان يعتزم البقاء هنا إلى الأبد.

وكلا الاحتمالَين جعلاني أبكي.

كنتُ قد أحضرت سكِّين تقشيرٍ لأحاول فصلَ الصور عن الحوائط دون إتلافها، بعدما دفَّأتُ عُصارة الصنوبر أولًا بالضغطِ على كل صورة بكلتا يديَّ، لكني مع ذلك أتلفتُ الصور التي كانت مستعصية للغاية رغمًا عنِّي.

أمَّا الصور التي استطعتُ انتزاعها، فكانت مجعَّدة من تأثير تلك العملية، وكان معظمها رقيقًا جدًّا حيث تلاشى الجزء الورقي الداعم من خلفها. وبذلك بدا أنَّ جزءًا من كل صورة كان يتوهَّج إذا رفعتها إلى الضوء. فأعجبني ذلك.

تركتُ القليل من الصور، لأستطيع العودة إلى المنزل قبل حلول الظلام، لكنَّ السبب الأكبر أنها كانت تنتمي إلى المكان الذي كانت موجودة فيه. كصورة الغزالة الغافية في رُقعةٍ من نبات البدفيل. وصورة ثعلب أحمر يطارد جرذانًا في رقعة الفراولة، فيما يبدو طرف ذيله كرأس سهمٍ أبيض.

أمَّا الصورة الأخيرة التي أخذتُها معي، فكانت صورة صقرٍ واقف على «حجر السلحفاة». كدتُ أتركها هناك لأنها كانت جميلة جدًّا، لكني أخذتها لأنها كانت جميلة جدًّا.

توقعتُ أن أتلقى توبيخًا عندما وصلت إلى المنزل في مساء ذلك اليوم. لكنَّ أمي اكتفت بتحيتي تحية مقتضبة وأعطتني مئزرًا.

وعندما دخل هنري المطبخ، وهو يبدو مرتاحًا لرؤيتي هناك، أعطيته حزمة الصور.

قلت: «لقد ترك توبي هذه الصور. وإذا أردت الكاميرا، فهي في غرفة نومي. لقد وضعتُ فيها بَكَرة جديدة من أفلام التصوير. يُمكننا أن نتناوب أنا وأنت على استخدامها، بَكَرة بعد بَكَرة.»

فقال جيمس وهو يدخل المطبخ متقافزًا ومرتديًا قبعة من فرو الراكون: «وماذا عنِّي؟» كان يبدو أنَّ جدتي قد بدأت تقرأ له كتابًا جديدًا، عن الغرب الأمريكي القديم على الأرجح.

قلت له: «يُمكنك أن تلتقط بعض الصور أنت أيضًا.»

فقال: «هل كان دانيال بون يلتقط صورًا؟»

فقال هنري: «لا أظن ذلك.»

فقال جيمس وهو يخرج راكضًا من المطبخ إلى غابته البرية الخاصة: «إذَن، فأنا أيضًا لن ألتقط الصور.»

التفت هنري إليَّ. وقال: «ستكون الكاميرا لنا نحن الاثنَين إذَن.»

أشعرتني الطريقة التي قال بها هذه الجملة أنني ربما سأشعر بالسعادة مجددًا، عمَّا قريب.

كانت جنازة بيتي غريبة. امتلأت الكنيسة عن آخِرها بأناسٍ معظمهم لم يقابلوا بيتي قَط، لكنهم كانوا يعرفون جدها وجدتها، أو كانوا يعرفون والدها في أثناء نشأته، أو سمعوا بموتها الفظيع وأرادوا أن يشيعوها تشييعًا لائقًا.

في الجنازةِ، ميَّزتُ هُوية والد بيتي «الغائب»؛ لأنني كنت قد رأيتُ صورته في غرفة نومها من قبل. اختار مقعدًا بعيدًا عن أمها، التي كانت جالسة في المقعد الأمامي وكانت تبكي دافنةً رأسها بين يدَيها.

استطعتُ من مكان جلوسي أن أرى أنَّ وجهه كان جافًّا. ولكن عندما وقفنا لنُنشِد ترنيمة «قرِّبنا إليك يا رب»، انطوى على نفسه في مقعده وظلَّ يفرك عينَيه بلا توقف، وكانت كتفاه ترتجفان.

كان جَدُّ بيتي قد صنعَ تابوتها بنفسه. وطلاه باللون الأبيض. تحسَّرتُ على وضع تابوتٍ كهذا في الحفرة الموحلة التي قد حفروها لها. ورأيتُ أنه كان من القسوة البالغة أن نتركها هناك وحيدة، بلا أي صُحبةٍ سوى الزهور التي قد وضعناها فوق تابوتها، والتي كان معظمُها هو آخِر زهور النجمة البرية، وما استطعنا جمعه من زهور القضبان الذهبية، التي وجدناها في الحقول الآخذة في الاحتضار.

لكننا تركناها على كل حال، تركناها جميعًا حتى آخِر واحدٍ منَّا، وإنْ كان البعضُ قد تركها بوتيرة أبطأ من البعض الآخَر. وعندما مررنا بالمقبرة في اليوم التالي، لم نجد سوى مهادٍ مرتفع من التراب، وبقعة جرداء منثور عليها زهور وأوراق مهترئة، حيث كانت بيتي قابعةً في مثواها الأخير.

ذكَّرتني بيتي بعد رحيلها بهبَّاتِ أبريل الباردة، التي كانت تُبقي والدي ساهرًا طوال الليل، ليؤجِّج النيران الموقَدة في بستان الخوخ كي ينقذ الأزهار الرقيقة من التجمُّد.

كان بعضها ينجو ليُصبح أطيب ثمارٍ في الدنيا. وكان البعض الآخَر يذبل على غصنه، ويموت بسبب الصقيع، فيُهدَر بلا جدوى.

بدا لي أنَّ بيتي كانت بمثابة الزهرة والصقيع في آنٍ واحد.

أمَّا جنازة توبي، فكانت مختلفة تمامًا.

لم يكُن لدينا الكثير من المال، ولكن كان لدينا ما يكفي لجلبِ جثمان توبي إلى الديار ودفنه، ليس في ساحة الكنيسة، بل على قمة التلة الواقعة فوق مُنخفَض «حفرة الذئاب»، أسفل شاهد بسيط منقوش عليه اسمه وسنين حياته.

كنا قد عرفنا تاريخ ميلاد توبي بسهولة؛ إذ إنَّ سلطات الجيش أخبرتنا به، كما أخبرتنا بأنَّه لم يكُن لديه أقرباء أحياء؛ لكننا نحن مَن أخبرناهم بتاريخ وفاته.

أرسلوا إلينا طَردًا من المعلومات عن مآثره التي استحقَّ بها نيل الوسام، لكني كنتُ قد سمعتُ القصة من وجهة نظره سلفًا؛ ولذا لم يكُن أيٌّ من ذلك مهمًّا حينئذٍ. لم يكُن مهمًّا لي على الأقل.

اجتمعنا كلنا على قمة هذه التلة بعدما دفنَّا توبي في مثواه الأخير. اكتفينا بالوقوف صامتين أغلب الوقت، وقد بدا هذا تشييعًا لائقًا.

لكنَّ العمة ليلي فاجأتني. إذ قالت: «أنا نادمة على تسرُّعي في الحُكم على هذا الرجل»، لكنها لم تكُن ناظرة إلى قبره، بل كانت تنظر بعيدًا، كما لو كان موجودًا في مكانٍ آخَر … وأفترضُ أنه كان كذلك بالفعل، لكنني لم أشعر بذلك.

وبعد بعض الوقت، غادر جدي وجدتي عائدَين إلى المنزل ببطء، ثم تبعتهما العمة ليلي بخطواتٍ متباطئة.

قبَّلني والداي وغادرا هما أيضًا.

قال لي هنري حين بدأ الضوءُ يتلاشى رويدًا: «هيا يا أنابل. لنذهب.»

لكني لم أكُن مستعدة للرحيل بعدُ؛ ولذا بقي هنري، وحتى جيمس، الذي كان قد ركض بعيدًا، عاد بفضولٍ ومعه الكلاب، ليستلقي على ظهره فوق العشب بجوار قبر توبي ويُعلِّق بإسهابٍ على الغيوم التي كانت في السماء.

ثم عُدنا كلنا إلى المنزل.

وعلى مرِّ السنوات التالية، ظللتُ أجلسُ من حين إلى آخَر على قمة التل، بجوار قبر توبي المُطِل على مُنخفَض «حفرة الذئاب»، وأحدِّثه عن حياتي.

كان يبدو أنَّ المُنخفَض أيضًا يُنصت إليَّ، وكثيرًا ما كنتُ أتساءل عن ماهية كلِّ شيء آخَر قد سمعه على مرِّ القرون الماضية. صوت الرجال وهُم يحفرون الحفر. صوت الحيرة

اليائسة للذئاب التي كانت تُوقَع في الفخ. صوت ذئبٍ ربما لم ينخدع برائحة الطُّعم، فيظل على أرضٍ آمنة ويمشي جيئة وذهابًا بطولِ حافة الحفرة في الأعلى، ناظرًا إلى أسفلها نحو رفاقه المحكوم عليهم بالموت. تخيلتُه ينسحب إلى الأحراج عندما يجد الرجال عائدين في الصباح ببنادقهم.

وتخيَّلتُه في حيرة عظيمة بين حاجته إلى القتال ورغبته المُلحة في العيش، ممزقًا للغاية بين الخيارَين حتى إنه ليشعر وكأنه ينزف هو الآخَر مثل رفاقه. لم يسعني إلَّا أن أرى مُنخفَض «حفرة الذئاب» مكانًا كئيبًا قاتمًا، بغض النظر عن شدة سطوع الغطاء الشَّجَري الممتد من فوقه، وبغضِّ النظر عن شدة جمال الزهور التي كانت تنمو في ضوئه المتقلب.

لكنَّ «حفرة الذئاب» كان أيضًا هو المكان الذي تعلمتُ فيه قول الصدق، في ذلك العام السابق على بلوغي سن الثانية عشرة؛ قول الصدق عن أشياء كان تجنُّبها مستحيلًا. أشياء كان تجنُّبها خطأً. مهما كان مُغريًا.

بُحتُ لتوبي بكلِّ هذا، لكني قلتُ له أيضًا إنني لا ألومه على هروبه من الشرور الكُبرى التي عرفها. وشكرتُه على أنه أتاحَ لي محاولة تصحيح الكثير من الأخطاء، وإنْ كان هو نفسه قد استسلم.

لكنَّ الرياح دائمًا كانت تذرو كلماتي كظلال الغيوم، كما لو أنَّ بَوْحي بها كان هو الأهم، بغضِّ النظر عن هُوية مَن سيسمعها.

ولم أرَ في ذلك أيَّ بأس على الإطلاق.

هنـــداوي